مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

فوزي ذبيان

الإرهابي الأخير

رواية

الفارابي

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

فوزي ذبيان

الإرهابي الأخير

رواية

الفارابي

الإرهابي الأخير

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

روايـــة

تأليف

فوزي ذبيان

دار الفارابي

الكتاب: الإرهابي الأخير

المؤلف: فوزي ذبيان

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 ـــ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: info@dar-alfarabi.comwww.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2010

ISBN: 978-9953-71-571-1

جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع: www.arabicebook.com

إلى موسى وهبة

سقراط: من الصعب، يا كاليكليس، ومما يستحق الثناء أن يعيش إنسان حياة فاضلة وهو قادر على الشر.

محاورة غورغياس، أفلاطون

الإرهابي الأخير

1

اسمي فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي. أنا روائي روسي من القرن التاسع عشر.

لم يزد كلمة واحدة إلى هذه الجملة الأبدية الموجهة إلى لا أحد.

التفت صوب المنزل العابق بمئات القضبان الحديدية المثبتة فوق نوافذه، ابتسم ابتسامة تنم عن استخفاف جهنمي ثم توجه ناح البيت. جعل يعد خطواته بتأنٍ وقد تدثر معطفاً أسود وذقناً وشاربين خفيفين.

صعد الدرجة الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة فالخامسة، ثم قرع الباب بمطرقة حديدية على شكل يد مضمومة. دج دج دج دج... لم يرد عليه أحد، ولم يُفتح الباب. "أنا أعلم أنك بالداخل"، قال دوستويفسكي، "افتح الباب".

حافظ السكون على مجمل سكونه إلا صوت الهواء الذي كان يتمتم عبر بعض الأشجار الصغيرة وشوشة ليصير صراخاً مرعباً تقوله شجرات ضخام... إنها من تلك التي تُزرع حول القبور.

اقترب من نافذة صغيرة لا تشبه إلا النافذة الصغيرة وجعل، وقد شدّ المعطف حول جسده أكثر، يرقب البيت من الداخل. أشياء البيت، وقد زحط الضجر من كل مكان في العالم ليتجمع هنا، كانت تحادث نفسها بمقت وبجمل قصيرة. كان الأثاث موزعاً داخل قاعات المنزل توزيعاً أبدياً حتى لتظن أن الله بنفسه قد وزع هذا الأثاث كما همس دوستويفسكي في أذن النافذة الجاثمة خلف القضبان.

كل شيء كان في مكانه جامداً لا يتحرك إلا هرة كانت تمشي بتثاقل لا ينتهي كأنها الهم.

دج دج دج... عاود الطرق بالمطرقة الحديدية المعلقة فوق الباب، لكن بلا جدوى. اشتد الهواء حول دوستويفسكي وقد أتى المساء والأشجار صارت كأنها أشباح تحاول الانقضاض.

هرة الهم، تلك التي تمشي بتثاقل خبيث، أرخت برأسها فوق قائمتيها الأماميتين المضمومتين منذ الأزل وجعلت ترمق صاحب المعطف من فوق حافة إحدى النوافذ الخارجية. يبدو أنّ ثمة باباً سرياً للقطط في هذا المنزل الـ... (اختاروا الصفة التي تشاؤون).

كانت القطة وهي سوداء تبلغ من العمر قططاً تتأمل دوستويفسكي بنظرات تتراوح بين الخوف منه ومحاولة تخويفه في آن معاً. تارة تدور برأسها حول رقبتها ببطء، وتارة تشد هذا الرأس إلى الأمام كأنه مفتاح ليل لا ينتهي.

لم يحد دوستويفسكي قيد أنملة من مكانه أمام الباب صاحب اليد المضمومة ولم يرف له جفن في خضم المابينه وما بين القطة السوداء. كانا كالمأخوذين ببعضهما البعض هي الرابضة فوق قائمتيها الأزليتين وهو المتدثر المعطف المشدود بواسطة يديه الاثنتين.

قبل منتصف الليل بقليل، والقمر صار أبيض والريح بعض نسمة بل أخف بكثير... مياو...مياو. لم تبادله المواء، نطّت من مكانها مذعورة وقد انهال عليها دوستويفسكي خربشة. جعلت تعدو في

الحديقة بشكل دائري وكأنها قطة دائرية، بينما دوستويفسكي المتدثر يعيد ترتيب نفسه في مكانه عند مدخل البيت فوق أعلى الدرج.

ليس من الضروري أن يكون لهذه القطة أي مرور آخر طيلة هذا الكتاب، لكنها ما زالت تدور حتى اليوم. أما دوستويفسكي، فكف عن أن يكون أمام الباب متدثراً... لقد ولج عتبة البيت، والقصة هي أن جوّان البيت انفتح على برّانه بعد أن دفع دوستويفسكي باب هذا البيت بكتفه حتى بجّه عن بكرة أبيه.

2

يُلقّب بالأخير. كان في الصف الثالث تكميلي في المدرسة الرسمية للصبيان يوم دخل دوستويفسكي إلى البيت أول مرة. اشتهر بذكائه الخارق وبولعه بقراءة الشعر وحيداً، وكان الأكثر جرأة على سرقة الورود بين كل أترابه.

عارية أنتِ ببساطة مثل إحدى يديكِ.

ناعمة، أرضية، صغيرة، مكوّرة، شفافة.

فيكِ دروب قمر، طرق تفاح.

عارية أنتِ، نحيلة مثل القمح العاري.

عارية أنتِ زرقاء مثل الليل في كوبا.

في شعركِ لبلاب ونجوم

مثل الصيف في كنيسة ذهبية.

صعقته معلمة التاريخ بصفعتها القوية، فاختار أن ينسحب من العالم مؤقتاً ويركن إلى زاوية يقرأ فيها الشعر وحيداً. جاره كاتب أو شيء من هذا القبيل، كان يزوده بكتب الشعر التي ما انفك يلتهمها التهاماً.

لم يكتف عصر تلك الصفعة بقراءة نيرودا، إذ ومع صياح الديكة كان يردد مع لوركا:

...لكن البكاء كلب

البكاء ملاك هائل

البكاء كمان.

لم يرض أن يتناول فطوره، فهو لا يريد الذهاب إلى المدرسة اليوم أيضاً. بحلق في جاره الكاتب وقد مال لون عينيه إلى الأحمر الحزين ثم قال: **"لماذا غضبت مني هكذا؟ فهي بالفعل تثيرني!"**

3

جعل يجول بنظره في أرجاء المنزل الفسيح متوقعاً رؤية أحدهم.

"أين أنت؟ لمَ لا تظهر أمامي؟" سأل دوستويفسكي بنبرة قاسية وبإيقاع يؤكد بالفعل أن ثمة من بهذا الداخل الصارم. لكن داخل المنزل اكد بشدة اللابشري المتوقَّع من قبل دوستويفسكي. نقل دوستويفسكي خطاه من أمام الباب حيث تسمّر لدقائق ليجد نفسه أمام مدفأة ضخمة خانتها النار منذ قرون. جعل ينكش رماد المدفأة البارد بواسطة قضيب حديدي وهو يمعن النظر في عدة ساعات معلقة في أنحاء مختلفة من الجدران.

مثل الجدران، لم تكن عقارب الساعات الكثيرة تنم عن أي حركة وكأني بها متواطئة مع هذا المكان المنسلخ عن الفعل المضارع منذ سنوات طوال. انتقل من أمام المدفأة والقضيب الحديدي ما زال في يده لما...

أحدث صوت تحطم المرآة ضجة يبدو أن المنزل لم يألفها منذ سنوات طوال. استمر تساقط الزجاج للحظات استعاد دوستويفسكي أثناءها رباطة جأشه وندّت عن شفتيه ابتسامة من يعترف لنفسه بأنه يجب أن يكون أشد بأساً. ابتعد عن الزجاج المحطم بنصف دائرة خطها بقدميه ليتسلق بعدها درجاً خشبياً يؤدي إلى الطابق العلوي. لم تخنه ذاكرته فيرتعب من انعكاس صورته عبر مرآة ضخمة عند آخر الدرج فيحطمها كما حصل معه منذ قليل.

لمس المرآة بكفه وكأنه يحاول اختراقها ليستدير من ثم متأملاً ثريا من الكريستال ضخمة ومتدلية عبر جنزير عجوز لتنتهي فوق البهو بأمتار. أثار الكريستال المشنوق دوستويفسكي، فجعل ينظر إليه وكأنه يحاول عبر نظراته أن يعيد الحياة إلى هذا الكريستال.

وضع يديه الاثنتين فوق الدرابزين الخشبي صاحب اللون البني الأقرب إلى أن يكون محروقاً، وجعل يفكر بامتياز.

إن دوستويفسكي يفكر بامتياز، فهو يعلم علم اليقين أن ثمة من يشاركه الوجود داخل هذا البيت الذي مات فيه الكريستال. دوستويفسكي يعرف أن الرجل بانتظاره منذ ما قبل الرماد لكنه مختبئ في ركن ما لا ريب في ذلك، قال دوستويفسكي. جمّع نفسه وقد لمس كل الغرف الشاغرة في البيت وجلس على كرسي هزاز تحت الكريستال الميت. لن أرحل من هنا، قال بصوت مسموع، أنا أعلم أنك تسمعني ولا معنى لبقائك متوارياً طوال الوقت. أنا دوستويفسكي وليس ثمة من هو أجدر مني بالتواري والظهور. إبق مختبئاً قدر ما تشاء يا صاحب الظل التعيس فأنا سأنتظرك كل الوقت ولن أشعر بأي سأم. كل ناس كتبي معي، لن أشعر بأي سأم.

4

أمضي سائراً في المساء...
بين زهور الحقل..
مخلفاً على الطريق ماء حزني.
في الجبل المنعزل
تبدو مقبرة القرية..
مثل حقل مزروع
ببذور الجماجم..
وشجرات سرو أزهرتْ
مثل رؤوس هائلة..
ترقب الأفق
بألم وقلق..
بمحاجر فارغة
وشعر مخضرّ...

على حين غرة قرر الأخير أن يعود إلى المدرسة ويصالح معلمة التاريخ بأن يقدم لها باقة من الورد الأحمر.

تسلق سور ال؟يلا العالي وقفز إلى داخل الحديقة حيث جعل يزحف كالأفعى وصولاً إلى ركن صغير مليئً بالورود. بعض من أصدقائه الأشقياء كانوا ينتظرونه عند حافة السور ويعملون على مراقبة ال؟يلا من الداخل. كل ال؟يلا كانت معتمة إلا غرفة صغيرة في الطابق الثاني حيث ظل امرأة عجوز كان يروح ويجيء بتواتر يزهق منه حتى الله.

كمية كبيرة من الورد كان الأخير يحتضنها راكضاً باتجاه السور. أخذ يرمي الورد إلى رفاقه، ثم جرجر نفسه إلى ما فوق السور حيث عمل هو وهؤلاء الرفاق ركضاً وقد تلقفوا الورد بقبضاتهم.

لم تهتم المعلمة بورد الأخير. أخذته منه بلامبالاة وأمرته بتعجرف أن يعود إلى مقعده ويجلس صامتاً. لم ينتبه في أوج ما يعبق به الآن من ورد أحمر مرمي فوق الطاولة بإهمال، بتفاصيل معركة تاريخية كانت المعلمة تشرحها بإسهاب.

فالأخير، وهو الأكثر جرأة على سرقة الورود، لم تعامله وروده اليوم إلا كمحض هامش عند هذه الفراشة المتوحشة. تقدم وفي خضم المعركة التاريخية وبدون استئذان بل وبدون تفكير أيضاً فحمل وروده من فوق الطاولة وخرج من الصف وقد عبقت عيناه بالدمع وبالورد المرمي فوق الطاولة

بازدراء. لم تردعه صاحبة التاريخ ولم تتوجه إليه حتى بكلمة واحدة. فتح باب الصف خائباً وصوت وقع قدميه الراكضتين في الرواق انتهى بأن شوهد عبر إحدى النوافذ يركض والورد يشرشر خلفه مقتولاً، مضرجاً بزفت الطريق.

إنه لوركا الشاعر الإسباني الملتهب الذي قضى شاباً...

جعل يقرأه حتى ساعات الفجر الأولى. أغلق الكتاب وحاول النوم، لكنه وما إن وضع رأسه فوق الوسادة حتى أجهش بالبكاء دفعة واحدة. لم يفهم ماذا تعني الحرب الأهلية، لكن حزنه على لوركا فرّخ في رأسه حروباً.

"مع طلوع الشمس سأذهب لألم الورد من فوق الطريق". قطع أنفاسه وجعل يكبت نهنهته وقد تحركت أمه في فراشها فخاف أن تستفيق. "لا يحق لأحد أن يترك الورد مشرداً"... ثم، وقد تلفلف بالشرشف حتى آخر رأسه: "لا يجب أن يُترك الورد يتيماً".

بملابسه الخضراء المتسخة جداً وببرميله الأخضر يجره أمامه بزهق، كان عامل السوكلين يرفع الورد عن الأرض بملقط معدني ويرمي به في البرميل دون أن يعير اهتماماً لهذا الولد الذاهب إلى المدرسة في هذا الوقت الباكر. أما الورد وقد اتسم بهذه السوكلينية الفجة، فقد تيتم بما يكفي ليصير إلى محض زبالة.

يا نيسان الإلهي..

الذي يأتي..

محملاً بالشمس والعطور..

املأ الجماجم المزهرة..

أعشاشاً من ذهب.

ثم أغلق الكتاب منقطعاً عن لوركا وتوجه إلى الصف مع قرع الجرس.

5

لم ينتبه إلى الفترة الزمنية التي قضاها فوق كرسيه الهزاز. فساعات الحائط في هذا البيت لا تشير إلا إلى وقت انتهى أو إلى وقت لم يبدأ بعد. زيزقة الكرسي الهزاز أضفت على الجو الصامت بعضاً من اليتحرك البطيء. ثمة يتحرك بليد ساد أرجاء المكان، فإذا بهر ضخم رمادي اللون يسير أمام دوستويفسكي بذنبه المقطوع أو وبعبارات دوستويفسكي بذنبه المنصرم.

لم يستطع الهر أن يخفي امتعاضه وقد صار على مقربة من رجل الكرسي الثقيل الظل هذا. قطع المسافة أمام دوستويفسكي ببطء ليتأمل هذا الأخير خصيتي الهر بتمعن. كان الهر وبقفزة متثاقلة قد صار فوق طاولة خشبية ملتصقة بجدار يحوي نافذة صغيرة جداً وبلا قضبان حديدية عندما سمع دوستويفسكي أحدهم يتأتئ فزعاً: "كافكا، أرجوك، لا تخرج من البيت".

انقطع الهر الرمادي صاحب الخصيتين الكبيرتين والذنب المنصرم عن فعل اليخرج ليعود أدراجه فيقفز من فوق الطاولة بتثاقله المعهود ويتوجه من توه إلى مصدر الصوت. في هذه الأثناء كان دوستويفسكي ومن فوق كرسيه الهزاز يراقب هذا الهر المتردد فيتابعه لعله يعلم منه مكان صاحب الصوت!

"شكراً لك يا كافكا...شكراً لك لأنك رجعت".

بتأتأته وفزعه المنعزلين شكر الرجل المتواري الهر لأنه رجع.

"حسناً، أما وقد كشفتَ عن وجودك بصوتك الهزيل، لم لا تخرج وتقابلني يا صاحب الظل التعيس؟"

لم يرد الرجل على دوستويفسكي ببنت شفة، فلازم صمته إلا بكلمة أو كلمتين خاصة بالقطط كان يوجهها إلى كافكا البليد.

تشبث دوستويفسكي بالهر المتحرك نظرات حادة مستدرجاً عينيه لأن تتابع هذا الهر في كل حركة يأتي بها، وفي كل ذهاب وإياب. صوت الرجل ما انفك يتأتئ بكلمات متقطعة يوجهها إلى الهر الذي كان على أهبة الاستعداد لأن ينفذ إرادة صاحب القطط، وهو الاسم الذي أطلقه دوستويفسكي على هذا المتواري خلف... خلف وحسب كما سيقول دوستويفسكي بعد قليل. نهض عن كرسيه الهزاز وقد أُسقط في يده لأن يعرف مكان الرجل عبر حركة هره العجوز. فهذا العجوز صاحب الذنب المنصرم بدا لدوستويفسكي وكأنه متواطئ إلى أقصى حدود التواطؤ مع توجهات سيده ومع رغبة هذا السيد في التواري والاختفاء. كان الهر يتوجه صوب ركن ما ليعود أدراجه فيقفز فوق كنبة ما ثم يلتفت راكضاً ككرة تتدحرج نحو تحت ما وهكذا دواليك. إنه هر لعين من زمن الأبالسة كما سيدوّن دوستويفسكي فيما بعد.

... نعم، إنه هر لعين، وثمة نعم أخرى وهي أشد وطأة من النعم الأولى بكثير: إن الرجل كان يتكلم من عدة أمكنة في وقت واحد.

6

"وستظل ضبعاً الخ..." هكذا هتف بي الشيطان الذي توجني
بأزهار الخشخاش الجميلة.
"أدركْ الموت بكل شهواتك وأنانيتكَ وجميع الآثام التي
لا تُغتَفر".
آه! لقد تحملتُ أكثر مما يطاق: ولكن، أيا إبليس العزيز،
أتوسل إليك، نظرة أقل شذراً! وفي انتظار الخسائس
الصغيرة المتوقعة، أنتزعُ لك، أنت يا من تحب في
الكاتب التجرد من ملكات الوصف أو الإرشاد،
هذه الصفحات البشعة القليلة من كراسة لعين رجيم.

إنها المرة الأولى التي يرى فيها الأخير إلى جثة إنسان بأم العين. ما كاد أصدقاؤه يشيرون عليه بدخول المقبرة، حتى وافق على الفور.

تقع هذه المقبرة على هامش منطقة زراعية غير مأهولة بالمرة. لم يكن ثمة ناطور أو زائرين، لم يكن في المكان إلا شواهد القبور التي تستدعي إيقاظ الميت لحظة قراءة اسمه. مساحات صغيرة من الرخام المستطيل أو المربع حُفر عليها اسم الفقيد ووقت ميلاده ووقت الموت. بعض شجرات الحور التي لطالما تمثلها الأخير ورفاقه أشباحاً تترنح أو أمواج سماء هي وحدها جيرة هذه المقابر الحزينة.

اقترب الأخير من التابوت الخشبي الذي نخره السوس بإصرار، وجعل يلكشه بعصا غليظة كانت معه. كانت الرائحة داخل المقبرة لا تشي سوى بتقيؤ مؤجل وبحالات من الغثيان عمل الأولاد جاهدين على تجنبها. لم يتحمل التابوت المسكين ضربات الأخير ولكشات عصاه، فانهار حتى آخره مصدراً طرطقة فاجأت الجميع.

هل الموت يتعدى أن يكون عبث الدود بالجسد؟ أي من رفاق الأخير لم يسأل هذا السؤال، لكنه كان سؤال الأخير بصوت يخافت الصدر بشدة.

كانت الجثة جثة امرأة، قال الأخير داحشاً عصاه ما بين فخذيها إذا جاز لي أن أستعمل هذا التعبير اللاإنساني. ربما الموت هو هذا الدود يعبث بالجسد! شقلب الأولاد الجثة حيث دود الموت ببرودته العجيبة يواظب على دوديته بحرية فوق أنحاء الجسد. غريب أمر هذا الدود، قال أحد الأولاد، إنه لا يخاف فيسرع الزحف بعيداً عن بطش حشريتنا. على العكس، كان الدود وكأن الجسد ملك له منذ ملايين السنين مسترسلاً في تأكيد موت المرأة بحركته البطيئة والواثقة من نفسها بإفراط.

لا الأخير ولا أي من رفاقه أخبر الكبار عن عبثهم بجثة المرأة. يبدو أن للموت وقاره حتى لدى الأولاد الأشقياء.

لم يمض يومان على تعاطي الأخير مع دود المكان حتى شاعت خبرية الأشباح في طول بلدة الأخير وعرضها. ما عاد أحد يسترجي الاقتراب من ذلك المكان وقد أكد البعض أنهم شاهدوا الأشباح بأم العين.

هل حقاً نحن أشباح؟ سأل الأخير والدته هذا السؤال البريء، وكان الوبال الأعظم. لم يتعود أن تضربه أمه هذا الضرب المبرح، ولم يسبق له أن رأى إلى أمه تبكي وهي تقوم بضربه.

"هل من المعقول يا الأخير أن تعبثوا بالجثث؟"

"وهل للدود الحق أكثر منا في هذا العبث الأكيد؟!" هكذا رد الأخير على جاره الكاتب وهو يحك رأسه الأقرع كعقوبة على ما فعل.

"فصل في الجحيم، آرثر رامبو".

"خذه واقرأه إذا ما شئتَ." لم يسبق للأخير أن طلب من الكاتب الاحتفاظ بكتاب استعاره منه من قبل.

ماذا كان يريد هذا الشاعر المجنون؟ توقف الأخير كثيراً عند رامبو، حتى تحول ولفترة طويلة من الزمن إلى الأخير المتأبط لـ"فصل في الجحيم" أينما ذهب.

لم يسبق للأخير أن فكّر بالموت والتشرد والفقر والمرض، ثم فجأة، رأى إلى نفسه في خضم من الانزواء الحاد ليأتي بعدها إلى أمه فيسألها إذا ما كانت تحبه وتشتاق إليه. "لن أفارقك إلا بموتي...لم أنت خائف هكذا يا الأخير؟" تململ بعنف، شتم أمه أن لا تعاود سيرة الموت أمامه وجعل يركض نحو منزل الكاتب وقد تأبط "فصل في الجحيم" كأنه جرة عزلة كما كان مدوناً بخط الأخير المفركش في أحد هوامش الكتاب.

خذ كتابك، لن أقرأه بعد الآن.

... وذات مساء، أقعدتُ الجمال على ركبتيّ-فألفيته مراً- فهجوته،

وتسلحتُ ضد العدالة،

وهربت. أيتها الساحرات، أيها البؤس، أيها البغض، أنتم

مستودع كنزي!

7

دوستويفسكي وعلى الرغم من أنه دوستويفسكي، جال ببصره في أرجاء الصوت المنبعث من عدة أمكنة مذعوراً.

مذعوراً؟ ... لعل الكلمة لا تليق بهيئة دوستويفسكي وقد تلبس لبوس التجهم والغضب والعنف المكبوت.

فإذن، جال دوستويفسكي ببصره في أرجاء الصوت المنبعث من عدة أمكنة متلهفاً. متلهفاً وحسب.

"سحقاً لك ولهاتين الخصيتين الكبيرتين." وكأن الهر... التفت إلى دوستويفسكي، برم رأسه نصف برمة ثم سار مبتعداً عن المتلهف باستخفاف مقصود. نقل دوستويفسكي خطواته بحذر متوجهاً إلى حيث الهر. أما المتواري، وفي خضم خطوات دوستويفسكي، كان يحذر الهر أن لا يستفز الضيف العزيز كما قال وقد انبعث صوته من عدة جهات متلعثماً.

"ما يستفزني جبنكَ لأن تظهر أمامي يا صاحب الوقت الأسود." لم يرد صاحب الصوت على ضيفه العزيز بكلمة واحدة أو حتى بـ... لكنه الآن وقد استشعر خطر غيظ دوستويفسكي وحنقه العارم أحَّ علامة الخوف أو ربما علامة التجنب أو لستُ أدري ماذا، لكنه أحَّ وحسب.

بقفزة واحدة كان الهر الرمادي صاحب الذنب المنصرم والخصيتين الكبيرتين يصارع أصابع دوستويفسكي القوية محاولاً غرز أظافره في أي بقعة لحم. جحظت عينا الهر وكادتا أن تقفزا من وجهه لما صرخ الرجل متوسلاً دوستويفسكي أن يترك كافكا... أن لا يقتله. قرّب دوستويفسكي فمه إلى رأس الهر هامساً في أذنه بحزم أن يدله على مكان سيده التعيس وإلا!!

تحول الهر بلمحة بصر إلى جثة بين يدي دوستويفسكي القاسيتين. رمى به فوق كنبة كانت بقربه ليسقط بعدها على الأرض محدثاً جلبة تتوافق مع حجمه الكبير. الهر وقد صار فوق الأرض بما فيه الكفاية، قفز من مكانه واثباً لينظر إلى دوستويفسكي بلؤم ويتبعثر كأنه لم يكن.

"تباً لك من روائي مجرم، لقد قتلت كافكا العزيز"، ثم أجهش الصوت بالبكاء. جعل دوستويفسكي ومع نحيب الصوت وولولته العمياء يشقلب أغراض المكان وكأنه يريد أن يباغت هذا الصوت.

كأني بالصوت قد تحول مع هذا المتلهف إلى شيء ملموس يجب إلقاء القبض عليه وترويضه وربما معاقبته أو زجه في الأتون. صارت أشياء المكان نصوصاً دوستويفسكية بامتياز، نصوصاً يصعب جداً التكهن بردات فعلها وبمواقفها الأصلية. إنها أشياء مشقلبة فقط، أشياء في طور الماسوف ينعجق أكثر، في طور الانبناء والانهدام في آن معاً. كثيرة هي الأواني التي حطمها دوستويفسكي في سورة غضبه، وهذه الأخيرة أقولها بهمس. كل شيء صار كل شيء، تغيرت معالم البيت بشكل كبير بينما الصوت يزاول ولولته العمياء ويندب بين الفينة والفينة كافكا، أو كافكا الشهيد كما قال في إحدى المرات.

صار الصوت يهسهس بين جنبات المكان المحطم. أما دوستويفسكي فقد جلس يتأمل شظايا غضبه وهدأة الصوت المفاجئة ثم أغمض عينيه واستسلم إلى نوبة نوم سنحدثكم عنها بعد حين.

8

"أينك يا الأخير؟ فأنا لم أرك منذ أكثر من شهر". تحجج الأخير بامتحانات نهاية العام الدراسي ليسأل الكاتب أن يعيره كتاب شعر، فهو اشتاق لقراءة الشعر.

لوتريامون-أناشيد مالدورور.

انتهى العام الدراسي ونجح الأخير ورفاقه، فإذا بالعطلة الصيفية تتلقفهم مصانع تبتلعهم من السادسة صباحاً حتى السادسة بعد الظهر. لم يكن طعم الصيف بالنسبة لهم، هم أبناء مدرسة المعارف، إلا معمل التينول أو معمل غندور أو الكوكا كولا أو البيبسي كولا أو غيرها من معامل صحراء الشويفات. فصيف الأخير آنذاك كان معمل التايد تارة ومعمل السبارتن تارة أخرى وفي بعض الأحيان معمل الزجاج في منطقة خلدة مفرق بشامون أو غيرها من المعامل في منطقة المكلس أو الدورة أو حي السلم وربما الشياح. هو هكذا صيف الأخير ورفاقه، ورشة باطون، محطة وقود، صيانة مصاعد وفي بعض المرات أشغال صحية أو ميكانيك.

صيفهم سندويشات يتأبطونها في الصباح الباكر وكلمات جميلة تطلقها الأمهات على هؤلاء العمال الصغار. كان الأخير شأنه في ذلك شأن أترابه يياوم المعامل فرحاً إلا يوم الأحد. فهو لم يكن يدري أن الصيف لمن هم في مثل عمره يجب ان يكون محض أحد.

صيف الثالث تكميلي-بري؟يه لم يكن صيفاً مريحاً بالنسبة للأخير. فهو وخلافاً للعام الفائت لم يوفَّق بمصنع مريح يزاول فيه الصيف نقوداً قليلة يقبضها، فإذا به وعلى غفلة من أول الصيف يشتغل في مصنع للبلاط. لقد تأخر الأخير قليلاً فلم يحجز لنفسه وظيفة هينة في أحد المعامل التي تعوّد العمل فيها مع بداية كل صيف، فإذا به كائن في طور البلاط خلف ماكينات الصوت فيها لا يرحم.

استقبله صاحب المعمل بحفاوة بالغة، لكنه حذره أن يظل متيقظاً... لم يتوقف الأخير كثيراً عند هذه الكلمة الأخيرة.

إنها مثل فرقة كركلا.

بالإضافة إلى الأخير، كان مصنع البلاط يضم عمالاً هنوداً وعمالاً من بنغلادش ومشرفاً على العمال؛ شيخ درزي من بلدة بشامون بالإضافة إلى كميل.

لم يكن كميل غريباً عن الأخير بالمرة، فهو لطالما وافاه حتى الصف الخامس الابتدائي حيث جعل يرسب ويرسب حتى صار جزءاً لا يتجزأ من ماكينة صب البلاط التي كانت تقف أمامه أو هو يقف خلفها فالأمر سواء.

رحّب كميل بالأخير بتشاوف ملحوظ وكأني به يأخذ بثأر قديم. لم يكن العمل في مصنع البلاط هيناً بالمرة والغريب في الأمر أن الأخير لم ينزعج من هذا العمل البتة. فهو فكر أن العمل هنا جزء لا يتجزأ من طبيعته الولادية.

إنها مثل فرقة كركلا. هي الفكرة الأولى التي راودت الأخير وقد سها كميل للحظات عن عنف ماكينته، فإذا بأصابع إحدى يديه تتراقص فوق أرض المعمل مثل فرقة كركلا كما همس الأخير مستغرباً. تمّ نقل أصابع كميل المزخرفة باللون الأحمر إلى إحدى المستشفيات القريبة التي نُقل إليها كميل أيضاً.

صاحب المعمل وعلى الرغم من حفاوته جعل يؤنب الشيخ الدرزي بكلمات نابية مهدداً إياه بالطرد وبعظائم الأمور. فهو المشرف على العمال وما كان يجب عليه أن يسمح بما حصل كما جعر صاحب المعمل مغتاظاً. أحد العمال الهنود أخذ يدلق الماء فوق الساحة الحمراء، بينما الآخرون أوقفوا الماكينات بأن أطفأوها. أما الأخير ولأول مرة منذ أن باشر البلاط في هذا المعمل فقفل عائداً إلى البيت قبل انتهاء الدوام بقليل.

رفضت والدته أن يعاود العمل في هذا المصنع الخطير. فهي وقد شاركها زوجها في ذلك تدرك أهمية الأصابع في مسيرة الحياة ولا سيما أن الولد ما زال في مقتبل العمر.

- إنها قنينة ويسكي.

- كلا كلا، إنها قنينة نبيذ.

- وما هذه؟ ؟ودكا؟ ما هو ال؟ودكا؟

- انظروا، انظروا، هل لكم أن سمعتم بالليكور من قبل؟

جعل الأخير وقد صار عاطلاً عن العمل يتسكع في زواريب الأمكنة مع بعض المتسكعين.

تفو، لعن الله أهلكم.

كانت رائحة القيء تفوح من ملابس الأخير ورفاقه وقد أضاع كل منهم بيت أهله من شدة السكر.

أمه، ومع لسعات النبريش الذي كانت تنهال به عليه، كانت تقول له أنها ستحطم رأسه إذا ما رأته ثانية مع هؤلاء الكلاب الأشقياء...

"زبل... زبل**!!**" بهذه العبارة المنطوية على نفسها باستهتار مادي وملموس إلى أقصى الحدود ردّ الأخير على شقيقته التي أخبرته سراً أن والده سيرسله للعمل في مزرعة أبقار على طريق خلدة- بيروت. فهذا الوالد لا يرضى أن يظل ابنه متسكعاً طوال الصيف مع مجموعة من العفاريت الذين يسـ...رقون، ويسـ...كرون، ويسـ... الخ.

9

إني قذر. القمل يقضمني. الخنازير عندما تنظر
إليّ تتقيأ. لا أعرف ماء الأنهار ولا ندى الغيوم.
فوق عنقي كما فوق زبل نما فطر ضخم. لم أحرك
أعضائي منذ أربعة أجيال. تحت إبطي الأيسر
اتخذت عائلة من الضفادع لها مقراً... تحت إبطي
الأيمن توجد حرباء تطارد هذه الضفادع باستمرار.
... كل واحد يجب أن يعيش... لقد اعتدت على هذا
الأمر. أفعى شريرة التهمت قضيبي وحلت محله:
لقد جعلتني خصياً هذه السافلة. الشرج تم احتجازه
من قبل سلطعون... يسبب لي الكثير من الوجع.
إيه، أيها الأب العاثر الحظ، هيّئ... منصة الإعدام
... على جدار غرفتي... عندما أضع على قلبي هذا...

لم يسبق للأخير أن جارى البقر في ما يعتورها من زريبة مقفلة ونظرات تنم عن حزن شديد. كلّم نفسه وهو يتأمل إحدى البقرات إن نظرات هذه البقرة تختصر كل آلام الحيوانات وعبوديتها على مر التاريخ، وهي عبارة لشاعر أجنبي حاول أن يتذكر اسمه ولم يستطع. لكنه وقد فاجأته ذاكرته بنص من أناشيد مالدورور فكّر أن هذه العبارة ربما هي للوتريامون.

كان عمل الأخير في المزرعة يقوم على كنس الزبل وتكويمه، ثم تعبئته في أكياس ليصار فيما بعد إلى نقل هذه الأكياس خارج المزرعة. تعوّد رائحة الزبل، ولم يسيئه البتة أن تلتصق هذه الرائحة به، بله ثمة حميمية لطالما راودت الأخير كلما استنشق هذه الرائحة يوماً بعد يوم. ومع هذا، ثمة ما كان يدفعه للتلطي خلف عدم البقر وعدم الماشية وخلف كل ما يمت إلى عدم الزبل بإجمال.

10

حتى اليوم، لا أحد يدري ماذا كان يدور في رأس دوستويفسكي أثناء نومه. فالرجل كان نائماً عن بكرة أبيه حتى أنه لم يكن يتنفس بالمرة. بعض أشياء المكان حاولت ترتيب نفسها بأن تعود إلى ما كانت عليه من وضع رتيب، لكن جمود دوستويفسكي النائم انعكس على العالم جموداً أشد، فإذا بهذه الأشياء تحافظ عنوة على ما ألمّ بها من دوستويفسكية كما شاهدنا منذ قليل.

بقيت الأشياء المحطمة في إطار من التناثر الجلي، وبعض الأثاث رتب شقلبته بأن حافظ على هذه الشقلبة كما أرادها هذا النائم البلانفَس. لست أدري كم استمرت نوبة النوم التي استبدت بدوستويفسكي، لكن حدسي أنبأني أن نوم الرجل طال كثيراً، أكثر مما تتحمل أحداث الرواية بكثير.

نعم، نام دوستويفسكي كثيراً فوق الكرسي الهزاز وكأني بنومه ينم عن عدم ما إذا سمحتم لي أن أستعمل هذا التعبير القلق واللائق جداً لسوء الحظ. من الممكن أن أتكلم كثيراً عن العالم الخارجي أثناء نوم دوستويفسكي وعما يحفل به هذا العالم من كل شيء. لكني، واحتراماً مني لما يختمر عادة في رأس هذا الرجل من داخل محموم، لن أعمد إلى أي خارج، فأجعله مطية لبعض كلمات هذا الكتاب. فدوستويفسكي، وهو الجواني بعمق، يأبى بنفسه أن يندرج في مجرى البراني السائل. فالأحداث، وإن كانت أحداثاً، فإنها تظل...

لحظة! إنه يبتسم. حسناً، يبدو أن ملاحظتي الأخيرة لاقت استحسان هذا النائم. صار يقهقه كالمجنون أثناء نومه الأكيد. جعل يضحك وكأن ثمة من يكركره عند أسفل قدميه أو عند خاصرتيه أو في أمكنة أخرى من جسده النائم. ضحك كثيراً ثم عاد فاستكان إلى لزاجة نومه الذي اتفقنا على أنه يشبه العدم... العدم اللزج.

طار صواب المكان، وكاد أن يجن من هذا العبق الدبق. ماذا عليّ أن أفعل كي أستأنف موجوداتي؟ كأني بالمكان يسأل نفسه هذا السؤال وقد ملّ نوم دوستويفسكي وجموده الماكر كما قالت إحدى الكنبات الواربة.

لم تتعود أشياء هذا المكان هذا الخليط الفج من الفوق تحت والتحت فوق. إنها أشياء انسيابية إلى أقصى الحدود، لا تتحمل تعرجات دوستويفسكي وانطعاجاته. سجادة حمراء مجعلكة عند أسفلها أخذت تشدّ من أزر نفسها بأن تحاول بسط جزئها المجعلك، لكن محاولتها باءت بالفشل. فهذا النائم هنا حال دون أي محاولة بسط أو تجليس يمكن أن تقوم بها أي قطعة أثاث. كان نائماً بالكامل، وأراد لنومه ان ينسحب على كل ما جاوره من أشياء ومن أغراض... يليق به أن يُكنّى في هذه الأثناء بـ"دوستويفسكي النائم".

مثل أشياء المكان، أصبتُ بموجة من الملل الشديد.ماذا عساي أقص وموضوع قصي تلقف الأحداث محض نوم وفير؟ ماذا سأكتب عن حركاته وقد لخصّتْ هذه الحركات نفسها جسداً مسترخياً فوق كرسي هزاز بعينين مغمضتين ورأس متدل فوق رقبة مطعوجة إلى الأمام ومعطف مشدود؟ بعض أشخاص الروايات ليسوا إلَّا وبالاً على مؤلفي هذه الروايات، لا ريب في ذلك!

للحظات كرهتُ دوستويفسكي وحقدت عليه. ما ذنبي أنا إذا لم تبادله أشياء المكان همه، فتكشف له مخبأ صاحب الظل التعيس؟! هل أنا حليف القطط في مؤامراتها ضد دوستويفسكي المتلهف؟ نعم، أخمّن أن دوستويفسكي يحسبني متآمراً ضد مشروعه في هذا الكتاب، فينام ويتركني أجهد نفسي في ترقب لحظات لا تقدم في أحداث الرواية و لا تؤخر... إن دوستويفسكي لئيم.

كاد نوم دوستويفسكي أن ينتقل إليّ من كثرة السأم، لكنني قاومتُ النعاس باستبسال، إذ ربما كان في نومي غفلة عن أحداث هامة قد تقع فجأة! السجادة الحمراء المجعلكة عند آخرها عادت لتشد جزءها المجعلك علّه ينبسط بعض الشيء، وتلك الكنبة الواربة عملت بلا طائل على تجليس نفسها بضعة سنتمترات. أما الأواني المحطمة، فيبدو أنها أدرى بمزاج دوستويفسكي ومآلاته، فأنا رأيتُ إليها محطمة، فقط محطمة بدون أدنى محاولة لإعادة ترميم نفسها من جديد. طاولة خشبية صغيرة ارتاحت إلى زاوية اختارها لها دوستويفسكي أثناء نوبة غضبه أرى إليها تحافظ على قوائمها الأربع متوجهة صوب السقف.

ليتني أوان زجاجية محطمة أو طاولة خشبية مقلوبة فوق الأرض، فأجاري دوستويفسكي في مزاجه وأرتاح من هذا السرد. أحسب أن دوستويفسكي النائم يراقبني الآن من وراء نومه، فيسجل ما أدوّن من أحداث متوقعاً مني أن أدونه مستيقظاً ساعة أشاء. لكن، كلا، لن أقع في هذا الخطأ الجسيم... هل أنا مجنون لأعاند دوستويفسكي في إرادته؟ فلينم قدر ما يشاء وأنا له بالمرصاد!

11

كانت تداعب نهديها بعنف، تشد أحدهما إلى الأعلى محاولة لحسه بما أمكنها من لسان أحمر عريض.

هي المرة الأولى التي يرى فيها الأخير إلى امرأة عارية تشد نهديها إلى الأعلى محاولة لحس أحدهما بما أمكنها من لسان أحمر. إذ، وبموضوعية أكثر، هي المرة الأولى التي يرى فيها الأخير إلى امرأة عارية بالإجمال. فالمرأة العارية لطالما كانت ضباباً في رأس الأخير أو أشجاراً ملتفة حول نفسها بغير انتظام. حدث نفسه كثيراً عن المرأة العارية وحدثه الآخرون وهو حدثهم بدوره. لكنها في كل الأحاديث، كانت عارية داخل رأسه الملتهب، وليس أمام ناظريه كما هي الحال الآن.

إنها ابنة صاحب المزرعة، وقد اختارت أحد مستودعات الأعلاف لتمارس فيه استمناءها على مرأى من التبن والشعير، وفي هذه اللحظات، على مرأى من الأخير.

باغتها، أو هي باغتته بهذا المنظر الحيوي، فالأمر سواء. تسمّر في مكانه كواحد من أكياس العلف المكومة، وقد اختزل كل اللون الأحمر وركزه فوق وجهه وبشكل خاص عند أذنيه. أشارت عليه، وقد تحولت بإحدى يديها صوب عانتها الجريئة، كي يقترب نحوها، فهي تريده الآن كما قالت بهمس. لا تخف، تعال إليّ - بنهنهة- وقد انفرشتْ أكثر فوق كومة من التبن الأصفر.

كالمأخوذ، أو كالمسحور بتعويذة، جعل ينقل خطاه وقد تحولت كل حواسه إلى محض عينين مركزتين فوق جسد التبن هذا. شعر عانتها خفيف، إنها سمراء، شعرها أسود طويل، ممتلئة بعض الشيء، عندها حسونة بنية فوق شفتها العليا. تدور بلسانها، وهو أحمر طويل، حول شفتيها ببطء...

بلحظة، ومن حيث لا يدري، وجد نفسه جاثماً ما بين فخذيها يلعق بتلهف يساوي تلهفها أو يزيد عنه. كانت تشد رأسه بيديها الاثنتين كي يضغط بوجهه أكثر فوق فرجها، وكأنها تحثه على الاقتحام والمكوث هناك أبد الدهر. خاف قليلاً، وانتابته قشعريرة من الفزع لما جعلت الفتاة تصيح، فحاول رفع رأسه لكنها شدته بعنف متمتمة: بعد قليل... بعد قليل.

ساد الصمت غرفة التبن وكأنها غرفة تبن وصمت، وكي يعم العدل العالم، فكتْ سروال الأخير وولجت بيدها ناح عضوه ليذوب هذا العضو بين أصابعها بسرعة فاجأتْ الأصابع وفاجأت الجميع.

جعلت تمسح أصابعها بالتبن تارة وبملابسه تارة أخرى غير عابئة بملامح الدمع التي تشكلت داخل مقلتيه. كانت مرتخية عن بكرة أبيها وبعض قطرات العرق تتدحرج فوق جسمها الرطب، وقد أغمضت عينيها عن منظر العلف والسقف والجدران ومنظر الأخير.

لبرهة من الزمن قصيرة، وقد تحول إلى أداة رضع تارة وتارة أخرى إلى أداة لعق، وجد الأخير نفسه مكتفياً بنفسه وغارقاً في لجة من الرضا الذاتي، وكأنه إله.

لكن، من قال أن الإله لا يحنق؟

على غفلة من البقر والتبن ومن الأخير بشكل خاص، صارت فتاة التبن زوجة أحدهم، وهو سائق تراكتور يعمل في المزرعة منذ وقت قريب... ومن يزد على هذا كلمة واحدة يُطرد من المزرعة فوراً كما قال والد الفتاة.

حنق الأخير كثيراً. يبدو أنها ملّت شفتيه الصغيرتين، ودبيب الكلمات في المزرعة يؤكد مضاجعة صاحب التراكتور للفتاة داخل مستودعات التبن.

هي المرة الأخيرة التي يشاهد فيها الأخير فتاة التبن والتمتمة واللسان الأحمر الطويل. زفاف كبير عمّ أرجاء المزرعة وطبل ومزمار، وزينة كثيرة كانت هناك. حتى قرون الثيران زُيّنتْ وحواف المعالف ومرابط الحمير. جاد صاحب المزرعة على عماله بضيافة قلّ نظيرها، وجاد عليهم باستراحات من العمل وبمال وفير. لكن الإله كان ما زال حانقاً... كان الأخير حانقاً.

أراد أن يصرخ، لم يستطع تحمل الأمر أكثر.

لم يكن ثمة أحد ليسمع.

لا أحد يريد أن يسمع.

هو نفسه كان خائفاً من صوته...

أغرق صوته في داخله،

سينفجر صمته.

هكذا كان مليئاً بالثقوب...

متبرعماً بشكل غريب.

12

بيكيت، انتبه! ربما هو ليس بنائم، لعله...

في غمرة المحطم والمقلوب والمجعلك والوارب، وفي غمرة النائم ورصدي له بشكل خاص، أطلق المتواري أو صاحب الظل التعيس كما يفضل دوستويفسكي هذه الجملة الرجاء. "بيكيت، انتبه! الخ..."

كان بيكيت، وهو هر أصفر بشع، يرمق أرجاء المكان بنظرات حادة صفراء يتطاير منها الشرر ويتطاير منها الانفعال. لن أتكلم في طول ذنب هذا الهر الأصفر البشع أو في ضعف بنيته الجسدية، حتى لتظن أن أضلاعه سوف تقفز إلى الخارج. فعلاً، هو هر بشع، وما زاد من بشاعته أذنه اليسرى المشرومة ونقطة حمراء فوق أنفه وندبة فوق ظهره على شكل مفتاح.

لم يوافق بيكيت على إشارة المتواري. يبدو أنه هر مخبول لا يبالي خطر الاقتراب من دوستويفسكي النائم. جعل يترصد تعابير النائم وقد لفّ نهاية ذنبه حول شمعدان من الفضة محفور عليه صورة القديس أوغسطينوس. صار الذنب الآن مستقيماً بالكامل بين القديس ومؤخرة بيكيت.

فرحت بوجود هذا الهر الأصفر البشع، فهو خلصني من مأزق الفراغ الذي عادة ما يقع بين الأحداث، وهي ملاحظة لطالما أشار إليها دوستويفسكي في كتاباته.

لم يعجّل نائم الكتاب الاستفاقة من قريب أو من بعيد، وذنب بيكيت يتوتر أكثر بين المؤخرة والقديس. فجأة... بـو؟... وقع القديس على الأرض فأحدث جلبة جعلت بيكيت يستنفر نفسه بحزم. لم يحرك دوستويفسكي ساكناً باستثناء حركة خفيفة أتى بها من جهة رجله اليمنى ليتراجع بيكيت بضعة خطوات إلى الخلف.

"بيكيت انتبه! ربما هو ليس بنائم..." لم يزد كلمة واحدة على هذه العبارة الرجاء، وقد أضناه فزع رهيب كما بيّنتْ نبرة صوته المرتجف. بيكيت أخرق، يبدو أنه لا يجاري إرادة سيده المتواري. ها هو يعاود الاقتراب من رجل النوم شاداً ذنبه بين مؤخرته من جهة ومجسم معدني ثقيل لتمثال الحرية مرمياً فوق الأرض من جهة أخرى.

لفّ ذنبه حول مشعل الحرية وجعل ينتع إلى الأمام حتى لتظن أن الذنب سوف يُبتر أو لست أدري ماذا، و"بيكيت، انتبه! ربما هو ليس بنائم". بعط دوستويفسكي بعطة خفيفة حل جراءها بيكيت ذنبه من حول المشعل، وأخذ بالانسحاب إلى الخلف متقهقراً.

أرهق دوستويفسكي أحداث الكتاب بنومه. جعل يزاول الملل بخفة وكأني بالملل مقصد هذا الروائي. بلى، ففي غمرة الهر الأصفر المنتظر منذ أبد الدهر كان الملل سيد الموقف في حضرة بيكيت وفي حضرة دوستويفسكي النائم وفي حضرة الأحداث. مال الملل بكله صوب المكان، وكأني بالملل جيش بل لأحسبه جحافل من الجراد المنتشر. اتخذ بيكيت، وفي خضم هذه الحقيقة المتعمَّدة دوستويفسكياً، اتخذ هيئة تمثال برونزي محفور عليه مفتاح، ولم يندّ عنه أي حرف من كلمة يتحرك باستثناء تحديقه المتواصل بصاحب الكرسي الهزاز، هذا النائم العتيق. ماذا يريد

بيكيت من دوستويفسكي؟ لا أحد يعلم بالتحديد، وإن كان ثمة ما يوحي بإصرار صاحب المفتاح على إيقاظ صاحب النوم أو، وكما أخمّن أن بيكيت يردد، صاحب الملل.

أكثر من عشر مرات أتى النهار ورحل كما لاحظ بيكيت عبر إحدى النوافذ، و دوستويفسكي مصر على جعل النوم مجاله الأوحد. أكثر من عشر مرات أتت العتمة ورحلت، وبيكيت عبارة عن تمثال برونزي يحدق والمفتاح فوق ظهره حيث الضلوع على وشك القفز وجدّ السير بعيداً. من منهما أكثر يقينية بالأحداث التالية، كي يستدرك بعض حركة أو بعض ما لا يمكن التنبؤ بوقوعه؟ لست أدري، لست أدري من أمرهما شيئاً. فكل ما يمكن التعليق عليه هو أن أحدهما كان يشبه الجريمة والآخر كان يشبه العقاب.

توالت عليهما النسمات نوماً وتمثالاً برونزياً... ويبدو ان ثمة ما يطنّ في رأس بيكيت في هذه اللحظات.

13

بدا الأخير ككتلة جماد وهو يقرأ كتاباً يتصفحه وآخر تحت إبطه، بينما صاحب المكتبة منهمك بتلبية طلبات بعض الزبائن المستعجلين.

إنها المكتبة الوحيدة في الجوار، وهي أول مكان اجترح فيه الأخير الورق لمساً وشماً، واجترح فيه القرطاسية ولوازم المدرسة بالإجمال. تقع المكتبة على بعد شارعين من منزل الأخير، وهو لطالما تعاطاها عيوناً تقرأ عناوين بدون أن يتجرأ، ولو لمرة واحدة على اقتناء أحد هذه العناوين الغريبة. فأهله، وبما يرزحون تحته من كونهم أهله، ما كان باستطاعتهم أن يزودوه بكتاب واحد يمتلكه خارج إطار المقرر الدراسي المطلوب، وله في ذلك أسوة بباقي أبناء الحي. أما اليوم، وقد جاد صاحب المزرعة على عماله بأجر مضاعف، فلا بأس بمباشرة بعض العناوين التي طالما اشتهاها عن بعد.

حاول الأخير أن يبتز صاحب المكتبة كي يخفض السعر قليلاً. فهو يريد شراء الكتابين. رفض الرجل ابتزاز الأخير له مصراً على السعر المدوَّن على غلافي الكتابين. لا بأس بعناد هذا الرجل، قال الأخير هامساً، وقد خرج من المكتبة متأبطاً الإلياذة والأوديسة لهوميروس بالإضافة إلى كتاب ثالث سرقه على غفلة من صاحب المكتبة ومن الزبائن والجدران والقرطاسية وعلى غفلة من هوميروس وأكاد أقول على غفلة مني أنا مؤلف هذا الكتاب.

يا له من شاعر عظيم! لم يسبق للكاتب أن استعار من الأخير أي كتاب. سأله الأخير: هل هو شاعر مهم؟ رد الكاتب بعبارة لأراغون أن ريتسوس هو أعظم شاعر حي.

مط الأخير شفته مستغرباً، فهو لم يسبق له أن سمع بأراغون. أما ريتسوس، فقد شارك هوميروس الوسادة قرب رأس الأخير. زاحمت أحداث الإلياذة والأوديسة أيام الأخير العادية، حتى اتُهم بالهبل. تحولت بقرات المزرعة إلى كائنات أسطورية، وصار يكلم أمه أنها ربما آلهة أو جن. ملابس الأخير العادية صارت خيوطها منسوجة من أشعة الشمس، والقبعة فوق رأسه تصد ضربات شياطين السماء. البحر الهائج ذو الألسنة الجهنمية تغير لونه، فصار في بعض نواحيه بحر النبيذ الداكن ونواح أخرى عجّت بآلاف السفن الشراعية تنقل رجالاً ذوي بأس شديد. صحن السماء انشق فبلع الشمس وزلط القمر وصارت نجوم السماء سراباً. لم تعد دجاجات أمه مجرد دجاجات تبيض البيض، إنما بيض هذه الدجاجات بلورات يمكن عبرها رؤية المستقبل البعيد. جدران المزرعة حصون تصد الأعداء وبواباتها الحديدية مصنوعة في وادي الظلام. المجرفة سلاح إلهي، مكنسة الزبل تحلق عالياً في السماء وتلك العنزة ابنة الشر. حفل عالم الأخير، ولأكثر من شهر بما هب ودب من آلهة وأبطال وجيوش كثيرة لا يراها إلا الأخير. العشب أرواح تتحفز، والأغصان تخاطب الأشجار والضباب يخبئ وحشاً كاسراً. أنا عراف البلاد قال الأخير لوالده الذي ركله، فإذا بهذه الركلة روح شيطانية تلبستْ هذا الوالد كما رأى الأخير. جنّ الأخير يوماً، فحاول، وفي زحمة هوميروس، القفز من فوق السطح، ولما أمسكوه استغرب تأنيبهم مؤكداً أنه يستطيع التحليق لأنه إنسان يطير! خرق هوميروس أيام الأخير بخفة لتصير ساعات هذه الأيام دهوراً، وبعض الدهور صارت لحظات.

أما ريتسوس، وقد صار حصان طروادة داخل مزرعة الأخير، فقد شدّ من أزر هوميروس بأن نبه الأخير إلى أن:

الموتى وحدهم يظلون مستيقظين وهم ممددون.

الموتى فقط.

عيونهم مشعة كالفوسفور...

يشعلون بعيونهم ثقوب الليل.

أما أراغون، من هو أراغون؟

لم يمض يومان على استعارة الكاتب لـ"إيماءات ريتسوس" حتى توجه الأخير إليه مطالباً بكتابه وسائلاً إياه عن أراغون.

14

كان الطنين في رأس بيكيت قد جاور السماء، وصاحب الجريمة والعقاب يستنزف المكان بنومه المبرح. فصاحب الجريمة والعقاب، وهو لقب يتسم بالموضوعية على ما أظن، أناخ بكلكله فوق بيكيت المنتظر، ليحوّل هذا الأخير انتظاره إلى ذنب مستقيم يمتد بين مؤخرته من جهة ولوحة معدنية تحمل إشارة السواستيكا (شعار الحزب النازي) من جهة أخرى.

اقترب بيكيت بالمفتاح الندبة التي فوق ظهره نحو اللوحة المعدنية، وكأن ثمة من ألهمه أن جلبة السواستيكا سوف تكون الطريقة الوحيدة لإيقاظ ما يحفل به العالم من دوستويفسكي نائم. كانت اللوحة ثقيلة جداً، فهي من الرصاص أو ربما من معدن أثقل، ما حدا بالهر الأصفر لأن يبذل جهداً مضاعفاً في تحريك هذه اللوحة بغية إسقاطها على الأرض وإحداث الضجة المطلوبة.

دقات قلب المتواري، صاحب الظل التعيس، كانت تجوب أجواء المكان بتواتر سريع، ما جعل بيكيت يموء مواء حاداً مؤنباً الرجل على طريقة القطط. لهاث المتواري وتأتأته زاحمت العدم اللزج كما اتفقنا أن نسمي نوم دوستويفسكي، وزاحمت محاولات بيكيت إيقاظ الروائي الروسي عبر ضجيج السواستيكا.

"بيكيت! انتبه! ربما هو ليس بنائم..." لكن بيكيت، وبسبب عناده الأصيل، كان قد بدأ يزحزح لوحة السواستيكا المعدنية الراقدة فوق طاولة ضخمة منذ سنوات طوال.

من ينظر إلى دوستويفسكي في هذه الأثناء يصاب بنوبة رعب، أنا على يقين من ذلك. فمعطفه القاتم اللون استرسل في هيئة قبر عتيق، بينما وجهه النائم راح ينتقي تعابير سادومازوشية لا تبشر بمستقبل إنساني سعيد. يدا الرجل كانتا مضمومتين فوق صدره كحبال مشدودة، ورأسه المتدلي إلى الأمام كان كمن يقول لمقصلة مسننة: اقطعيني. يا لهيئة هذا الرجل، وما يعبق به من ذئب جميل. إنه لا يتنفس البتة، ولكنه في غمرة نومه البلاشهيق أو زفير، تنظر إليه فإذا به يتوثب للانقضاض أو ...

دج... دج. يبدو أن بيكيت نجح أخيراً وقد أوقع السواستيكا النازية فوق الأرض. لأول مرة منذ أن صار دوستويفسكي هنا، وبالتزامن مع سقوط السواستيكا، عمدت نوافذ البيت وأبوابه إلى الصفق والانفتاح والانغلاق. كانت الأبواب تشرع نفسها لتصفق، تؤازرها في هذا الصفق المتمرس، وبلا انتظام بالمرة، نوافذ قاحلة ندّت عن تواطؤ لئيم.

هل هو ثقل السواستيكا أدى بالأبواب والنوافذ إلى هذا الجنون، أو هو دوستويفسكي النائم والمتوثب أبداً للانقضاض؟ فعلاً، جنّ البيت عن آخره، وأصوات المتواري خالطت بنشازها نشاز الأبواب والنوافذ ونشاز السواستيكا التي لبدتْ بقوة فوق الأرض.

شد بيكيت جسده فوق الطاولة الضخمة مركزاً نظره على دوستويفسكي، متوقعاً منه الاستيقاظ وقد حفل البيت بما حفل به من ضجة وطرق وصوت نشاز.

"بيكيت! انتبه! ربما هو ليس ..." من عدة جهات، أطلق المتواري هذه العبارة بلا رشاقة بالمرة ثم لاذ إلى صمت متردد. فهو يخاف على بيكيت وقد رأى إلى ما حل بكافكا الشهيد...بيكيت انتبه... وبعض لعاب يسيل... وليس هذا بالأمر المهم.

مياو... وبقفزة واحدة صار فوق كنبة مخملية ليقفز بعدها فوق سجادة حمراء مجعلكة عند آخرها، حيث سيجري نحو تحتٍ ما، ليراقب المنظر عن كثب. لم يتحمل بيكيت مكوثه تحت هذا التحت السخيف سوى لحظات، فإذا به ينخلع عن مفتاحه وعن أذنه المشرومة، وربما عن أنفه صاحب النقطة الحمراء، محاولاً تسلق جدار تعلوه نافذة صغيرة.

كالقطط التي لا تعدو أن تكون قططاً، صار بيكيت يتسلق الجدار بواسطة مخالبه المرعوبة، ليسقط فيعود ليتسلق الجدار من جديد فيسقط، ثم يتسلق وهكذا دواليك.

تحول نحيب المتواري إلى عويل أخرق وبعض قطرات الدم بدأت تظهر فوق مخالب القط الخائف. إن بيكيت الآن في أقصى قططية ممكنة، بينما النافذة وكأنها تتحايل على هذا الهر المسكين جعلت ترتفع ارتفاعاً بعد ارتفاع.

كالقطط، منذ أن كانت القطط المذعورة، قوّس بيكيت ظهره، أظهر مخالبه عن آخرها، أوقف وبر جسده، وحوّل العينين في وجهه إلى محض أشياء جاحظة. تراءى لي، ومن باب الوهم بالتأكيد، أن العالم بأجمعه لا يحفل إلا بما يجري هنا. فخربشة بيكيت فوق الحائط، ومحاولاته الفاشلة للوصول إلى النافذة ليست من الأمور التي تحدث في كل آن... إنه بيكيت الهر الأصفر البشع، وقد حوّله الهلع إلى محض محاولات فرار. لم تكن السواستيكا تتحرك فوق الأرض، وقد هوت بإمعان. كانت مثل الذين سقطوا من قبلها جامدة، مثل القديس والتمثال. كانت السواستيكا جامدة، كانت جامدة، ومع هذا...

من بين العوالم التي فضل دوستويفسكي البوح بها لنفسه، وقد أيقظته ضجة السواستيكا، عالم شديد التوتر، شديد الافتتان بنفسه ولنقل أيضاً عالم شديد الاتقان وعلى شيء من "التمساح"، وهي قصة كتبها دوستويفسكي لست أدري في أي عام.

نعم، حفل دوستويفسكي- وقد أيقظه بيكيت- باسترشادات خاصة به إلى أبعد الحدود إلى درجة أنه يجب علينا الامتثال بالمطلق إلى مآلات هذا الرجل وإلى ما سوف يرمي إليه. استيقظ وكله ثقة أن ثمة تمساحاً زلط في هذه اللحظات رجلاً بدون أن يقتله. يعني، كان الرجل حياً داخل جوف التمساح.

الصوت التعيس، في غمرة التوتر الدوستويفسكي فوق الكرسي الهزاز، جعل يغمغم بكلمات غير مفهومة، وكان هذا الصوت يصدر في هذه اللحظات من إحدى الزوايا حيث لوحة الغيرنيكا لبيكاسو معلقة بالمقلوب.

إلى ما سوف يرمي دوستويفسكي برأسه المتدلي يا ترى؟ أنا على ثقة أن لا أحد يدري، لا أحد يدري، لا أحد يدري. لذا، فلنتابع.

بدت شرايين الدماء على وشك الانفجار داخل عينيّ بيكيت الحمراوين، بينما ذنبه الطويل صار كأنه لعنة السماء تشده صوب ورم الأرض. أسند دوستويفسكي وجهه بأحد كفيه ممعناً النظر في

جريان الهر الأصفر المذعور ومحاولاته العبثية-إذا جاز هذا التعبير- لتسلق الجدار والفوز بنافذة الله المشدودة بالقضبان الحديدية.

بس...بس، ثم بس... بس من خلف الغيرنيكا، فيقمز دوستويفسكي من فوق كرسيه نازعاً الغيرنيكا عن الجدار. لكن، عبثاً، ليس ثمة أي... باستثناء الصوت.

تمثّل دوستويفسكي هذا الصوت، وجعل يعيد ترتيب معطفه الأسود فوق جسده القافز منذ قليل. تمثله سوائل دبقة تسيل فوق المساحات لتنتهي عند أسفل الجدران. امتقع وجه دوستويفسكي وظن بنفسه الضعف. أن يحفل العالم بهذه الدوستويفسكية الهشة، هذا ما لم يكن في الحسبان.

ثم، وبنفس الوتيرة من الغمغمة الصماء: بس... بس...، ليس من خلف الغيرنيكا هذه المرة، إنما من خلف مرآة مقعرة على شكل جرن. بيكيت، وبدون أن يأخذ بسبسة المتواري بعين الاعتبار، جعل يدور حول نفسه بجنون. لقد جن الهر الأصفر المسكين، ودلت نبرة صوته على ما يشبه الخبل، أو، وكما فضّل دوستويفسكي أن يعبر، على ما يشبه الهلوسة.

السواستيكا، وكما رأى إلى ذلك بيكيت، كانت تحاول النهوض والانتصاب فوق أرض الغرفة. بينما، أوغسطينوس يعمل جاهداً بغية القفز خارج الشمعدان، وفتاة الحرية أدخلتْ مشعلها داخل فمها وأطفأته. في هذه الأثناء، كان رجل دوستويفسكي الذي زلطه التمساح يجادل الناس من داخل جوف التمساح، في أمور تتعلق بمصير الجنس البشري وفكرة التقدم بشكل خاص، كما دوّن دوستويفسكي ذلك فيما بعد.

بيكيت، العزيز بيكيت، وهي عبارة زفرها المتواري مجهشاً، هذا البيكيت اقترب من دوستويفسكي بسرعة، فما كان من هذا الأخير، وقد استردّ عادة الشهيق وعادة الزفير وغيرهما من عادات الأحياء، إلا أن أشار على بيكيت بلحظة موت سريعة، وقد تمّ ذاك بعطف إلهي قل نظيره كما كان يتمتم أوغسطينوس من فوق الشمعدان.

15

في ذروة مأساتنا

كانت تجلس طوال النهار أمام مرآتها

تسرّح شعرها الذهبي اللماع.

كان يخيّل إليّ أن يديها

الرقيقتين تسرحان اللهيب

في ذروة مأساتنا.

لا أحد يدري لماذا لُقّب بالأخير، وكأني بهذا اللقب، وقد أُطلق عليه منذ ...

ماذا عساي أقول؟ حقاً، لا أحد يدري لماذا لُقب بالأخير. والده يقول أن اللقب تلبسه لأنه الأخير بين إخوته من حيث الولادة، لكن أمه تنفي هذا الكلام مؤكدة أن والدها هو من أطلق عليه لقب الأخير منذ أن كان في بطنها. وقد لقبه جده بالأخير لأسباب تتعلق بالزرع والحصاد كما كانت تقول.

أحد ختايرة الحي، وقد تجاوز التسعين من العمر، قال في إحدى المناسبات: إن الولد لقب بالأخير بعد ساعات من ولادته، وذلك لأسباب تتعلق بحرب ضروس كانت تدور في البلاد. لكن خبرية الختيار لم تكن موضع ترحاب من أحد، إذ إن الأخير وُلد بعد انتهاء هذه الحرب بأكثر من سنة كما أكدت المرأة التي وُلد الأخير على يديها العتيقتين.

أحدهم، وهو صياد سمك متقاعد، كان يقول إن الولد لُقّب بالأخير لأسباب تتعلق بالبحر، حيث كان يصطحبه معه من آن إلى آن في رحلات صيده. بيد أن البحر ليس السبب الحقيقي لتلقيبه بالأخير، إذ ثمة صاحب فرن ضخم الجثة أجش الصوت كان يردد أنه لُقب بالأخير لأسباب تتعلق بالخبز والعجين. فالأخير كان يتقصد أن يدخل إلى الفرن يومياً ويجاري العجين هناك ويجاري الخبز.

... لكن، لا الخبز ولا البحر هيّآ القناعة التامة بشأن لقب الأخير.

أحد شبان الحي، وهو مشهور جداً في صنع الطائرات الورقية، قال يوماً أن الأخير لقب أُطلق على الولد لأمر يتعلق بالسماء، إذ ثمة طائرات ورقية كانت تسقط بسرعة إلا إذا أطلقها الأخير كما قال صاحب الطائرات.

من أين أتى "الأخير"؟

ليس الأمر بالأسطورة على أي حال. لكنه تحول ليصير أسطورة يوم قال أحدهم، وهو جندي متقاعد يملك دكاناً في إحدى زوايا الحي، أن الولد لُقّب بالأخير من قبل هر ضخم كان المتقاعد يعتني بتربيته منذ سنوات طوال. نعم، لطالما ردد هذا المتقاعد أن هره، ويدعى أفعور، أشار يوماً إلى الولد برأسه ونطق بكلمة الأخير. طبعاً، إن الرجل متقاعد ولا يعتد غالباً بكلام المتقاعدين. بيد أن الأسطورة تحولت لتصير أسطورة أكثر يوم انبرى أحدهم، وهو أشبه بالمجنون، ليقول في أحد

الصباحات أن الأخير هو لقب أطلقه الولد على نفسه بعد لحظات من ولادته عند انتهاء شهر الصيام. طبعاً، إن الرجل مجنون و لا يعتد بكلامه أيضاً. لكن، ثمة من صدق أن الأخير تكلم في أول قماط له ليقول: أنا الأخير.

بعض العقلاء لم يصدقوا كلام المجنون، بل تبنوا أن الأخير لقب أطلقه عليه أترابه في إحدى الأمسيات على أثر لعبة كانوا يلعبونها تتعلق بالظهور والاختفاء.

"لماذا لُقّبتَ بالأخير يا الأخير؟"

في ثنايا القُبَل

تمر الأعوام سراعاً

تجنبي تجنبي تجنبي

الذكريات المحطمة.

تعددت موجة التكهنات وتباينت، والكل يتساءل بل ويقترح أسباب "الأخير"، إلا الأخير نفسه، فإنه ما انبرى يوماً ليسأل لماذا لُقّب بالأخير. هل هو على علم بحقيقة الأمر؟ يقيناً أن هذا ليس بالأمر الصحيح، فالأصح أن "الأخير" اقترن به ليكون الأخير، محض الأخير، ولا اسم غير الأخير.

لم يرد على الكاتب سؤاله إياه لماذا لقب بالأخير. عاد إلى الكتاب الذي بين يديه يقرأ:

أعشاب ذراعيك تربطني بهذ العالم

لا أستطيع الموت

من يموت ينسى

خرج من منزل الكاتب، وقد جعل يتصفح أراغون فوق رصيف الطريق ليرى تحت لمبة البلدية، وقد تزاحمت الفراشات من حولها إلى:

العمالقة الذين كانوا يتجسدون

على سماء ابيضت من الغضب

ثم، وفي جهة أخرى من العالم فوق فراشه بالتحديد، والفجر قاب قوسين أو أدنى بقليل:

النساء قد انحنين تحت حملهن

الرجال يشبهون الملاعين

لم تنطق هذه الحبلى بكلام منذ شهور، حتى أن كل الناس ظنوا بها الخرس. فهي، ومنذ أن بدتْ علامات الحبل على بطنها الطازج لاذت إلى صمت من النادر أن يتعثر. لكنها اليوم، وفي غمرة التساؤل عن "الأخير"، تكلمت، وكان صوتها أشبه بصوت الطحين.

هي حبلى منذ أكثر من عشرين شهراً، بل إن البعض يقول أن حبلها يتجاوز في زمنه الخمس سنوات.

لا أحد يعرف من أمر تاريخها شيئاً، ولا أحد يدري من يكون زوجها. البعض يقول إنها بغي، وثمة من يرى فيها موضوع شفقة وحنوّ وورع. لطالما شاركت نساء الحي النحيب على ميت ما، لكنها لم تشارك في أي فرح. لا تدري من أمر العرس شيئاً، فهي مرصودة للحزن والبكاء ولا يليق بها إلا الدمع كما كانت تقول أم الأخير.

لم تبدل ملابسها يوماً، هي دائماً متشحة بالسواد. إنها امرأة سوداء من قمة رأسها حتى أخمص قدميها المجهولتين. لا تدل ملامحها على ما هو غريب، فهي تشبه كل النساء، بل إنها على شيء من الجمال المتردد.

سكنت في هذا الحي على غفلة من أهله. لا أحد يعلم من أين أتت ولا أحد يعلم إلى أين تروح. هيجت حشرية أهل الحي ولا سيما النساء لفترة من الوقت، ثم ما لبثت أن صارت واحدة منهن. حتى حبلها، حتى هذا الحبل العتيق آلفه أهل الحي واعتادوه، وما عاد يشكل عندهم مأزقاً.

إنها حلبى وكفى، إنها الحبلى الأبدية كما قال الأخير يوماً، وصفعة على خده من يد أمه الحنون.

شرحت كثيراً أسباب "الأخير" بلسان ما انفك يتلعثم مع كل حرف. كان الوقت فجراً وآذان الفجر قد انتهى لما خرجت الحبلى أمام دارها وجعلتْ تثغثغ حول "الأخير". أي من المارة لم يفهم من أمر ثغثغتها شيئاً، فحروفها كانت أشبه بالدقيق لا تكاد تلمس. دقيق فوق دقيق، والشمس قد أشرقت، ففهم الناس من الحبلى أن "الأخير" لعنة تشبه صدى يتردد في الصحراء.

التُقط من كلامها كبش الفداء، وقالت في الدم كثيراً، وكان في حديثها أنين. بعض الناس من ذوي الآذان المرهفة فهموا من الحبلى أن "الأخير" علامة الذنْب. قالت إن لقب "الأخير" يتعلق بذنب لم يقترفه أحد، ولم يحاول أي شخص تجنبه. أحياناً كانت تتوجه بكلامها إلى الناس وأحياناً أخرى بدت غير آبهة بكل المستمعين.

لم تكن رقيقة، كانت على شيء من التشنج والقلق، وكانت تزبد وثمة من خافتَ الصوت في صدره أن الحبلى جنّت بالتأكيد. أحياناً، كانت تنظر إلى الجماعة بفجور، فتمرر يديها فوق بطنها الذي يكاد أن ينفجر، وأحياناً أخرى كانت تتلوى على نفسها، فترهق الحضور بصمت طويل لتعود وتستأنف كلامها بهمس.

يوم قالت في الأخير، لم يكن الأخير موجوداً. كان متأبطاً لست أدري أي شعر وكان نائماً. فهم الناس من الحبلى أن "الأخير" لقب عتيق لا يتعلق بهذا الولد بالذات. إنه لقب ضائع، ما انفك يتموّج فوق فيافي صحراء منقرضة ليحط رحاله عند هذا الولد... عند الأخير.

قالت الحبلى إن هذا الولد هو الصحراء. لم تكن متأكدة من قولها. قالت إن الأخير هو الصحراء ربما، قالت ربما وجعلت تكررها بصوت خافت منتحية عن أهل الحي باتجاه باب بيتها، لتلج عتبة هذا البيت وتغلق خلفها الباب ثم توصده بالمفتاح.

مرت شهور قبل أن يلمح بعض ناس الحي شبح الحبلى الأسود. كانت تحمل بطنها الثقيل بيد، وباليد الأخرى كانت ترتشف ماءً ملوثاً ببراعيط صغيرة. كانت ترتشف الماء الملوث من سبيل يقع في آخر الحي على مقربة من المقابر، كُتب فوقه "ممنوع الشرب".

كانت ترتشف الماء غباً، وكانت تحمل بطنها الثقيل كأنه جبل. كانت تشرب فلا ترتوي بينما بطنها كأنه جبل.

16

جرّبَ ان يزاول الوقت في غرفة أخرى من غرف المنزل الأخرق صاحب النوافذ المشدودة بقضبانها الحديدية، فإذا به يزدحم وجوداً في مساحة من المنزل تضج بعشرات التماثيل وبأرائك وطاولات ضخمة وستائر تنهمر رعباً فوق الجدران المرتفعة.

كان دوستويفسكي يدرك أن استباحة الوقت تتطلب غرفاً أخرى يجوبها مسترسلاً في تمعن، في ملاحظة الأشياء، في قراءة الزوايا والانبساطات... مسترسلاً بإطلاق. نمّت مشيته عن لاأدرية متشاوفة غير مكترثة بكل ما وقع من أحداث حتى الآن. جعل يكلم نفسه أو يكلم أحداً ما، لست أدري. فالرجل كان أقرب إلى الوشوشة في قلب هذا اللج الفسيح المنغمس بمئات التماثيل الخشبية.

أي من التماثيل لم يثر دوستويفسكي باستثناء تمثال متوسط الحجم للإله الهندي شيفا، حيث برزت عينا هذا التمثال وكأنهما ترمقان دوستويفسكي بالذات. اقترب دوستويفسكي من الإله الخشبي محاولاً التملص من تكهنات انتابته تتعلق بنوع من الـ"ماذا يريد هذا الإله مني؟!" وبأنواع أخرى من التكهنات. أخذ يدنو من شيفا ببطء، وكأني به يتسلل أو قُل يتسرب مثل قطرات الماء.

مع كل قطرة كان دوستويفسكي يسيلها باتجاه شيفا العنيف، كان هذا الأخير يرمقه بنظرات أكثر شزراً. شرع دوستويفسكي بالاقتراب من شيفا أكثر فأكثر، ثم وببغتة تكاد أن تكون الأولى من نوعها لطم التمثال لطمة قوية جعلته يترنح من طوله فيسقط فوق الأرض. لم يبال شيفا بسقوطه المؤكد تحت وقع اللطمة الدوستويفسكية، بل جعل يرمق دوستويفسكي من مكانه الهزيل حتى لتظن أنه أراد أن يثير الرعب في قلب الروائي الروسي أو على الأقل أن يثير فيه شعوراً عميقاً من الاستفزاز.

بمعطفه الأسود الطويل، صار دوستويفسكي يرفس شيفا الأرعن، ثم جعل يقفز فوقه محاولاً تحطيمه والقضاء عليه بكل ما أوتي من قوة وعزم وقفز و دوستويفسكيات شتى. أي من الكائنات الخشبية في الغرفة الموحشة لم يسأل دوستويفسكي أسباب ثورته ضد هذا الإله الحزين. أخال أن التماثيل الأخرى فزعت، بل أرى إليها وقد جعلت ترتعش إلا من كان يتمتع منها بنعمة الجنون.

تماثيل إفريقية سوداء خافت، فغاصت في لجة سوادها. ودمى عشتارية صغيرة زمّت فتقلصت، ومنحوتات أزتيكية انرعبت فحاولت محو النقوش فوقها، وأخرى من الصين استسلمت إلى زوايا اختارتها رأفة بنفسها في حضرة صاحب المعطف العنيف الذي مازال يقفز كالمجنون.

مع انفصال رأس شيفا المعذَّب عن جسده، راق الجو قليلاً في غرفة المنحوتات الخشبية هذه. فما إن تدحرج الرأس فوق أرضية المكان، حتى هدأ دوستويفسكي وأخذ يبلع ريقه مطلقاً أصواتاً غريبة مع كل بلعة ريق.

"ماذا يريد هذا الإله مني؟!" كررها ثلاث أو أربع مرات، وهو يسير بين التماثيل المنتصبة المرتجفة المنتظرة أن تُقطع رؤوسها. كان الجو قد بدأ يطبق على أنفاسه، فحاول التملص من موجة الاختناق هذه بأن جعل يتذكر أصدقاء له لطالما دوّنهم فوق صفحات كتبه.

اقترب، وفي خضم موجة الاختناق التي ألمت به، من منضدة خشبية صغيرة، وشال من جيب معطفه الأسود ورقة بيضاء وأخذ يدوّن عليها أموراً تتعلق بالموت والحياة وبطبق الأنفاس على ما أظن. كان يكتب ثم يشطب فيكتب من جديد ليعود فيشطب ما كتب وهكذا دواليك وصولاً إلى صفحة كاملة من التشطيب. جعلك الورقة في يده بعد أن تمعن فيها للحظات ثم رماها مجتراً نفسه سيراً خفيفاً في أرجاء مكان التماثيل.

إن دوستويفسكي حزين، أستطيع أن أقدر ذلك، أو هو قانط أو يائس أو به رغبة حادة بالتشقق أو بالتفتت أو بالسيلان أو ربما بالموت. فالرجل يمكن أن يكون موضوع شفقة في بعض نواحيه، لكنه في نواح أخرى لا يتعدى أن يكون موضوع إرهاب. كان كمن يدعو الآخرين إلى أن يحبوه ويكرهوه في آن معاً. كان كمن به استعداد لأن يتحدى ما أولف من مشاعر إنسانية تتسم بالطبيعية والانسياب.

ها هو يقترب من شيفا، وقد جاشت عاطفته لست أدري بماذا، فيحاول وصل الرأس بباقي الجسد وبعض الدمع ملأ مقلتيه. شيفا، ومن باب السادية الفظة كما أخمن سيقول علماء الهنديات، رفض أن يرأف بالرجل الحزين، فيعاود التشبث برأسه ويخلّص دوستويفسكي الأليف مما ألمّ به من نوبة شفقة أو ندم أو لا أحد يدري ماذا، حتى إله دوستويفسكي العتيد.

جعل يشد الرأس فوق الكتفين صاراً على أسنانه بينما شيفا الهندي ـ وبكل ما يملك من شرق ـ ملتذ بآلام دوستويفسكي وملتذ برأسه المقطوع.

موجة الاختناق شدت من أزر نفسها أكثر، والرأس يأبى الالتصاق بباقي الجسد المهجور والسؤال عن معنى الحياة يتوتر وفجأة...

ورقة دوستويفسكي المجعلكة تتدحرج، وهر أبيض صغير يركض خلف الورقة فيلاعبها بقائمتيه الاثنتين ويموء مواء أبيض بريئاً. إنه كامو كما زعق الصوت من خلف التماثيل المنتصبة التي شاركت في الزعيق.

17

على دفاتري المدرسية

على منضدتي وعلى الأشجار

على الرمل، على الجليد

أكتب اسمك.

... ونام.

حتى الآن، لم يكن يدري ما إذا كان قد استيقظ بالفعل أم أنه مازال في عبقة الحلم. لم ير إلى نفسه إلا وقد جلس فوق فراشه واضعاً يده فوق فمه بذعر. جعل يحف أصابعه فوق أسنانه بشدة ممرراً هذه الأصابع وصولاً إلى الأضراس. صار يضغط على شفته السفلى بإبهامه وبسبابته، ثم يلحس بكل لسانه باقي مساحة الشفة متوقعاً طعم الدم.

نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط المقابل لوجهه، لكنه لم يستطع أن يحدد الوقت بدقة. فالفسخ الممتد من وسط زجاج الساعة حتى إطارها الخشبي جعل الأمر يختلط على الأخير، فيحتار بين عقرب الدقائق وهذا الفسخ. إنها الثالثة بعد منتصف الليل أو ربما الثالثة والنصف، فهو لم يدر بالضبط.

تنفس بعمق، أزاح كتاباً صغيراً كان بجانبه، ثم أخذ ينصت إلى أصوات أنفاس إخوته في الغرفة، فهو إذن، مستيقظ بالفعل.

لم يكن يشك البتة في أنه كان ضمن مغبة كابوس مزعج، لكنه ماانفك يمرر لسانه فوق أسنانه وأضراسه وفوق شفته السفلى. من حين لآخر كان يشد أسنانه بأصابعه وكأني به يتأكد من حقيقة وجود هذه الأسنان، ومن حقيقة عدم وجود الدم.

إنها المرة الأولى التي تنتاب الأخير هذه الجملة من الوقائع الحلمية الحقيقية للحظات. نعم، للحظات، ظن الأخير أن تساقط أسنانه من فمه حقيقة لا يرقى إليها شك.

مرت دقائق، والكتاب في يده مطوي، فيستعيد حقيقة أسنانه ليشكر ربه أن الأمر لم يتعد أن يكون أكثر من حلم. ابتسم الأخير وكأني به يضحك من نفسه، ومن هذه الموجة من الرعب الصارم التي ألمت به. عاد وتمدد فوق فراشه متسائلاً: لم كل هذا الذعر؟! فحتى لو تساقطت الأسنان من فمي، لم يجب عليّ أن أخاف بهذا الشكل؟ إنها مجرد أسنان.

هكذا كلم الصبي نفسه مجدِّداً ابتسامته بابتسامة أعرض، وقد ميز الآن بكل بساطة عقرب الدقائق من ذلك الفسخ. حسناً، إنها الثالثة وعشر دقائق، بينما الفسخ ثابت فوق الرقم ستة منذ أن وعى الأخير وجوده في هذا البيت.

إنه فسخ عتيق لا يتحرك... إنه فسخ أبدي في وعي الأخير. إنما، تباً له من حلم مزعج جعله يخلط بين عقرب الدقائق النشيط وهذا الأبد أو هذا الفسخ، الأمر سواء.

جعل الأخير يغالب الأرق عله يستعيد بعض النوم، لكنه والأفكار في رأسه تتناطح، من أين له بالنوم؟ حاول أن يقرأ في الكتاب الصغير القابع بين يديه، لكن عتمة الليل حالت دون السواد المدوّن شعراً فوق مساحة الورق الأبيض.

أخذ يستعيد ذكريات العام الدراسي الفائت ممنياً النفس بعام دراسي جميل والمدرسة على وشك الابتداء. إنها هموم الأخير تتناقلها زوايا رأسه بعزم، فيغمض عينيه متوسلاً النوم، لكن تفاصيل المدرسة تتأكد في رأسه أكثر مع هذه الإغماضة الكاذبة.

... معلمة التاريخ المتوحشة، الكتاب في يده، رفاقه، مدير المدرسة، الملعب، معلمة التاريخ المتوحشة... وعلى مزلاج باب أو غيره مما هو مدوّن في الكتاب الذي بين يديه.

عقرب الدقائق يتسلل في هذه اللحظات من تحت الفسخ و... ! حسناً، إنها الثالثة والنصف تماماً.

إن الأخير متأكد أنه لا يرى الآن إلا إلى عقرب الساعات الذي لطالما كان بطيئاً وعقرب الثواني السريع، ويرى أيضاً إلى الأبد المتفسخ الجامد هناك بوقاحته المعهودة. لقد بلع الأبد الدقائق، فالوقت الآن متشظٍ بين سرعة الثواني وبطء الساعات.

أيضاً وأيضاً، رفاقه، أساتذته، الملعب، معلمة التاريخ المتوحشة، وعلى جدران ضجري و... على عزلة عارية وغيرها مما هو مدوّن في الكتاب الصغير.

يغمض عينيه للحظات، فتعود الدقائق من تحت الفسخ. إنها الثالثة والدقيقة الواحدة والثلاثون... حتى الفراش تحت الأخير لا رغبة له بالنوم. اثنتان وثلاثون، ثلاث وثلاثون، أربع وثلاثون... عجباً! لم هذا التشبث بالأسنان من جهة الأصابع تارة، وتارة أخرى من جهة اللسان؟

أربع وأربعون... خمس وأربعون... ينهض من فراشه ليشرب، ثم يبول ليعود إلى الفراش من جديد. إنها الخامسة و... ثانية.. ثانيتان.. ثلاث ثوان.. ومحنة الأصابع واللسان والأسنان ما انفكت تتناوبه فتخالط عامه الدراسي المتوقَّع، وتخالط ما تحت وسادته الآن، من كتاب.

"هل حقاً غفوت؟! "

تزامن إيقاظ أمه له كي يذهب إلى عمله في مزرعة البقر مع نظرة سريعة وجهها إلى ساعة الحائط التي تمثلها بغاية اللؤم. عقرب الساعات راكن بتلبده المعهود تحت فسخ الأبد، بينما ذلك صاحب الدقائق شاداً جسده نحو الرقم 12 وكأنه يتوثب للنهوض. إنها السادسة تماماً، قال متثائباً، فإذن، لقد غفوت. هكذا كلم الأخير نفسه متوارياً خلف كابوسه المزعج ولا بأس بساعة واحدة من النوم. تلمّس أسنانه بأصابعه وما انفك لسانه يتفقد هذه الأسنان من وقت لآخر طيلة ذلك اليوم.

عند المساء، ورائحة البقر ما زالت متشبثة بأنفه رغماً عن الماء والصابون، يسحب الكتاب من تحت الوسادة ليكرر مع إيلوار وربما للمرة المائة:

وبقوة كلمة

أبدأ حياتي ثانية.

لقد ولدتُ لأعرفكِ، لأسميكِ

أيتها الحرية.

18

مبحلقاً عينيه على آخرهما، التفت دوستويفسكي صوب مصدر الصوت.

كان كامو يركض خلف ورقة دوستويفسكي وهو يقمز قمزاً أبيض، ممارساً براءة القطط الصغيرة البيضاء على أفضل ما يرام. كان القط يلطم الورقة بقائمته اليمنى البيضاء ليتلقاها باليسرى البيضاء ثم اليمنى فاليسرى من جديد وهو يركض ويقمز، وتلك المجعلكة تتدحرج أمامه كأنها محض طابة القطط الصغيرة البيضاء.

لم يستوعب كامو الخطر المحدق به كما هسهس صوت الاختناق من خلف الخشب المنتصب تماثيل كثيرة.

"إنه قط أبيض بريء... أرجوك أن لا تؤذيه". جافى دوستويفسكي الدمع فجأة، ثم بلع ريقه فطقطق اللعاب داخل بلعومه بينما الصوت يتأتئ كما عهدناه منذ بداية هذا الكتاب متوسلاً دوستويفسكي أن لا يؤذي كامو الأبيض البريء.

شيفا، برأسه الهندي المقطوع، توزع في أرجاء الغرفة الخشبية بعنف، ما حدا بالهر الأبيض الصغير أن يهرب فيترك ورقة دوستويفسكي المجعلكة ويختبئ بين مجموعة من التماثيل البوذية التي كانت مصطفة بشكل رتيب في إحدى الزوايا العتيقة.

شأني شأن كل من هم مثلي، لست أدري ما المقصود بالزوايا العتيقة، إنما بالفعل، كانت التماثيل البوذية لا تشي سوى بمن قد اصطف في إحدى الزوايا العتيقة... وهكذا دواليك.

لم تطل إقامة كامو خلف الخشب لفترة من الزمن طويلة. ما هي إلا ثوان والهر الأبيض يشق طريقه بين البوذيات متوجهاً إلى طابة دوستويفسكي المجعلكة وكأني به قد اشتاق إليها أو هي اشتاقت إليه.

لم يبد دوستويفسكي أدنى اهتمام بحركات الهر الأبيض الصغير، وبنوع من العبث الأسود، جعل يؤرق الصوت بكلمات نابية اختارها بمهارة من معجمه الأدبي الفريد.

أيضاً وأيضاً، لست أدري ما المقصود بالعبث الأسود. إنما بالفعل، ثمة ما لا يمكن أن يعبَّر عنه إلا بالعبث الأسود كان يسود الأرجاء.

اتهم دوستويفسكي الصوت بأنه العدم وقال له "أنت كلب". قرّع دوستويفسكي الصوت وسأله بتعجرف كيف يسمح لنفسه أن يبدي النصح في أمور تتعلق بالموت وبالحياة؟ "إنك عدم، إنك كلب. لا تنشر إلا موجات الاختناق المتتالية ولا يحق لك بأي حرف" قال دوستويفسكي.

لم يركن الصوت إلى صمته، بل ترى إليه وقد استُفز بضغط مبرح، فإذا به يعوي كالكلاب المشردة التي تركض مذعورة بسبب صوت الرعد تحت مطر الشتاء المنهمر.

أخذ الصوت يعوي ويعوي، وكامو الآن في طور ما بعد القطط، حيث- والأمر فاجأ حتى دوستويفسكي- جعل يعوي بدوره ويموء ثم يعوي ويموء وطابة دوستويفسكي بين قائمتيه تفيض

بلعاب القطط والكلاب. توقف عواء العدم الكلب كما أسماه دوستويفسكي، بينما القط كامو ظلّ مثابراً على ما استجد في هذا الكتاب من هر يعوي!

ضحك دوستويفسكي هازئاً (لم يضحك، بالأحرى تصنع الضحك)، ثم اقترب من القط الكلب ووشوشه في أذنه أنه قط والقطط في العادة تموء، بينما العواء من شأن الكلاب. أوقف كامو العواء خجلاً من دوستويفسكي أولاً واحتراماً لطبيعة القطط ثانياً، وعمّ بموائه أرجاء الغرفة الخشبية فاستحال في بعض موجاته طنيناً أو أنيناً وأنواعاً أخرى من الأصوات التي غالباً ما تمتّ إلى القطط المنرفزة بصلة.

تنفس الصوت بعمق وكأنه يستجمع قواه ليرد على دوستويفسكي بحقد فيقول: "أنت الكلب يا أيها الروائي الـ..." ولم يكمل بقية الكلام. عَو... عَو، ثم عَو... عَو وموجة من الصمت ثم من الضحك.

كاد أن يبلي دوستويفسكي شدقه من كثرة الضحك، ثم، وازدراء منه للطبيعة البشرية، عَو... عَو وبعدها عَو... عَو. إنه دوستويفسكي في أوج ضحكه الآن، وقد جيّر مخزون غضبه من صاحب الظل التعيس كما أسماه في إحدى الفقرات، إلى ضحك وعواء.

"يا لك من فوضى ضعيفة لا تحسن الدفاع إلا عن القطط المبتورة" قال دوستويفسكي للصوت، ثم، وقد أكد له ثانية أنه ليس أكثر من عدم... من كلب، طلب منه أن يقابله وجهاً لوجه.

عند هذه النقطة بالذات ازداد نحيب الصوت وأنينه المكبوت، بينما دوستويفسكي يصارع نوبة الاختناق التي ألمت به ويمسح قطرات العرق البارد المتجمعة فوق جبينه بعهر. كان صوت الصوت يشي بخسة أثارت دوستويفسكي المخنوق، ما حدا به لأن يحطم المرآة المقعرة التي تشبه الجرن ولكن دون طائل. ازدادت موجة اختناق الروائي العجوز وكأني بهذا الصوت قبضة يد تشتد حول رقبة دوستويفسكي بإحكام.

ترنّح وكاد أن يسقط أرضاً، لكنه، وبلحظة، تملّص من قبضة الاختناق وهرول صوب باب الغرفة الذي كان موصداً بقفل لا ينتهي من فعل اليقفل اللئيم. حطم دوستويفسكي الباب وخرج من غرفة الخشب حيث جعل يستعيد أنفاسه بنهم للحياة لا يشبع، بينما الصوت الخسيس، وهي تسمية أطلقها دوستويفسكي عليه بعد نجاته من الموت، كان يهمهم بتضعضع واضطراب.

حتى الآن، لا أحد يدري كيف عُلّق كامو القط الأبيض البريء في وسط الغرفة بواسطة حبل رفيع مشدود حول رقبته بإحكام. كل ما يمكن الكلام عليه في هذا الصدد هو بعض الزبد الأبيض المكوّم حول فم القط بالإضافة إلى عينيه الجاحظتين وبعض البراز المتدلي من مؤخرته خيطاً رفيعاً بطول خمسة إلى ستة سنتمترات، وما دون ذلك فإن الأمر لا يتعدى أن يكون كلاماً على قط أبيض صغير مات منتحراً بواسطة حبل مشدود حول رقبته بإحكام.

19

تلك الجثة التي زرعتها العام الفائت في حديقتك

هل بدأت تورق؟ هل ستزهر هذا العام؟

أم أن الصقيع المباغت قد أقض مضجعها؟

"حتى الآن، أنا لا أدري لماذا يقوم دوستويفسكي بقتل هذه القطط". بهذه العبارة رد الكاتب على الأخير سؤاله. لكن الأخير، وبعد برهة صمت، انفلت سائلاً: أصلاً، من يكون دوستويفسكي؟

لم يجب الكاتب الأخير على هذا السؤال، وكان في هذه الأثناء يتصفح كتاباً من الحجم الصغير، وقد دُوِّن فوق غلافه: "ت-س- إليوت/ الأرض اليباب".

... أفكر بأننا في زقاق الجرذان

حيث أضاع الموتى عظامهم

كانت الأفكار تتسكع داخل رأس الكاتب، فيحاول تدوينها على الورق بكلمات يكتبها إنما، وهي قناعة لطالما أرخت بظلالها فوق خياله، ثمة عوالم من الصعب جداً إلقاء القبض عليها بواسطة محض الكلمات.

- إنها قصيدة صعبة جداً.

- ليست صعبة يا الأخير، لكنها أقرب إلى الحالة التي لا يمكن القبض عليها في كل آن...

ناولني الكتاب أرجوك.

لم يعطه الكتاب، إنما:

انسلّ جرذ رويداً خلال العشب

يجرجر بطنه الموحل على الضفة

بينما كنتُ أصطاد في القناة الكئيبة

كانت الشمس قد صارت عند آخر حدودها فوق السطيحة الممتدة أمام منزل الكاتب حيث قضى الأخير طيلة فترة ما بعد الظهر يتصفح أوراق الرجل وكتبه. نسي السؤال عن دوستويفسكي، فعاد إلى إليوت ليقرأ:

فكك عظامه في همس...

قال الكاتب، وكأني به يكلم نفسه ، وقد استرد من الأخير "الأرض اليباب"، إن وظيفة الشعر هي تذكير الإنسان بوجوده. سأله الأخير إذا كانت هذه العبارة واردة في قصيدة إليوت. كلا، لكنها القصيدة على ما أظن، وكان يعيد للأخير الكتاب.

... وخفافيش بوجوه أطفال في ضوء الشفق

راحت تصفّر، تخفق بأجنحتها

وتزحف متدلية الرؤوس نزولاً على حائط مسودّ

وثمة بروج مقلوبة في الهواء.

وكأن الأخير غير موجود بالمرة، انحنى الكاتب فوق طاولة صغيرة أمامه، وجعل نفسه للكلمات، فانبرى يدونها بشغف وبذعر وكأني بهذه الكلمات نثرات متطايرة يعمل هذا الرجل على لملمتها قبل أن تضيع. لم يتابعه الأخير في نصه، ولم يقاطعه، بل ترى إليه فتتوقع بأن هذا الولد قد وعى التواطؤ المحموم الجاري الآن بين صديقه والكلمات. كان يكتب بسرعة وكأني به ينسخ كلماته نسخاً، بل تحسب أن ثمة عالماً يموج أو ينزلق، فيتأبط كلمات هذا الكاتب محاولاً بعض الثبات. جعل الكاتب يهذب نصه، وقد صارت الشمس إلى شبه غياب، بينما الأخير:

نيسان أقسى الشهور، يخرج

الليلك من الأرض الموات، يمزج

الذكرى بالرغبة، يحرك

خامل الجذور بغيث الربيع.

ماذا عساه كان يدوّن يا ترى؟ فيختلط السؤال مع:

ما كنتُ أحسب أن الموت قد طوى مثل هذا الجمع.

... ثم، وقد أكد لأمه أنه بالفعل كان عند صاحب الكتب:

... لسوف أريكَ الخوف في حفنة من تراب.

جعل يرددها، بل هي ترددُه كما قال أمام المرآة مبتسماً بخفر. "أما دوستويفسكي، من يكون دوستويفسكي؟" فكّر وهو يمخمض فمه بعد أن غسل فرشاة أسنانه وذهب إلى فراشه لينام.

20

حاول دوستويفسكي بشتى السبل أن يثير سؤال القطط في ذهنه. فهذا البيت، وقد أوصد هيئة صاحب الصوت بإحكام أمام ناظري دوستويفسكي، لبّكه. لبّك البيت دوستويفسكي بقططه المجردة إلا من حضور يزدهي مواء، وفي بعض الأحيان يزدهي ازدراء.

لم يحترم دوستويفسكي هذه القطط، لم يقدرها. فهو وفي بعض جنبات رأسه شعر بأنها فاشلة حقيرة، وبشكل من الأشكال، متواطئة مع صاحب الظل التعيس. حاول أن يقرأ هذه القطط بفكره، فيستنفرها محض موضوعات ذهن بلا أي تجسيد حسي. حاول أن يبلورها ميتافيزيقياً، كأن تكون جراء آلهة لا حول لها ولا قوة مثلاً، أو أن تكون قططاً ماورائية لا تقدّم في النشاط الدوستويفسكي العياني ولا تؤخر... حاول معها كل شيء.

كان دوستويفسكي جالساً فوق الدرج الخشبي المؤدي إلى الطابق العلوي في المبنى المقيت يسائل نفسه هشاشة هذه القطط وهروبها ولجوءها إلى هذا العدم الكلب المتواري خلف صوته المتأتئ.

لم تكن بدوستويفسكي رغبة أن يقدم الجواب على ما يجلجل داخل رأسه من احتدام حول القطط. ليس به رغبة أن يقنع نفسه بموقف تلك القطط واتكائها في وجودها على صاحب الصوت.

فكر دوستويفسكي أن صاحب الصوت ذليل، أنه جبان متواطئ مع العهر الرخيص ومع ضروب الشفقة الحقيرة. هو- كما فكر دوستويفسكي- كائن مجبول بخبث الأنا الجبانة... الأنا التي تشيد عمرانها فوق أصحاب العزائم، إنما وللأسف الشديد كما قال دوستويفسكي زافراً، أصحاب العزائم الأغبياء.

كلم دوستويفسكي نفسه فقال، وكان مازال جالساً عند بعض الدرج، إن صاحب الصوت جائع، فهو لطالما كان جائعاً. اكتشف دوستويفسكي حقيقة المتواري وكلم نفسه فوق الدرج أن هذا العدم الكلب إنما هو كلب مشرد، إنه من تلك الكلاب التي لا تجيد إلا العواء الرخيص استدراراً للعطف تارة وابتزازاً لأصحاب القلوب الـ... تارة أخرى.

شرع دوستويفسكي، وقد لف معصمه بكفه وراء ظهره، يسير متثاقلاً ويندب حظ هذه القطط. لم أتوقعها، قال لنفسه، لم أستشعر حاجتها الماسة لأن تقدم كل هذا الولاء العجيب، ولمن؟! سأل دوستويفسكي، ليجيب: لمجرد عدم كلب حقير!!

تاه عن نفسه للحظات، جال ببصره في الأرجاء، ثم تمتم أنه لن يندم أبداً... كلا، سوف لن أندم أبداً، ليست المشكلة بأبطال كتبي. أبطال كتبي أسوياء، حتى أولئك المسجونون داخل ذواتهم إلى حد الأرق لم يبشروا يوماً بكلب حقير متوار.

شعشع دوستويفسكي في بعض قسماته فخراً واعتزازاً بما أنبت من أبطال. لم يبالِ أن بعض أبطاله قد هدهم الاسترسال في محض الأنا. فأناهم على كل حال بقيت أبداً متوثبة ضد ما يعتور العالم من جبن وكلب يعوي بالمقلوب (هل سبق لكم، ومطر الشتاء ينهمر غزيراً في إحدى الليالي الحالكة، والرعد يزلزل أجواء السماء، أن نصتّم إلى صوت كلب يعوي بالمقلوب؟)

لم يهادن أبطالي- خافت دوستويفسكي الصوت في صدره- أي متوار وأي سنجاب وأي وراء. نكشوا الضمائر بحرية عنيفة، وهم، وإن انزووا بعض الشيء، لم يوالوا أي توارٍ وأي عهر.

تمنى دوستويفسكي، وكان لا يزال يسير متثاقلاً ويداه معقودتين خلف ظهره، أن تكون قطط هذا المكان على شيء من الدوستويفسكية الأصلية، على بعض دوستويفسكي. بلى، ولم لا؟ لم لا يكون دوستويفسكي سيد هذا المكان وقابلته؟ هكذا فكر، وفكر أيضاً أسباب تشتت واغتراب واستلاب هذه القطط.

لم يسأم دوستويفسكي الذي أسند ظهره إلى عمود من الرخام الأبيض، لم يسأم من التفكير في القطط ومناوراتها داخل رأسه الشجاع كما قال همساً. جعل، وقد أرخى بثقله فوق الرخام الأبيض، يناور بذهنه أسباب امتثال هذه القطط لصاحب الظل التعيس المبغوت دائماً برعبه.

هدأ من حمأة غضبه، دارى الشفقة التي ألمت به على هذه القطط كي لا تتمدد أكثر، بل احتقر هذه الشفقة، ثم جعل يخيط مزقاً كان بمعطفه بواسطة إبرة وخيط أسود كانا فوق منضدة خشبية.

لمعاطفنا علينا بعض الحق، قال دوستويفسكي بوقار. لما انتهى من فعل الخياطة، نفض المعطف ثم ارتداه بعد أن قبله بحنان. لا بد أن صديقي غوغول سعيد جداً في قبره، قال دوستويفسكي وهو يمسد مكان القطب المشدودة جداً بسطوة الخيط.

اجتهد دوستويفسكي في أن يرصّ تساؤلاته حول القطط في كلمات منتظمة وراء بعضها برشد. إنما، ولما كانت الكلمات دائماً أرخى من وتر السؤال- وهي عبارة لفيودور دوستويفسكي على اي حال- عمد الروائي الروسي العجوز إلى بعثرة ما كان يضج داخل رأسه همساً، إلى بعثرته حناناً فوق المعطف وفوق الحذاء وفوق بنطاله وفوقه بالإجمال. نعم، عشق الرجل نفسه إلى حد المرض، فجعل يقبّل كفيه وجبينه ووجنتيه.

ماذا ألمّ بدوستويفسكي يا أرباب الأدب الحديث؟

لا أحد يستطيع الجواب حتى دوستويفسكي على ما أظن. اقترب، وقد اكتفى من تقبيل نفسه، من إحدى النوافذ المشدودة بقضبان حديدية- وهي المرة الأولى التي يقترب فيها من إحدى هذه النوافذ منذ دخوله إلى هذا البيت- وركز بصره على لست أدري ماذا. فأنا افترضتُ، ولأسباب لا يعلمها إلا فرويد وشكسبير وهوميروس والله ودانتي ونيتشه وشوبنهاور، أني كنتُ أرى إلى دوستويفسكي من جهة الخلف. حقاً، لست أدري لماذا افترضت أني كنت أرى إلى دوستويفسكي من جهة الخلف، أما هو فقد بقي يتطلع لست أدري إلى أين، بينما كنت واقفاً أرى إليه من جهة الخلف.

21

"إسمي فيودور ميخائيلو؟يتش دوستويفسكي. أنا روائي روسي من القرن التاسع عشر. لم يزد كلمة واحدة إلى هذه الجملة الأبدية الموجهة إلى لا أحد. التفت صوب المنزل العابق بمئات القضبان الحديدية المثبتة فوق نوافذه، ابتسم ابتسامة تنم عن ترفع ازدرائي، ثم توجه ناح البيت. جعل يعد خطواته بتأنٍ وقد تدثر معطفاً أسود وذقناً وشاربين خفيفين. صعد الدرجة الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة فالخامسة، ثم قرع الباب بمطرقة حديدية على شكل يد مضمومة. دج... دج... دج... دج."

قفز من مكانه وكاد أن يغشى عليه من شدة الغضب. خرج من البيت مستاءاً وجعل يعدو بخطوات سريعة. لم يظن أبداً أن بالأخير هذه الحشرية لأن يسرق أوراقه فيغافله ويأخذها وربما يبعثرها أو يشتتها أو يضيعها (؟!). كلا، كلا هذا مستحيل.

جعل يجد السير أكثر وكاد أن يقع على الأرض متعثراً أكثر من مرة وكأني بقدميه لا تجاريان ما يعتوره من حنق ونكرزة بسبب تصرف الأخير.

كان الأخير ممدداً فوق مصطبة من الأسمنت أمام منزل أهله، وقد وضع تحته فراشاً رقيقاً، يقرأ ساهياً عن العالم أن بريخت الخ... لما وصل الكاتب إليه.

لم يلق هذا الأخير التحية على الأخير، بل ترى إلى قسمات العنف البريء وقد لفت محياه ولم يكن شكله ينم عن أي حقد أو أي لؤم. كان شكل الرجل ينم بالأحرى عن غضب هو أقرب إلى غضب الأولاد الذين ما انفكوا يفشلون في مشاركة أترابهم اللعب.

لم يرتعب الأخير من غضب الكاتب ولم يخف، لكنه قدّر هذا الغضب على قدر ما يسمح به سنه. اقترب من صديقه وقد دلّت ملامحه على شعور بالأسف العميق ودعاه لأن يجلس ريثما تحضر أمه الشاي.

بقي الكاتب مسمراً في مكانه على بعد خطوتين من الأخير ولم ينبس ببنت شفة لما بادره الأخير بكرسي من القش كي يجلس عليه. صار الأخير يعتذر من الكاتب بعبارات هي أقرب إلى الشعر، مؤكداً أنه كان سيعيد الأوراق فور الانتهاء من قراءتها. لم يبادل الكاتب الأخير بأي ملامة أو جملة عتاب، وكان في هذه الأثناء يفرك عينيه بكفيه محاولاً إخفاء ما يعبق فيهما من حبات دمع.

لم يسبق للأخير أن شاهد الكاتب وقد ألم به الغضب أو الحنق، فهو لطالما رأى إليه منساباً وعلى شيء من الانشراح الودود. صار الأخير يزيد في الكلام معتذراً، وقد شهد بأم عينيه رعونة فعلته مؤكداً، وقد استعان في ذلك بكل الأنبياء الذي يعرفهم، أنه كان سيعيد الأوراق... ولا نية سيئة لديه.

حاول الكاتب أن يخفف من رجفة ذقنه وقد أطبق شفتيه، لكنه، وبلحظة هي أقرب إلى اللامتوقع الخالص، شرع بالبكاء. كان الكاتب يبكي أمام الولد الذي- وكما قال بعد سنوات طوال- عشق الكاتب في تلك اللحظة وكأنه...

لم يتأت له توضيح فكرته البتة في كل مرة كان يأتي بها على ذكر هذه الحادثة. لكنه كان يؤكد ما انتابه من عشق لهذا الكاتب الجميل وهي الصفة التي لطالما أطلقها عليه منذ ذلك اليوم.

اقترب الكاتب صباح ذلك اليوم من الأخير وقد فشل في أن يكبت دمعه. جعل يقبّل الولد ويعتذر منه واعداً إياه بكتاب شعر، بل بأكثر من كتاب. طبعاً، لم يفهم لا الأخير ولا أنا، ولا أحسب أنه أنتم أيضاً تفهمون أسباب اعتذار الكاتب ونهم تقبيله للأخير. قبّل الكاتب الولد بإمعان مما حدا بالأخير لأن يتواطأ مع شعور عميق غمره ثم أغمض عينيه للحظات.

تفقد الكاتب أوراقه بحذر، وكلم الأخير ممازحاً أن لا يعاود الكرة ثانية، وكان في هذه الأثناء يرتشف الشاي مع الأخير وأمه التي لا تدري من أمر القطط شيئاً. فهي لم تفكر في القطط في يوم من الأيام، لكنها قالت، وكان قد مضى على ارتشاف الشاي سنين، أن الكاتب صديق ابنها هو من سلالة القطط لأنه يشبه القط بالتمام.

الجدران، الأرضية، الشراشف، اللوحات

الطاولة، السجاد، مزاليج الأبواب، الخزانة، الشموع، الستائر

كلها رقدت.

يوسف برودسكي، ولد في لينينغراد سنة 1933. عندما أعار الكاتب الأخير قصائد برودسكي لم يكن الأخير يتوقع أن يلتهم برودسكي في ليلة واحدة، وينط عند الفجر إلى النافذة ليرى إلى العالم حوله إذا ما كان يتحرك أم لا.

القنينة، الأقداح، الطسوت

الخبز، الكريستال، الصحون، القنديل

الغسيل، الساعات

درجات السلم، الأبواب... الليل في كل مكان.

بعد أسبوع، وكان الأخير قد حفظ قصائد برودسكي عن ظهر قلب، نصحه الكاتب أن لا يغرق في لجة برودسكي كثيراً كي لا يكون مآله عتمة لا تنتهي، كما قال الكاتب الجميل باسماً.

في كل مكان ليل: في الزوايا، في العيون، في الملابس، بين الأوراق

في الكلام المنمق... في الحطب، في ملقط الحطب.

ثم، وقد عزز برودسكي من رقود العالم حول الأخير إلى درجة لا توصف:

لقد رقدت السجون، القلاع، حانوت السمك، جثث الخنازير،

البيوت، خلفيات البيوت، الكلاب البرية.

رقدت القطط، الفئران، الناس. الأشياء كلها رقدت، ففي قبورهم رقد الموتى جميعهم

رقد الأحياء في بحر قمصانهم... رقدوا بذعر.

بعد فترة من إعادة برودسكي إلى صديقه الكاتب، وكان ذلك بعد يوم من مقتل مصطفى العقاد في فندق بعمان، كما كان يقرأ الكاتب في إحدى الصحف المحلية:

الملائكة رقدت، الرب رقد والشيطان.

الشتائم، الحنين، والآثام.
الكل رقد. رقدت ضجة الكتب، رقدت أنهار الكلمات.
كان يرددها الأخير كأنها أغنية، سائلاً أترابه ترددها معه عند المساء وهم يلعبون.

22

بالإضافة إلى دانتي والله والأسماء التي ذكرتها منذ قليل، يمكن أن أضيف فأقول: حتى داروين و؟ اغنر وكلود برنار وأنبياء التوحيد الثلاثة يجهلون لماذا افترضتُ أني كنت أرى إلى دوستويفسكي من جهة الخلف. هذا، ويمكن أن أضيف إلى اللائحة أيضاً توما الإكويني، توماس إديسون، توماس مان، بيتهو؟ن، شايكوفسكي، راسل، مارتن لوثر كينغ ومارلين مونرو من القرن العشرين. على كل حال، وهي جملة لا بد منها في هكذا مطارح، كان دوستويفسكي مركزاً بصره عبر النافذة وكأني به يزدرد الأيام على غفلة من اللحظات والدقائق والساعات.

لا أحسبني بحاجة إلى ذكر الفترة الزمنية التي قضاها دوستويفسكي متلبساً لبوس الناظر بقلق عبر النافذة الجرداء. فالرجل، وقد تكفل الأبد في بعض كتاباته، لا أرى إليه مستشيطاً من فترة قضاها يتطلع لست أدري إلى أين. شرع، وقد تهدل النهار ليصير إلى بعض ليل، يركز نظرته على الخارج بحدقتين جامدتين وكأنه يتحدى غبش المساء.

صار، وقد واتت العتمة المكان عن بكرة أبيه، يناوب يديه بين حافة النافذة الجرداء تارة وخلف ظهره تارة أخرى. بعض حيرة ألمت بدوستويفسكي وقد دهمه الليل الجاحد، فجعل، وبحركة لاواعية بالمرة يسرّع من تناوب يديه بين حافة النافذة وخلفه الممتعض. مع حلول المساء، صار دوستويفسكي بالفعل ممتعضاً... كل دوستويفسكي صار ممتعضاً.

لم يسر الليل الفضفاض بعتمته إلى الرجل العجوز بأي خبر سار، على العكس، فالليل، وقد أينع سواداً غير مألوف بالنسبة إلى من هم مثل دوستويفسكي، تكبتل أمام ناظري الرجل صاحب الزفرات التي كانت تشد من أزر نفسها بزفرات أخرى ثم بزفرات.

ماذا عساه أن يكون الوضع الآن؟

لن أذكر أي اسم من الذين لا يعرفون ماذا عسى أن يكون عليه الوضع، وإلا فلن يكون الكتاب إلا عبارة عن صفحات ملأى بالأسماء مثل أسخيلوس وفيرغيل وكريستوفر كولومبوس والأخوين لوميير وماجلان وغوتنبرغ وغيرهم.

نعت دوستويفسكي هذه الليلة بليلة القذارة وليلة الشؤم. جعل يحشرج بأصوات تنبعث من داخل بطنه وصولاً إلى بلعومه ففمه ليقذف عبر النافذة ببلغم أخضر كأنه يعاني عارضاً مزمناً من الزكام.

كالمعتوه، وكأني به عجوز خرف، جعل يكرر بصاقه عبر النافذة باتجاه الخارج الغارق في بحر من الظلام الذي لا ينتهي. (يا لهذه الجملة العتيقة وأكاد أقول الإغريقية المنشأ والأصل... بحر من الظلام الذي لا ينتهي).

بالتزامن مع نوبة البصاق التي ألمت بدوستويفسكي أو هو ألم بها، لست أدري شأني في ذلك شأن ماركس وأنجلز ولينين، أوقف العجوز تناوب يديه بين خلفه الممتعض والنافذة الجرداء. لقد ثبّت يديه بقوة فوق حافة النافذة المشدودة بالقضبان الحديدية، ذلك أنه كان يقفز مع كل طلقة بصاق يأتي

بها باتجاه الخارج الأسود أو خارج الدهاء كما قال بنبرة روائية تنمّ عن تجربة في الأدب لا تضاهى.

بماذا كان يحدس دوستويفسكي عند حافة النافذة الجرداء؟

لطالما كان الحدس معرفة تتجاوز في يقينيتها الـ 1+1= 2. نعم، ثمة حدس لطالما حفل به الدوستويفسكي الأصيل، وكأني به يتحدى بهذا الحدس كل ما يمكن أن تقع عليه أعيننا في العالم من الـ 1+ 1=2.

رب قارئ، وهو قارئ عاقل بالإجمال، سيعنّف دوستويفسكي ويأتي عليه شتماً وسباباً وقد تيقن هذا العاقل حقيقة الـ1+1=2. لكن دوستويفسكي، وأحسب أننا قد تهنا كثيراً عن سياق الأحداث، سيرد بعنف ملؤه البصاق ليسأل هذا العاقل عن جدوى الـ1+1=2، وغيرها من شطط التفسير العلمي للعالم، مشيراً بيده التي يكتب بها كتبه إلى كل القرن العشرين وبدايات الحادي والعشرين... ولنعد الآن إلى نافذة دوستويفسكي الجرداء.

لا يمكن الكلام على هواء عليل يلفح وجه الروائي العجوز عبر النافذة المفتوحة على مصراعيها الشريرين، كما لا يمكن الكلام على نسمة باردة أو حتى على نسمة حر. كأني بهواء الخارج قد شُهق من جهة ما فانعدم إلا من بعض ما يمكّن الإنسان من نتف عيش.

لم تلم بدوستويفسكي عبقة الاختناق كما تعرفنا إلى هذه العبقة في مقاطع سابقة من هذا الكتاب أو في غرفة أخرى من غرف البيت. بدا على الرجل بعض تعب وبعض إرهاق. آفة من الانحطاط الجسدي تلقفت دوستويفسكي فأرهقته وأودت به إلى مسارب من التأفف وضيق الصدر العجوزين.

حتى هذه اللحظات كان لا يزال مركزاً بصره نحو خارج الدهاء، كما أصر أن يطلق على هذا الخارج المتلفع عتمة الليل والمندفع في عدم الهواء اندفاعاً.

بلحظة دوستويفسكية شديدة الوقع والإلهام، برم دوستويفسكي وجهه صوب داخل البيت وهو كان ليفاجئ الجمهور لو كان ثمة جمهور. إذ، تزامنت التفاتة دوستويفسكي نحو الداخل مع صوت خشخشة ورق الشجر اليابس المنتشر تحت النافذة الجرداء منذ أكثر من مئة خريف. ثمة من يدب فوق الورق اليابس إذن، ومع هذا رأينا إلى دوستويفسكي يشد نظره إلى داخل البيت.

إنها المرة الأولى التي يلمح فيها صاحب الظل التعيس بعينيه وليس بأذنيه. لم يلمحه مباشرة وبالتفصيل، لكنه شاهد بعض ظله عبر مرآة ضخمة معلقة فوق جدار وفيّ من جدران هذا البيت.

لمس دوستويفسكي وجهه متحسساً قشعريرة ألمت به. جعل يمص شفته السفلى ليعض هذه الشفة من إحدى زاويتيها ثم يعود فيشبك كفيه خلف ظهره بحركة بطيئة لها علاقة -ربما كان في هذا الكلام تجنٍ كثير- بالماركيز دو ساد.

هل سبق لكم وتعرفتم إلى الماركيز دو ساد؟ دوستويفسكي كان في هذه اللحظات، وإطار المرآة الخشبي يتمسك بمرآته بواسطة أفاعٍ غليظة حُفرت عليه، دوستويفسكي هذا كان بمثابة الماركيز دو ساد. حاول، وقد توتر المشهد بين يدَيه الممتعضتين، أن يستدرك شكل المتواري بالتفصيل، فيلتقط هذا الشكل بواسطة شباك ذهنه العنكبوتية. لكن، من أين له بهذا الشكل وهو لم يشاهده إلا لمحاً عبر المرآة التي بدت متواطئة مع هذا اللمح الشريد؟

كفّاه اللذان يعصران بعضهما بعضاً خلف ظهره الممتعض، انحلا فباعد أحدهما نفسه عن الآخر بحركة تشبه حركة السلطعون المذعور. مرت لحظات و دوستويفسكي يناوب حدقتيه بين مرآة الأفاعي الغليظة وسائر أنحاء الغرفة. ثم، وقد ازداد صوت الخشخشة المنبعث من الخارج، حوّل ناظريه إلى هذا الخارج الدهليز.

أي من السلطعونين الدوستويفسكيين المذعورين لم يأت بحركة وقد تجمدا عند حافة النافذة الملعونة، وهي صفة تليق جداً بهذه النافذة كما كان يفكر العجوز. فدوستويفسكي- وقد سالت هذه الجملة من داخل رأسي الآن- لم يكن به حاجة لأن يناهض القطط بالإجمال، لكن، والقطط هي التي تناهضه في هذا المكان المنعزل، رأينا إليه يشمئز فيستنفر نفسه بانتظار وصول هذا الواثق من نفسه يخشخش بهبل.

كل من السلطعونين الحائرين كان يؤازر دوستويفسكي في مراقبة ضوئين صغيرين متقدمين باتجاه البيت. كان الضوءان يقتربان بعزم وجودي في لجة العتمة الوقحة، بينما سلطعونا دوستويفسكي ما زالا جامدين عند حافة النافذة الجرداء.

توقف الضوءين فجأة وجعلا يتحركان يمنة ويسرة، إلى فوق وإلى تحت، وبعض مواء هو أقرب إلى الأنين قص خيط السكون المستفحل. عادت الخشخشة تهمس في المكان مع استئناف الضوءين الحركة. كانت حركة الضوءين المستأنفة بعد فترة التوقف القصيرة أسرع، فتداخلت أصوات الخشخشة بعضها ببعض ليتشكل عندنا ما يصح أن نطلق عليه جدولاً رقراقاً من خشخشة أوراق الشجر.

لم تتوفر لدوستويفسكي السرعة الكافية لمشاهدة صاحب الظل التعيس بأم العين. فالروائي، وما إن التفت إلى الوراء على وقع هسهسة خفيفة شعر بها تخترق أذنيه، حتى كان المتواري قد غاص في نتانة تواريه كما قال دوستويفسكي الذي يصح أن نطلق عليه في هذه الليلة صفة المحارب.

لم يكن بحوزة دوستويفسكي أي منجنيق، لم يكن بحوزته أي سلاح باستثناء عينيه ويديه وقدرة على التحفز والانقضاض لا يجاريه فيها أحد. حاول دوستويفسكي مساءلة المرآة وبعض الجدران، لكن الجميع في هذا المكان مصمم على اللا دوستويفسكي بعزم وإرادة صدئتين، والكلمات الأخيرة لدوستويفسكي بالذات.

الضوءان الصغيران في الخارج اختفيا. لم يعد لهما أثر. اندثر الضوءان في دهاء العتمة الفسيحة، فولى دوستويفسكي ظهره للنافذة وسار متفكراً وكأني به يتجمع فوق بعضه البعض متأهباً، مستنفراً أدواته، محتقراً مرآة الأفاعي الفسيحة ومحتقراً ازدحام الجدران لما...

23

الموت ليس هيكلاً عظمياً

محنيّ القامة...

الموت هو هذه الأجمة،

حيث نقف جميعاً...

أما وقد جعل أصدقاءه يرددون أغنية اختارها لهم من كتاب برودسكي، سعى الأخير إلى زاوية أخرى يكمل مع برودسكي أن:

على أنقاض المذبح تثاءب الليل...

لا يمكن القول أن الأخير ولد خارق. كل ما في الأمر أن هذا الولد يتمتع بحساسية شعرية جارفة تجعله يلتهم الشعر، فيكابده وينطلق في رحابه حتى ليحسبه المرء جزءاً من القصيدة أو هو القصيدة. ولا مرة رأيتُ إلى الأخير متشاوفاً بما يعرف من شعر، بالعكس، فإنه في مرات كثيرة، وإذا ما توسل في الشعر مخرجاً يعبّق فيخجل ثم ينسحب إلى لجة ذاته أو يتحول إلى كائن بمنتهى الوقاحة أو الرعونة، وفي أحيان كثيرة إلى كائن بمنتهى العنف. كلم صديقه الكاتب يوماً أنه لطالما تمنى أن يكون حديث الناس محض شعر، لتجده، وبعض لحظة من هذا التمني الشغوف عفريتاً بالكاد يقيم وزناً لأي حس سليم. قد لا يليق بهذا الولد أن يكون موضوع رواية. ربما الشعر هو الموضوع في هذا الكتاب، وربما العدم. ربما الأخير هو العدم، وربما الشعر هو العدم... ربما هو كتاب عن لا شيء، لست أدري.

استفاق مذعوراً وعلامات الخشية بادية عليه. تحسس أسنانه على الفور بأصابعه ثم بلسانه الذي جعل يتذوق هذه الأسنان بنهم كأنها وجبة لا تنتهي من الطعام الشهي. إنه المنام نفسه ما انفك يداهم نوم الأخير، فيؤرقه ويحوله في بعض لياليه إلى محض جسد يتقلب فوق فراش منبسط، ويحوله أيضاً إلى عينين منفرجتين حتى طلوع الفجر وصياح الديكة وخربشات قطط الحي التي لا تنام.

لم يكلم أمه يوماً عن منامه، ولم يخطر له البتة أن يفضفض إلى أحد عن ما يعتور ليله من تساقط للأسنان. صار الأخير يخاف أسنانه كل يوم، فيعمل على تجنبها بأن يستبد برأي مفاده أن الأسنان أعضاء زائدة أو هي أضغاث أحلام.

كان يداور في الكلام نهاراً فلا يأتي بكلام على منامه إلا مناورة وكأني به يخشى ثأر هذه الأسنان أو يخشى انقلابها عليه. تحولت الأسنان في فم الأخير إلى نعوت يخافتها في صدره سراً وكأنه يخاف أن تطّلع أسنانه على هذه النعوت. رأى في أسنانه محنة، إنها بدايات موته، أسنان الأخير شياطين صغيرة، إنها من سلالة الجن... ودائماً بالسر.

قهقه الكاتب وكاد أن ينقلب على ظهره حين سأله الأخير يوماً إذا ما كانت الأسنان تنام. أما أمه، فجسّت جبينه طالبة العون من الله أن لا يكون الأخير مصاباً بحمى أو بشيء من هذا القبيل. جعلت

ترقيه يومياً لتشد زنده فيما بعد بحرز منسوخ بيد أحد الشيوخ الأولياء.

تذرّع الأخير بحرز أمه ضد خوفه المتجدد كل يوم. ثمة خوف استبد بالأخير، فصار يخاف كل شيء، ويقلق ويلوذ إلى فترات من الصمت طويلة، وحين يفكر أسباب قلقه ما كان يجد شيئاً.

لطالما هزئ أسباب قلقه، لكنه، وما إن تصير الشمس عند خط الأفق، حتى يكتشف وهم هذا الهزء. قلق الأخير كان كبيراً، كبيراً جداً. إنه قلق عملاق يتمتع بفم فاغر له أسنان بيضاء مسننة تقضم راحة الولد وتقضم كل أسباب الهزء.

سأل أمه، وكان قد صار شاحباً أهمية هذا المعلق فوق زنده. لم يكن يسأل، كان بالأحرى يستجدي الاطمئنان. كان الأخير يستجدي اللاخوف، يسأل الأمان عبر التقرب من إخوته فيشاركهم أحاديث لم تكن يوماً موضوع اهتمام من قبل هذا الأخير. صار يخاف كثيراً، فيتوسل عدم الخوف حتى في روائح يشمها في جهات مختلفة من البيت. بلى، ثمة روائح تمخضها الأخير جزراً يأوي إليها هرباً مما كان يستبد به من ذعر وأسنان خوف.

حاول أن يباغت خوفه في إحدى الأمسيات، فيشي به كلاماً صريحاً لصديقه الكاتب، لكن لسانه، وبدل أن يحيك أفكار الرعب كلمات يرميها خارج ذهن الولد، عمد هذا اللسان الأعرج إلى أسنان الأخير يتحسسها، يمرر نفسه فوقها حتى لتظنها لاأسنان إنما عقد لسان أعرج.

ضحك الأخير بعنف الولد الشقي الأرعن، مرّن نفسه على خوف ابتلاه ثم شرع يؤسس في ذهنه أسباب هذا الخوف. صار الأخير يحتال على خوفه بأسباب يخترعها، بأفكار لا داعي لتدوينها بحرفيتها وإلا اتُّهم ولد الأسنان هذا بالخبل.

استكان إلى نشوة أوهام صدقها وإلى مقاطع من الكلمات جعل يرددها أمام الماشية في المزرعة وبشكل خاص أمام الأبقار. صارت الأبقار في وعي الأخير مساحات أنس وقد استجدت هذه الأبقار بعد طول عشرة صبايا يتوددن للأخير فيقتحمن عتبة مذبح خوفه الضبابي.

صرّح لآنساته بخوفه، وصار كل يوم يهندس شفتيه ليبرز أمامهن أسنانه البيضاء. البقرات، تلك الآنسات الوديعات المغناجات احتضنت الأخير، مارست بعيونها الحزينة أسباب الشفقة عليه، تلك الشفقة التي كان الأخير عبدها كما همس في أذن إحدى تلك الآنسات الضخمات، المكتنزة بحليب لا ينتهي.

إحدى تلك العشيقات، وهي أكثرهن حناناً وأكثرهن صفاء وبعد نظر، تمثلها الأخير أمه، فكان يقبلها منهنهاً وارباً رأسه عن العالم...

خوف الأخير من اللاشيء اتخذ شكل العالم من حوله، صار شكل العالم أرق باستثناء زاوية البقر المزهزهة. كلام الأخير للبقرات شرشح خوفه، أذل هذا الخوف وصار الولد لا يصيخ السمع مطمئناً إلا إلى خوار البقر. إن القلق الذي طالما تولى الأخير ناباً، زمّ في ناحية البقر وكان هذا القلق يتبعثر على وقع أنفاس البقرات فوق خد الأخير عندما يكون نائماً بين أحضانها.

يا لهذه الإرادة على البقر، وقد تولّت الأخير فأسكنته. إنها إرادة خلاص، إرادة نجاة. إنها إرادة الأخير للتغلب على مأزق القلق ومأزق الرعب ومأزق الأسنان.

24

لما ماذا يا ترى؟

عمد دوستويفسكي، وبدون أن يستشير في ذلك أياً من عقلاء العالم الحديث، إلى تحسس واقع آخر لا يمت إلى واقع العقلاء بصلة. قطع، وبشكل فج، مع العقلاء آملاً كما أسر لنفسه على غفلة من المتفائلين بعقولهم، أن يتمكن بواسطة... ماذا أقول؟.. ماذا أقول؟؟.. بواسطة قلبه ربما من معرفة مخبأ صاحب الظل التعيس.

جعل الرجل يهندس هذا الواقع الجديد داخل جنبات البيت المقيت بعاطفته الصادقة وليس بعقله، محولاً بعض الوقائع الحقيقية إلى شذرات أخرى غريبة عن ناس العقل ومفاهيمهم. حتى أحفاد أهل العقل، أراد دوستويفسكي أن يجلجل في رؤوسهم بطنين ظنوا لوهلة وعلى غفلة من الزمن أنهم نسوه. مثلاً- وبالنسبة لغير المتخصصين- أخذ دوستويفسكي، وبقلب حنون، يغري المرآة الكبيرة بأنه سوف يلمع وجهها إذا ما ساعدته في تحديد شكل المتواري كما لمحه منذ قليل.

جعل يكلم المرآة بحنان حقيقي، بلغة هي أقرب إلى الأسطورة. لكن هذه الأخيرة طالعت العجوز بردة فعل عنيفة، فإذا بوجهها المصقول يسودّ وكأني بها حردت أو شعرت بالإهانة.

أحسب- قال دوستويفسكي وقد زم رأسه بين كتفيه هازئاً- أن أحد أبطال العقل سيستنكر عاطفتي تجاه الأشياء!

الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي، وقد حول دوستويفسكي السؤال إليه بمودة، تعكر مزاجه فتحول الصعود على هذا الدرج إلى نزول ونزوله تحول إلى صعود. أحد الأروقة الطويلة، وقد ربت دوستويفسكي فوق كتفه بشغف، تقلص أمام ناظري الرجل، وإحدى الخزائن فككت نفسها لما سألها العجوز وكأنها قجته الصغيرة، إذا ما احتضنت المتواري في يوم من الأيام.

كان دوستويفسكي، ومع كل سؤال يوجهه إلى الأشياء من حوله، يرمق عقل الأنوار بنظرة بخسة ممنياً النفس أن تتجاوب هذه الأشياء مع رقة قلبه وشعره الجميل.

بعض اللوحات الجدارية والمفرطة في محاكاتها للواقع، استشاطت من إلحاح دوستويفسكي لمعرفة تفاصيل المتواري، فغيّرت ألوانها، ولوحات أخرى تمثل بمعظمها التقاليد البورجوازية في العيش، تحولت إلى مجرد كروكي.

مجسم صغير لمفكر رودان، وهو قاطن في هذا البيت منذ دهور، كفّ عن أن يكون مفكراً، فإذا به، وبلحظة شماتة بدوستويفسكي الشاعر، مد لسانه رافضاً أن يكون موضوع إحساس الروائي الروسي العجوز.

عقل الأشياء، حتى عقل الأشياء في هذا المنزل المسعور بالجدية والعقل، لم يجار دوستويفسكي في استنبات المتواري حقيقة عيانية ولو للحظات.

يا لهذا الولاء الأعمى، قال دوستويفسكي متوجهاً بالسؤال الآن إلى باب المدخل الرئيسي. فهذا الباب، والذي كان دوستويفسكي قد دفعه دفعاً في يوم من الأيام، لبث صامتاً يرمق دوستويفسكي بزيزقات صاخبة وبطرطقة الأقفال وبانغلاق ثم انفتاح وغيرها من الحركات اللئيمة التي تمت إلى الأبواب الحقيرة بصلة.

جعل هذا الباب العريض يستفز دوستويفسكي بوقار رخيص لا يمت إلى السيادة أو إلى احترام الذات أو إلى المشاعر النبيلة بصلة قربى. حتى المطرقة التي على شكل القبضة المضمومة، صارت تؤازر بابها في حرتقات ينفر منها الإحساس النبيل.

طلب دوستويفسكي من الباب العريض، وقد قرف من نكاياته، أن يصمت قليلاً وينغلق ويكف عن هذا العبث الدبق. سأل دوستويفسكي الأشياء، وكان في سؤاله نوع من الانكسار المنطوي على ذاته، سأل هذه الأشياء أن تكف عن صخبها الحقير لاعناً بينه وبين نفسه عقلها وعقل الأنوار ولاعناً كل شيء لما...

لما ماذا يا ترى؟؟

... مياو، بعزة نفس وبثقة في النفس مبالغ فيها، وبحرية موهومة كما سيكتشف الجميع ذلك فيما بعد، دخل إلى المنزل عبر باب النكايات الحقيرة قط متوسط الحجم مزهو بنفسه معجوق بما يحمل فوق رأسه من تمسيدات كثيرة.

25

انتهى الصيف، أتى الخريف وحل من بعده الشتاء.

صارت الأشياء إلى بعض شتاء، وغيوم كثيرة وأشجار بلا أوراق وأقنية تفيض بأوساخها، وأشخاص يسيرون مكتنزين بأصواف وبقبعات ومسترسلين فوق الأرصفة تحت مظلاتهم السوداء.

كان الأخير، وبشغف الماء، ينصت إلى طرطقات حبات المطر فوق صفيح منتشر حول بيته، وبراميل فارغة وأشياء تخص صوت المطر. جعل الولد المستلقي في فراشه يتأمل خطوط الماء المتعرجة فوق زجاج نافذته، وخطوط أخرى تعكس انهمارها لمبة البلدية المضاءة بخجل، والتي كانت تتردد بين الضوء وعدمه وما بينهما من خفوت حزين.

لطالما احتفى الأخير برائحة الشتاء الممتزجة بصوت الانهمار الغزير للمطر فوق الصفيح الصدئ.

ليس الشتاء في وعي الأخير مجرد ماء ينهمر، بل هو أقرب إلى كلام تتبادله السماء مع الأرض خفية وعلى غفلة من الناس والأولاد. فالشتاء، وكما يتعاطاه هذا الولد سراً، هو لغة تقوم على أن يقبع الناس في كنف مطارحهم مسترسلين في كنكناتهم على بعضهم البعض، ومسترسلين في إغفاءات تحاول خلسة سبر أغوار الرعد وسبر أغوار البرق.

الرعد، هذا الإله الطائش كما كتب الأخير يوماً على أحد دفاتره، هو غول مشدود بحبال يحاول جاهداً التخلص من أسرها. أما البرق، فإنه بعض أنوار يتلقفها ناس السماء الضخام في مساربهم الليلية، والخيال-صدقوني- للأخير.

إن الشتاء هو خطة السماء في استلقائها فوق الأرض، كان يفكر الأخير. فهذا الماء العنيد في انهماره هو قارب السماء أو هو طائرها الذي يرفرف فوق الصفيح وفوق لمبة البلدية.

ولا مرة خاف الأخير سطوة الشتاء أو استجد رعباً بين قطراته، على العكس، إن الشتاء حاجة الأخير إلى الإنصات منذ أن كان طفلاً رضيعاً. بلى، لطالما رددت والدة الأخير أن ابنها كان إذا هطل المطر يختلف إلى صمت لا ينتهي بعينين منفرجتين وذلك منذ أن كان في القماط الأول.

لا يدري الأخير من أمر الماء شيئاً. لا يعرف كنه الماء وألفبائه السائلة، فأبجدية الماء منطوية على نفسها بخطوط متعرجة يرسمها الشتاء فوق أسطح الناس عنوة وفوق جدران منازلهم... لكنها أبجدية غريبة، قال الأخير لصديقه، أبجدية لا نعرفها نحن البشر العاديين كما خمّن الأخير يوماً.

لعل القطط أدرى من الناس بألف الماء ويائها؟ كان الأخير يسأل.

إن القطط، قطط حي الأخير وغيرها من القطط في الأحياء المجاورة، أدرى بالشتاء من الأخير، كما فكر الصبي يوماً. فهو لطالما انشدّ إلى مطّ القطط وموائها الغريب مع كل مطر. نعم، إن القطط أدرى بالماء من بني البشر، كما فسّر الأخير وقد تعربس صوت الشتاء مع الصفيح والقطط.

عقد العزم يوماً، وكان ذلك مع بدايات العام الدراسي الفائت، أن يستأنف لغة الشتاء أحرفاً مكتوبة. فكرأنه يستطيع أن يحل لغز الماء، فيقرأه كما يقرأ كتب الشعر، هكذا فكر الأخير متيقناً أن الشتاء

شعر.

طبعاً، وكما هي عادة الأخير، لم يخبر أي أحد عن نيته في ولوج أحرف الشتاء وجمله الغزيرة. لم يسأل مجرباً عجوزاً أو قاطناً عتيقاً في هذا الحي كي يساعده في قراءة الشتاء المنهمر والانغماس في سطوره. خرج من البيت مع أول انبلاج الفجر والمطر يزدرد الأرض ماء، وجعل يعدو بين الصفيح المتكوّم والبراميل التي لا يدري من حطّها في تلك الأمكنة حتى صارت هي الأمكنة بعينها. جعل الأخير فجر ذاك اليوم يجاري المطر ركضاً ومشياً، وفي بعض المطارح تسللاً وقفزاً، حتى ليحسبه المرء إذا ما نظر إليه عن بعد قطاً أو كائناً في طور القطط.

كان يجري فوق الأسطح وكأنه القط الأخير... كان يجري كأنه قط. كادت هذه الملاحقة الشغوفة لأبجدية المطر أن تودي بالأخير إلى موت محتم. فهو، وكان ذلك مع بداية عامه الدراسي الفائت، ركن إلى لجة من الخجل فظيعة فوق سرير احتضنه في أحد المستشفيات المحلية لأكثر من أسبوع.

ليس الشتاء هو المرض، إنما فشل الأخير في إلقاء القبض على المطر هو ما أودى به إلى هذا المؤدّى من الحرارة المرتفعة والالتهاب الرئوي كما كان مقتنعاً، وقد جارته في هذا الاقتناع بعض الممرضات اللواتي كنّ يواسينه بأبجدية بيضاء كما أخبر الكاتب بفرح.

لم يفكر الأخير يوماً أن المطر عدوه، لم يعقد العزم يوماً على أن يعادي المطر. فهو، وإن كان قد استلقى فوق سرير من الدواء أسبوعاً، فإن استلقاءه عزز فيه الشتاء أكثر. الشتاء نفيس، حزر الأخير. الشتاء جبار لا يرضى البوح بأسراره من أول ركض فوق الصفيح. احترم الأخير مراوغة الشتاء له، وقدّر بشغف هذه المراوغة المبللة بالرعد والبرق والعواصف وأصر على أن يراوغ الشتاء بدوره.

حتى اليوم، وقد مضى على الشتاء دهور، ها هو الأخير يستلقي فوق فراشه محاولاً لحس صندوق الشتاء. الأخير لم يقتنع بعد أن الشتاء ليس أكثر من مجرد ماء يجري.

كان الولد يتأمل الرذاذ فوق زجاج النافذة، فيطالعه هذا الرذاذ بأسرار يأبى الأخير البوح بها إلا لكتب يستعيرها من صديقه الجميل. إنه الرذاذ، وقد صدّق شغف الأخير لاكتشاف سر الشتاء، يرسم الشتاء أحرفاً غريبة فوق نافذة الولد. شكّل الرذاذ أحرف الشتاء بأدوات لا تمت إلى أبجدية الناس بصلة. باح للأخير فوق لوح الزجاج بكنه الماء، باح له بأبجدية تطرطق فوق الصفيح المنبسط. علمه أن الماء قط، إنه ذلك الوريد الذي ينبض فوق البراميل الصدئة الخالية إلا من ذاتها.

خط الرذاذ للولد أن لمبة البلدية تلك التي تئن تحت وقع تناوب الضوء والعتمة هي أيضاً مطر، هي أيضاً رذاذ. إنها مطر، تلك الجدران المطلية بألوان مختلفة، والزقاق، وذلك الدرج الطويل المؤدي إلى الحي الآخر... كل هؤلاء مطر.

كان الأخير، وقد أسند نفسه الآن على أحد جانبيه، يقرأ شعر الشتاء فوق الزجاج الصريح، فيرى إلى وجهه ينصت بانتشاء إلى خوار صديقاته الوديعات، يرى إلى أمه تضبضب عجقة الفطور بسرعة، يبتسم وقد صوّر له الرذاذ أباه المستعجل على الدوم.

إنها أبجدية الشتاء، صرحت للأخير بأنها حقيقة، دعته لأن لا يخجل من قراءتها جهاراً. قال له الشتاء: كلمني يا الأخير، سرْ بجانبي، لا تستح من صحبتك إياي. مزج الأخير أحرف الشتاء بأحرفه، فتح صندوق المطر الفسيح، ترجم لغة المطر السرية وصار كلما جافاه النوم يبتدر الشتاء

صديقاً، يكلمه، يقرأه، يقوله من فوق الزجاج لغة محكية أو مقروءة، لغة شفافة صادقة زجاجية تستبيح عالم الصفيح الصدئ، وعالم البراميل الخاوية.

أجاد الأخير لغة الشتاء، وقد تعرى المطر أمامه. تمطى المطر أمام الأخير في بعض زوايا الحي قططاً تموء، قطط يسمعها الأخير مع طلوع الفجر وحيداً، فيستكين إلى دفء فراشه ويركن، في لجة العاصفة، إلى بحر من النوم الفسيح.

وأنتِ يا ريح الجنوب، المثقلة بعطر البرتقال

ادفعي بالقمر إلى حيث ينام الأطفال عراة.

26

نفر دوستويفسكي من منظر هذا القط، وشعر بما يشبه الـ... لست أدري ماذا بالتحديد، إنما هو شيء يشبه الاستخفاف. لم تكن هيئة هذا القط تنمّ عن أي بشاعة من حيث الشكل واللون، إنما ثمة ما نفّر دوستويفسكي منه، شيء شبيه بالسماجة. كان هذا القط، وهو بني مع بعض المسارب البيضاء، سمجاً غير مهضوم بالمرة، وكان في مشيته ادعاء التقرب من الآخرين والعمل من أجلهم. حاول هذا القط-وهو بالمناسبة يدعى جان بول- ولحظة ولوجه عتبة البيت، أن يثير من حوله العجقة والازدحام والقيل والقال. فهو، وما إن تفوه صاحب الظل التعيس باسمه، حتى أخذ بالمواء وكأني به يستعرض وجوده.

"جان بول، ارجع من حيث أتيت"، قال له الصوت المتواري. لكن القط أبى الخضوع لإرادة الصوت، فجعل يموء مواءً مجعداً هو أقرب إلى ... كان يموء، ومع كل خطوة يخطوها يزيد من موائه أكثر، بينما دوستويفسكي يتأمله وقد أثار به موجة من الغثيان. فكر دوستويفسكي للحظات أن تمرد هذا القط على إرادة الصوت الجبان قد يحمل في طياته أمل كمش صاحب الصوت. لكن هذا الأمل سرعان ما تلاشى وقد تجسد القط السمج في أكثر من موقف كحليف حقيقي لصاحب الصوت.

رجفت مرآة الأفاعي بعض رجفة فوق الجدار، ما حدا بدوستويفسكي أن ينقل بصره تواً ناح هذه المرآة، فيشاهد، وفي جزء من الثانية، هيكلاً أسود ثم ... دج دج، تسقط المرآة على الأرض محطمة وقد قفز عليها جان بول بكل خبث وبكل...

طاش صواب دوستويفسكي من تصرف هذا البني الحقير، فهو كاد أن يلتقط صورة الصوت عبر المرآة لو لم يحطمها هذا المدعو جان بول والواقف هناك الآن يرمق دوستويفسكي عن بعد. مياو... مياو... زعقها ثم فاء إلى ركن يلحس جسده وكأنه لم يفعل شيئاً.

أي من القطط السابقة لم تستفز دوستويفسكي كما استفزه جان بول، فحتى بيكيت، وعلى الرغم من توسله السواستيكا لإيقاظه، لم يودِ بالروائي العجوز هذا المؤدى من القرف والاشمئزاز. انزعج دوستويفسكي كثيراً من استعراضية جان بول، ورأى إليه مراهقاً نزقاً لا يهوى سوى التصفيق.

"سحقاً لك من هر حقير، لماذا حطمت المرآة يا أيها المعتوه؟" مياو... مياو، ثم مياو... مياو، لينتقل بعدها إلى جهة أخرى من الغرفة يصعب على صاحب الممسوسين الوصول إليها.

لم يسيطر دوستويفسكي على ما استبد به من غضب محموم، فإذا به يترصد القط في أرجاء الغرفة وكأني به صائد قطط. ما كفّ جان بول عن لحس نفسه، حتى ليحسبه الإنسان العادي كائن لحس أكثر منه كائن خربشة وقفز ومواء، بينما الصوت ما انفك يغرغر بكلمات يمور بين مقاطعها الاضطراب.

جعل دوستويفسكي، وقد أهانه هذا القط البني اللعين، يتمتم بإشارات صوتية لا أخال أن ثمة من يستيطيع فك رموزها. بدت على العجوز علامات كثيرة من الأسف وخيبات الأمل، لينهي تمتمته

بجملة واضحة المعالم والبنيان تعني من ضمن ما تعنيه أن هذا الروائي العجوز ما عاد يملك ناصية الأحداث وقد أرخى جان بول بظله الثقيل فوق مساحات هذا البيت.

لم يفهم دوستويفسكي اندراج هذا القط في أفق الصوت الأسود. كيف سمحت لنفسها هذه القطط أن توظف غريزتها عند صاحب هذا الصوت؟ جعل يفكر في هذه الأسئلة، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويرمق القط البني الذي كان يرمق دوستويفسكي بغنج وبدلال ممجوجين.

استمر تحذير الصوت لجان بول بتأتأته المعهودة مواظباً على غرغرته، ليجاري هذا القط تحذيرات سيده، حيث انتقى نافذة عالية قفز على حافتها وشرع بالمواء.

كل الوقت باستثناء لحظات اللحس، كان جان بول يموء.

استرد دوستويفسكي بعض الهدوء المشوب بالامتعاض. تناول كرسياً وجلس ينظر إلى البني وقد اكتسى المكان طابع وجود هذا القط... الضجيج في كل مكان. لم يراع جان بول جانب الهدوء للحظة واحدة، فيكف عن المواء مثلاً، كما أنه لم يتبنّ إرادة دوستويفسكي فيساعده في إلقاء القبض على صاحب الظل التعيس. كان بغاية السلبية كمن سبقه من قطط هذا البيت ، وإن تميز عن كل القطط الباقية بسماجة لم يستسغها دوستويفسكي البتة، بل ترى إلى دوستويفسكي يتبرأ دوماً من هذه السماجة الوجودية.

مكث الهر عند حافة النافذة ساعات كان أثناءها يأكل برازه، بينما دوستويفسكي يقضم أظافره بأسنانه البيضاء، وهي عادة استجدت مع حضور جان بول وولوجه عتبة البيت. نعم، كان دوستويفسكي يأكل أظافر يديه الاثنتين فيقضمها قضماً غير مبال بأي عوارض قد يسببها هذا القضم الجديد.

لما انتهى دوستويفسكي من قضم أظافره- فهو بالحقيقة كان يقضم بسرعة جنونية- قام من فوق الكرسي وتوجه صوب النافذة الجرداء بينما جان بول مستمر في أكل برازه مطلقاً المواء تلو المواء بشكل متقطع يداخله الخرير تارة وتارة أخرى يداخله الهدير. كلها أصوات كان يأتي بها جان بول.

لن أتحدث بتفصيل أكثر عن هذا القط البني السمج، وعما اعتور هذه الصفحات من براز وجودي، لذا سأنتقل إلى مقطع آخر يبدأ أو بالأحرى ينتهي بعبارتين، إحداهما كوميدية والثانية تراجيدية كانتا محفورتين فوق جسد جان بول الذي يصح أن نطلق عليه الآن صفة المسكين.

لما انتهى هذا القط من أكل برازه فوق حافة النافذة العالية، وأثناء وجود دوستويفسكي عند حافة النافذة الجرداء، وفي خضم نحيب المتواري وثقله الاستبدادي فوق المكان، حصل ما يشبه المعجزة. على غفلة من الجميع، حتى على غفلة من أحداث الكتاب، تحركت إحدى الأفاعي المحفورة فوق إطار المرآة المحطمة، فغادرت هذا الإطار وتوجهت صوب النافذة العالية. قفز المسكين المتأنق آكل البراز مذعوراً، وجعل يركض في الأرجاء كالمعتوه عندما، وبطريق الخطأ ربما، وجد نفسه بين يدي دوستويفسكي، حيث استقبله هذا الأخير بصمت أليف.

يا أبناء العالم الثالث اتحدوا، والعبارة الثانية، الآخرون هم الجحيم، بالإضافة إلى غيرها من العبارات التي تتراوح في طولها وعرضها فوق جسد هذا القط المقطوع الأنفاس والغارق في بحر من النوم الفسيح كما قال دوستويفسكي، الذي كان في هذه الأثناء ماكثاً قرب حافة النافذة الجرداء

يمطّ شفته السفلى إلى الأمام وينظر إلى الخارج بازدراء وبقلة اكتراث، بينما الصوت في الداخل انتدب النحيب وانتدب أيضاً بعض السعال.

27

أيها الموت الرقيق،

لا تمس بأناملك الباردة الساعة المعلقة في المطبخ

تلك التي تتكّ على الجدار.

كل طفولتي انقضت على طلاء دائرتها،

على تلك الأزهار المرسومة

لا تمس أيدي وقلوب المسنين.

كان المطر قد توقف منذ قليل، وثمة كلب يصيح كالديك فوق مزبلة من علب السردين والكرتون والفوط الصحية. تلبُّد السماء بالغيوم حال دون اجتماع الناس في باحة المدرسة الخارجية كما كان مقرراً، فإذا بالجميع ينحشرون في أحد الصفوف الداخلية.

"أنا وأمي ودماء الليل وفتاة صغيرة. لم تكن هذه الأخيرة ترتعش... إنها جثة هامدة.

رأسها يشبه الحلم والطبشور وأوتوكار المدرسة الأصفر... لم تكن ترتعش، رأسها يشبه الحلم.

حاولت أمي بواسطة صوتها شق العتمة بأن غنّت أغاني الصحراء. لكن الصحراء بعيدة والعتمة تعاند أمي.

سحبت أمي الصحراء من فوق العتمة... بلا طائل. صوت أمي خائر والعتمة تعاندها.

مسحت أمي الغبار عن وجه الفتاة. فتاة الطبشور فتاة غبار أيضاً.

وجه الفتاة قديم جداً وقد تضرّس فوقه الغبار.

أغاني أمي وابل من صواريخ، والقدم اليمنى للفتاة في مكان آخر. رفعت أمي الفتاة من بين الأنقاض متحسسة جبينها الأصفر. لم تضمها إلى صدرها، أمي الآن حاضر وقح.

مساحات العيد عند خد الفتاة شظية، وخلف رأسها مساحة خلاء.

عينا أمي مساحة زجاج وثمة من يطبل في الجهة الأخرى من المنزل. مر الإله من هنا، وعمل بصاحبة الطبشور تنكيلاً، فكرت أمي.

أمي لا تحب الإله.

خيط أزرق يسيل. إنه خيط أعمى. هو خيط غبي. قدم الفتاة في جهة أخرى والخيط لا يعلم.

لم تبكِ أمي الخيط، لم تنتحبه.

يا لهذا الوجه الجميل.

لعاب الفتاة الأحمر ضرج الدراق بلونه، فالطبل كسّر البراد أيضاً وكسر الكنبة وإطارات الصور وكسر المروحة الكهربائية.

صحراء أمي تتسع. الطبل يفزع الصحراء.

... أما الأزرق، فهو الآن في طور العمى الأخير. يتمايل الأزرق مع بعض الهواء. القدم اليمنى ليست هنا منذ سنوات عجاف.

جاريتُ صاحبة الطبشور أنا الميت بدوري.

انتزعت من رأسي بعضه وجعلت بعض أزرقي يعاني فقدان الأرجل. نعم، أرى إلى نفسي وقد بُترت رجلاي فأقرف من صوت العدم.

أحاول سحب الخيوط من وجه أمي... خيوطها واهية.

أمي حزينة.

العدم، هذا البتر الذي لا يليق بأزرق، اجتاحني. لف الفتاة بصنوه، لفها بنفسه وبصق.

كانت الطائرات تحيك خيوطها في السماء وثمة من يصفق في آخر السماء فرحاً. إنه حلف الطائرات المقدس مع غمرة السماء الشاسعة، وصحراء أمي آخذة بالاتساع.

لن أجاري الهواء صفيره، فأنا ميت وكذلك الفتاة. انهار الجدار فوقنا وانقشعت المسافة زقاقاً متفحماً.

إن المسافة بين الحياة والموت زقاق متفحم.

تشوشتُ أنا الميت، فعين الفتاة مقتلعة وكذلك أمي. لم أركض، لم أمش الهوينا. أنفاسي اسطبل بلا جياد. حاولت أمي بث الأنفاس في رأس الفتاة حيث الشعر المدوي. فشلت أمي. فأمي لا تدري أن الشعر المدوي موت**!!**

انحدرت الطائرات نزولاً، رمت ما بجوفها من صوت غبي ورحلت.

متُّ مرة أخرى، الفتاة أيضاً ماتت لتوها من جديد. ركضت أمي فوق أنقاض البيت تجرجر صحراء فمها الفاغر والوقت الآن بقعة موت. ثقب أحمر لف معصم فتاة الطبشور. ثقب لا يشبه السرة، إنه السرة.

امتد الحبل يشد الطائرة بحزم صوب معصم الفتاة، وصوب خدها ورأسها المخلوع.

احتارت العمل. أمي هي التي احتارت العمل، ورجلاي المبتورتان أرخبيل موزع فوق محيط لا ينتهي من النمل الأسود.

أنا جائع والفتاة أيضاً. أين منا القرنفل والعنب**؟!**

وضعت أمي الفتاة فوق فراش زهري ووزعت القرنفل حول الجثث، والعنب.

لم يأبه الصوت بالقرنفل، عاد الصوت من جديد.

مضغ الصوت غباءه مع لعاب الليل ومعصم الفتاة الأحمر وحبات العنب.

تدحرجنا من فوق الفراش نحن الميتان مراراً وتساءلنا: "أين أمي؟"

أمي وقود الطائرات الحربية... وقود الصوت الغبي."

معلمة التاريخ، تلك التي صفعت الأخير العام الفائت هي من كانت تقرأ. تلعثمت مع العبارات الأخيرة وصار صوتها يرتجف وتوقفت عن القراءة معتذرة من الحضور الكريم. شربت بعض الماء من كوب صغير ثم أكملت وقد مررت سبابتها تحت عينيها الاثنتين لتنهي القراءة بـ: "أنا وأمي وفتاة صغيرة وقود الطائرات الحربية."

صفق كل من في القاعة، حتى الكاتب الجميل صديق الأخير جعل يصفق في مكانه حيث كان منزوياً في أحد أركان الغرفة. بدت علامات الفرح والحبور على وجه الأخير واضحة، بينما الكلب في الخارج كان لا يزال يصيح كالديك فوق مزبلة من علب السردين والكرتون والفوط الصحية.

كانت قد مرت شهور على انتهاء حرب تموز لما توجه الأستاذ هايل مدير مدرسة المعارف إلى المنصة، فهنأ الفائزين بجائزة القصة القصيرة، ثم دعا الأخير باعتباره الفائز بالجائزة الأولى كي يلقي كلمته، ممنياً هذا الأستاذ النفس أن لا تعود الحرب كما قال، إلى بلادنا.

لم ينظر إلى أي من الحضور، حتى إلى أهله باستثناء نظرة توجه بها إلى الكاتب خلسة. ربما المطر هو من ساعد الأخير، فألهمه بعض الجرأة أمام هذا الحشد من الأساتذة وأهل الطلاب وبعض الضيوف الآخرين. فالمطر، وكما رأى إليه الأخير عبر نافذة صغيرة كانت قبالته، كان قد عاود الهطول بغزارة، وصوت الرعد حوّل القاعة في وعي الأخير إلى مساحة اطمئنان، ليتوجه الصبي إلى الحضور بالتالي:

حزن أشياء لا أعرفها مزروع في داخلي.

موت آخر أبداً أحسه يثقل قلبي بالعشب والمرج.

الليل يئز عالياً مع حشرات حول النار،

وأنا سرّحتُ الجسد وقد تآكل بفعل الدود.

لم ينظر الأخير إلى وجوه الناس أمامه. باغته المطر بأن توقف فجأة عن فعل الهطول، ما حدا بالولد لأن يقع في لجة من الخجل الشديد. عبّق الأخير وصار وجهه أحمر، وجعل يتأتئ كمن في فمه حصى أو تراب. لا بدّ من استكمال القراءة وشكر الحضور ومانحيه الجائزة. إنما، المطر توقف، فمن أين له التخلص من هذه الورطة اللولبية، وقد لمح في هذه اللحظات صاحبة التاريخ تنظر إليه بتعجب واستغراب؟

كان الجميع ينتظر الأخير استكمال إلقاء كلمته، لكن الأخير صامت والناس أمامه ينظرون إليه منتظرين. شرد للحظات مع قطرات الماء المتدحرجة فوق زجاج النافذة. طال شروده، فإذا بأمه تنادي من بين الحضور: "ماذا دهاك يا الأخير، لم أنت صامت كالحجر؟!"

عاد الأخير إلى صوابه، اعتذر من الناس بعبارات مهلهلة، ثم توجه إلى الكاتب من فوق المنصة يسأله إذا ما سبق له أن سمع كلباً يصيح كالديك. أما المطر في الخارج، فيتمتم مع الأخير هامساً:

ما المسألة يا راعي الهواء؟

أتستدعي الموتى؟!

لينهي الولد خطابه بـ "... الحزن تفشيه الكلاب وهي تنبح في الحدائق"، يقرأها بسرعة ليهرول على المنصة راجعاً إلى مقعده بين الحضور.

28

كان دوستويفسكي ما زال ماكثاً عند حافة النافذة الجرداء يمط شفته السفلى إلى الأمام بتعجب، وينظر إلى الخارج بازدراء. أما جان بول المسكين، فكان مرمياً في إحدى زوايا الغرفة بعد طول تمسيد فوق جثته الحزينة.

أنا أعرف أن هناك من الناس من استبد به الفضول ويريد أن يعرف من يكون ذلك الغامض صاحب الظل التعيس كما أسماه دوستويفسكي في يوم من الأيام. نعم، ثمة من يفضل، وقد أنهكته الحشرية القاتلة، أن يطلع في هذه اللحظات على كنه ذلك الغامض الذي ما فتئ يتأتئ وينتحب منذ بداية الكتاب. هناك من القراء من هو مستعد لأن تقدَّم إليه أشياء الكتاب على طبق من ذهب، فلا يتحمل عناء عويل صاحب الظل التعيس مثلاً، ولا يتحمل تكرار موت القطط وأسباب هذا الموت. أنا أعرف كل هذا. إنما ما لا يعرفه الناس عني هو أني أنا أيضاً مجتاح بهذا الفضول، بل أن كابوس الاطلاع على حقيقة صاحب الظل ما انفك يؤرقني فأفاوض البيت، وأفاوض الفراغات في هذا البيت، حتى إني فاوضتُ دوستويفسكي بالذات كي يعلمني من يكون صاحب الصوت، إنما بلا طائل. ها أنا ذا أحك دماغي، أنا الكاتب الجميل كما يسميني صديقي الأخير. نعم، ها أنا ذا أحك دماغي، لعل كلمة ما تردني من مكان ما أستطيع عبرها فهم من يكون صاحب الظل التعيس. لستُ بمسترخٍ فوق أريكة عريضة زرقاء أو أتنزه في حديقة غنّاء، بل أني أستغور نفسي داخل سراديب معتمة وفوق مساحات من الانعراجات والانعطافات والأدغال كي ألبي حشرية الناس حول ماهية صاحب الصوت، وكي ألبي حشريتي أيضاً وحشرية هذا الكتاب. كل شي جائز، كل شيء محل أخذ ورد، كل شيء...

ثمة من كان يطرق باب بيت الكاتب في هذه اللحظات.

لم يستغرب عدم وجود أي أحد أمام باب بيته، فهو، ومنذ شهور خلت، تعوّد هذا الطرق ثم لا يجد أحداً. بيد أن هناك ما هو جديد اليوم.

يوجد عند عتبة البيت مغلف صغير يحمله فلا يقرأ عليه شيئاً، لا مرسل ولا مرسل إليه، لا عنوان أو هاتف، لا شيء البتة باستثناء لون المغلف المائل إلى أصفر فاقع. فضّ الكاتب الرسالة... إنها رسالة من لا أحد. سيف مطعوج مرسوم بقلم رصاص وبضع كلمات ذات طابع ترويعي لها علاقة بما ينتاب العالم اليوم مما يسمى في العادة بصدام الحضارات وأشياء من هذا القبيل.

عبارات تتعلق بالإلحاد وسفاسف كلام. لا يخطر على بال الكاتب الآن إلا الأخير. من كان ليظن أن يعمد هذا الشقي إلى قراءة قصيدة لكواسيمودو في حفل تلقيه جائزة القصة القصيرة، فكّر الكاتب.

إن هذا الولد منخور بداء الشعر، بل لعله يكون الشاعر الأول في يوم من الأيام، كما كلم الكاتب نفسه. الأخير هو الشاعر الأول!! أعتقد أن بعض الناس، وهو ما كان يجول في رأس الكاتب، سيعجب بهذه العبارة كثيراً، وبعضهم لن يوليها اهتماماً. الأخير هو الشاعر الأول.

ها هو الطرق على باب البيت يتجدد، فينظر عبر النافذة إلى باب بيته ولا يرى أحداً. لا بشر، لا رسائل، ولا حتى قطط. لعلها الأشباح أو مجرد أضغاث أحلام؟ لكن المغلف ما زال بين يديه. إنها أشباح، هي أشباح لا ريب في ذلك. يعود فيتذكر الأخير. لست أدري لم تعاند صورة الأخير ذاكرتي، همس الكاتب في أذن نفسه، فصورته وهو يقرأ كواسيمودو فوق المنصة لم تبارح خياله منذ عودته إلى البيت. فأن ينال الجائزة الأولى هو أهل لها، إنما أن يقرأ كواسيمودو مدعياً أن هذه الأشعار من تأليفه هو فهذا ما لم يفهمه الكاتب في تصرف هذا الشقي الصغير. ليته الآن يكون هنا، قال الكاتب، فأسأله أسباب هذا التصرف. ليته هنا، إن حضور الأخير جميل.

عاد إلى الرسالة... أين هي؟ أين الرسالة؟؟ حسناً، ها هي، إنها تحت "الجريمة والعقاب". يعود فيتأمل السيف المطعوج ويقرأ الكلمات البلهاء. تباً لهم ولرسائلهم، يطوي الرسالة ويضعها في بطن "الممسوسون".

29

لا يوحي شكل هذ الهر بأي فوضى، كما لا يوحي بأي انضباط. لا يوحي بالرزانة، كما أنه لا يمت إلى قلة الأخلاق بصلة. إنه بكل بساطة هر وديع، هر هادئ. إنه عادي على وجه الإجمال.

حوّل دوستويفسكي نظرته إلى الداخل مع صوت الزيزقة الناتج من أحد الأبواب وقد اصطدم به هذا الهر الوديع. لم ينقل خطاه، لم يأت بنأمة حركة. ظل جامداً عند حافة النافذة مولياً ظهره للخارج يحدق في الوديع. لم يبالِ الوديع، وهو أقرب إلى اللون الأصفر، بهذا الذي كان يحدق فيه بملل واستهتار. سار بخفة القطط العادية قاصداً علبة سردين صدئة موضوعة بعناية في إحدى زوايا الغرفة.

الغريب في الأمر أن هذا القط كان دائم السعال وهو لم يتحرج من الاقتراب من دوستويفسكي، بل إنه بال فوق نعلي الروائي الروسي ثم همّ بالانصراف. فرط دوستويفسكي بالضحك، وكأني به قد استلطف هذا الأصفر الوديع. فرط بالضحك وقد جعل ينفض إحدى قدميه ليضعها فوق الأرض نافضاً الأخرى وهكذا دواليك. يا لك من قط لذيذ، قال دوستويفسكي والبول يقطر من نعليه.

لم يطل غياب الوديع كثيراً، ما هي إلا لحظات وعاد، وكان لا يزال يسعل. فكر دوستويفسكي أن لا يشمل هذا القط بعطفه فيتركه حياً، لكن...

غريب أمر هذا الهر. إنه بمنتهى البراءة، فهو لا يني يجاور دوستويفسكي ويموء مواءً خفيفاً ومتقطعاً عند أقدام الروائي العجوز. لا يتكلم هذا الهر الروسية، لكن مواءه، وهو ألماني النبرة والحزم، كان يعني من ضمن ما يعنيه أن الجميع قد حاولوا تفسير العالم، إنما المطلوب هو تغييره وما شابه من مواء. مع هذا المواء الثوري، تحول استلطاف دوستويفسكي للهر إلى ما لا يمكن أن يعبَّر عنه إلا بعبارتي الاشمئزاز والاشمئطاط. اشمأط دوستويفسكي من هذا المواء الغوغائي وتحولت غرغرات الهر في أذنيه إلى حناجر تنطق بسخافات تخالطها طرطقات المناجل والمطارق.

كلم دوستويفسكي الهر بالقول: لمَ لا تحافظ على هيئتك البريئة فيتعزز الطفل الموجود فيك؟! لم يستجب الأصفر الوديع إلى نصيحة دوستويفسكي، وجعل يقطع سعاله بمواء يهين فيه دوستويفسكي ويعيّره بالأبله وبالأخرق وبالمعتوه وبما يعادلها من مفردات.

حتى هذه اللحظات، لم يكن الصوت اللغز قد نبس ببنت شفة، وهذا ما حيّر الروسي العجوز وأودى به إلى جملة من التساؤلات. ما بال هذا الصوت لم يتدخل حتى الآن؟ هل أستفزه بأن أركل هذا الهر أو أصفعه صفعة ميتافيزيقية؟ لعله لم ينتبه بعد إلى حضور هذا الأصفر الثوري؟ هل من المعقول أن يكون قد غادر البيت؟!

أكثر من ألف سؤال نطّوا في رأس دوستويفسكي دفعة واحدة، بينما هذا الأصفر الوديع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويذرعها سعالاً وثوريات.

فكر دوستويفسكي لم لا يأخذ المبادرة بنفسه وينادي صاحب الصوت التعيس؟ بيد أن هذه الفكرة سرعان ما تلاشت من رأس العجوز الخائر، إذ "من غير الممكن أن أقبل..." ولم يزد كلمة واحدة. كان الوديع في هذه الأثناء يموء متكلماً على مسؤولية المثقف وإلى آخره من الطرطشات المادية، وهو ما استفز دوستويفسكي إلى أقصى الحدود، ثم ازداد هذا الاستفزاز أكثر مع المواء الذي ذكر فيه هذا القط الغبي المهمة الإلهية للاستياء!!!

نعم، صار هذا القط غبياً في العرف الدوستويفسكي المتين. إنك هر غبي، كلمه مواء، ليرد الهر على دوستويفسكي: إنك أنت الأبله... مجرد إنسان أبله.

لم يلتفت دوستويفسكي إلى هذه الإهانة الصفراء، إذ حتى هذه اللحظات كان الهر في عيني دوستويفسكي ما زال وديعاً. حتى هذه اللحظات كان من الممكن مصالحة هذا الأصفر مع طفولته البريئة كما أمل دوستويفسكي بفرح. فشلت محاولات دوستويفسكي في جعل الوديع طفلاً، إذ، ومع أول ملامح للولدنة بدت على محيا بريخت، تدخل الصوت التعيس قائلاً: "لا ترد على العجوز يا صديقي العزيز".

انتفض دوستويفسكي كمن استفاق من كبوة ماسحاً ذقنه بإحدى كفيه متلفتاً ينظر بانتباه شديد كمن يتحرى التقاط هذا الصوت بعينيه.

"لا تصغ إليه يا بريخت. إن دوستويفسكي عجوز خرف." ثم وقد احتل الصوت المكان عن بكرة أبيه "لا تقترب منه، سوف يؤذيك. إنه قاتل، سوف يقتلك."

استجاب بريخت- وهو اسم الأصفر الوديع- إلى نداء الصوت، فجعل يعدو مسرعاً ناح الجهة الأخرى من الغرفة مبتعداً في ذلك أقصى مسافة عن دوستويفسكي الصامت. ساد الصمت المكان إلا من سعال بريخت الذي كان يقطع هذا الصمت بنوبات سعاله المتقطعة تارة والمتصلة تارات وتارات.

"لم لا تترك الأولاد يلعبون؟" قطع دوستويفسكي مساحة الصمت الممتزجة بسعال بريخت بهذا السؤال. "إن الأولاد أيضاً أبطال. إنهم الأبطال الحقيقيون". لم يستجب الصوت الأسود لعبارات دوستويفسكي إلا بـ" سحقاً لك" قالها كمن تملكه غضب جارف.

حاول دوستويفسكي استمالة بريخت، بيد أن الصوت اللجوج تدخل مانعاً بريخت من مجرد التفكير في الاقتراب من دوستويفسكي. حار الروائي العجوز العمل، فالمشهد برمته أقرب إلى أن يكون ساحة قتال، و دوستويفسكي ليس بالجندي الشاطر. لا يجيد العسكر، إنه جندي فاشل.

تخيل العجوز المشهد متاريس مرصوصة فوق بعضها البعض، وبنادق متواجهة وثمة خنادق وأوامر صارمة، وهو ما لا يجيده عجوزنا الحائر.

"الولدنة نقيض الإرهاب. إنها عالم اللحظة. همها رهن الآن. لمَ تكره الولدنة؟" لم يستطع دوستويفسكي فهم ما همس به الصوت في أذن بريخت، فإذا بهذا الأخير يتحول إلى خطيب منبري فيخالط مواءه سعاله، ويخالط تقوّس ظهره جحوظ عينيه مكرراً في كل لحظة كلمة العدم متوجهاً بها إلى دوستويفسكي الحزين.

لم يهتم دوستويفسكي بفجاجة هذا المواء الخطابي، فهو يدرك جهل بريخت وقلة خبرته في أمور العدم والتفاؤل. لم يعتب على الهر الأصفر الوديع، لم يجرحه بكلمة نابية، لم يؤنبه، وكان طوال

الوقت مبتسماً وقد اغرورقت عيناه بالدموع. صار يهز رأسه ويمط شفته السفلى إلى الأمام، ويبلع ريقه ويفرك عينيه بسبابتيه المطعوجتين. لم ينزعج دوستويفسكي من بريخت، لم ينقهر منه. لم يقرر أن يجافيه. إنه هر وديع، وهو بحاجة إلى كوب ساخن، فسعاله يومئ إلى صدره المريض.

واظب بريخت على ما أُمِر به من مواء مهلهل، وكلمة العدم لا تني تتكرر بين كل مواء ومواء. كان يموء بحماس شديد وقد استبدت به رغبة خارقة في المواء. الصوت الخسيس ما فتئ يهمس في أذن بريخت وكأني به يحرضه، وكان في هذا التحريض مقنعاً بشكل غريب. إن الأمر واضح، فبريخت لم يلذ بالصمت منذ أول همس في أذنه الخرقاء.

حاول دوستويفسكي تهدئة الوديع مكلماً إياه أن يخفف قليلاً من غلواء موائه، فهو صار بغاية التعب. لم يتجاوب الوديع مع تهدئة دوستويفسكي له، بل عدّ هذه المحاولة وقاحة من هذا العجوز الخرف كما قال مزامناً هذا القول مع خلجة ضحك أتى بها الصوت التعيس.

غريب أمر هؤلاء الأولاد، قال دوستويفسكي الذي كان يسير ببطء في بعض أرجاء الغرفة.

دج... دج... دج....

"من يطرق بابي الآن؟" قام الكاتب، وقد وصل بدوستويفسكي أن يعاود السير في بعض الغرفة، قام ليرى من يقرع باب البيت. لم يكن من أحد في الخارج إلا سيف من المعدن الرخيص، وقد سالت فوقه الدماء.

كان السيف مرمياً فوق العتبة وثمة ورقة بقربه مطوية عدة طيات. حمل السيف، وكان الدم فوقه قد صار متخثراً، واحتار ماذا يفعل به. لا بد من شيله من هذا المكان "فلأرمي به في سلة المهملات".

لم يكن ما كُتب في الرسالة بالأمر الجديد. عبارات مهلهلة، كلمات لا معنى لها، حتى أن بعض الكلمات كانت عرضة للأخطاء الإملائية. لم يقرأ مما كُتب في الرسالة إلا كلمة ضلال التي تحولت في هذه الرسالة إلى ظلال، وهو ما أثار في نفسه الاستغراب وما يشبه المرح. فالكاتب حسب هؤلاء الناس على ظلال كثير!

طوى الورقة، ثم وضعها في بطن "الأخوة كارامازوف"، ولم يحفل بما تزخر به من ظلال كثير. عاد إلى دوستويفسكي الذي تركه منذ لحظات وقد عاود السير في بعض الغرفة، غرفة مواء بريخت وخطابه السعالي.

صار دوستويفسكي على مقربة من بريخت وكاد أن يطاله بقبضته لما صرخ به الصوت أن يهرب بسرعة. أمره أن يركض بعيداً، أن يحرص على أن لا يقع في قبضة هذا العجوز السفاح كما قال. لن تنال منه مأرباً، لن تنال من بريخت. كلم الصوت دوستويفسكي قائلاً نهايتك باتت قريبة يا أيها العجوز الهرم، ولن تنال بعد اليوم من أي من هؤلاء (لم يذكر من هم هؤلاء) مهما حاولت.

لم يستشط دوستويفسكي غضباً، ولم يستعجل الرد على الصوت التعيس. لصق كفيه ببعضهما البعض، ووضع خنصريه تحت ذقنه وجعل يفكر بإمعان. طوال الوقت لم يتوقف بريخت عن المواء والسعال والجري والقفز، وفي بعض الأحيان عن بصق الدماء. عاود الصوت الضحك وكأني به يسخر من دوستويفسكي العاجز الذي لا حول له ولا قوة.

لا أحد يدري ماذا كان يدور في رأس صاحب رواية الممسوسون في هذه الأثناء. فدوستويفسكي في هذه الأثناء كان كتلة جماد مستقرة فوق بركان من الأفكار. حاولتُ الظن والتخمين وإعمال الرأي حول ما يدور في ذهن دوستويفسكي. جربتُ اختراق هذا الذهن ومجاورة جولاته، لكني فشلت. إن استقصاء رأس دوستويفسكي أمر مستحيل علي الآن، فأنا الآن مشتت بين الصوت الذي اتخذ صورة المنتصر من جهة وبريخت الخطابي من جهة أخرى، ثم إني مشتت أكثر بين السيف المضرج بالدماء على باب بيتي وتلك الرسائل الخرقاء. فمن أين لي ببعض دوستويفسكي أنا الكاتب المسكين؟

إن دوستويفسكي أمر خطير،أكمل الكاتب، إنه خطير. وها هو يحل يديه ليرخيهما عند جانبي قامته كأنه جثة منتصبة.

أولم يحن لك أن تتعب بعد؟ أولم يأخذ الإرهاق منك مأخذاً؟ كلم دوستويفسكي بريخت الذي صار مواؤه في هذه اللحظات لا يتعدى أن يكون أحٌّ وبحٌّ وبالكاد سعال. استبدت بدوستويفسكي الشفقة على هذا الهر الأصفر الثوري الحزين، وكلم الصوت كي يهدئ من روع بريخت. لم يجار الصوت دوستويفسكي، لكنه صفق، وهي المرة الأولى التي يصفق شاداً بذلك من أزر بريخت.

اعتدل دوستويفسكي في وقفته، فهو كان منحنياً بعض الشيء، وعاد إلى خطاب الأولاد:

لم لا تترك الأولاد في حال سبيلهم يا أيها الصوت التعيس. إن الأولاد فسحة. إنهم مساحة العالم الحقيقية. إن الأولاد أذكى منك، إنهم أدرى بالعالم منك. الأولاد يحبون المطر، فلا يلوثونه. لا يوجد عندهم موت. أمهات الأولاد عيون العالم وحركاته. إنهم يحبون أمهاتهم. لم تتدخل في كل شأن وتجعل الأولاد ينشغلون فيما كانوا منه على غفلة؟ من قال لك إن الأولاد يأبهون بالمستقبل البعيد؟ لِمَ تعمد على الدوم إلى اختزال عوالم الأولاد إلى معادلات جافة لا تمت إلى واقعهم بصلة؟ لِمَ لا تعترف أن الأولاد هم شعراء العالم الحقيقيين؟ من أخبركَ أن العالم ليس شعراً؟ من قال لك أن الشجرة لا تتثاءب وأن البحر لا يبكي؟ من ألهمك أن القمر هو مجرد صخرة صماء؟ لعلك أنت الأصم يا أيها الصوت التعيس. لربما أنت واحة الضجر فتحاول سحب الآخرين إلى هذا الضجر المقيت. هل ثمة من أخبرك أنك لست سوى سأم؟ هل ثمة من قال لك في يوم من الأيام أنك لقيط لم ترضع من أي ثدي؟ هل أعلموك أنه لم يكن لك أب في يوم من الأيام... لم تُقذف من أي قضيب؟

إنك مقهور إنك غاضب. لم تجرب في دهرك رطوبة رحم، لم تجرب منذ أول أمرك حرارة بطن أمك أو ظهر أبيك.

أنت لا شيء يا أيها الصوت الذليل. إنك عاهة الناس وقضم الأولاد الصغار. أرجوك، وهي المرة الوحيدة التي سوف أرجوك فيها، أرجوك جرب للحظة أن تكون ولداً، مجرد ولد. تأمل الشتاء من مكان آخر. قل للبقرة ولو لمرة في حياتك أنتِ أمي. لا تخش أن يقال عنك أنك أبله. لا تخف أن تكون أخرقاً. عذب الآخرين برعونتك، وابتدر حاجاتك بأن يكون... ماذا أقول... ماذا أقول، بأن يكون الزعرور حاجتك الأولى على سبيل المثال.

هه! هل لك أن ترد علي يا صوت التعاسة الممل؟ ما بك، لم أنت صامت هكذا؟ هل آذيتُ شعورك، هل عليّ أن أعتذر؟ حسناً، أنا أعتذر ولا أبالي. هيا تكلم، لم لا تتكلم؟ مم تخشى وأنت سيد الخشية والترقب والملاحظة والكمائن والانتظار؟ أنا دوستويفسكي... أنا الروائي الروسي العجوز لا أهابك، لا أخاف سطوة مداك، بل أبصق في وجهك. هيا واجهني، كلمني، أخبرني عن مشاريعك

المستقبلية أنت يا صاحب الانشغال الدائم بمحض المستقبل وكأن الحاضر في صوتك مجرد هباء. تجرأ مرة وكن حاضراً. اركن للحظة في صيغة الحاضر. لم تخاف الحضور ولا تثق إلا بالغياب؟ لِمَ أنت مضطر هكذا أن تفرشخ فوق الحاضر فاسخاً قدميك بين الماضي والمستقبل البعيد؟

الأولاد لا ماض لهم ولا مستقبل. إنهم محض الآن. كن ولداً لمرة واحدة، كن ولداً يا صديقي. هل تتجرأ أن أدعوك صديقي؟ إني على ثقة أنك الآن في لجة عميقة من الاضطراب الشديد لأني أسميك صديقي. أحسبك الآن ترتجف ارتجافاً وتتقلص فوق ذاتك الرخوة، وترغي الزبد من فمك وتتقيأ يا صديقي يا صديقي يا صديقي. لا تخف لا تفزع، لا تتهيب الأولاد الصغار، فتزرع في رؤوسهم لست أدري ماذا، ويتحولون إلى لست أدري ماذا. انظر إلى بريخت الوديع. إنه هر وديع. هو أصفر جميل. لم لا تتركه يغرغر قرب موقد حطب داخل منزل دافئ ويموء مواءً خفيفاً بلا تطبيل ولا تزمير؟

هل من الضروري أن يصاب بهذه النوبة من السعال المتدفق فلا يعود يميز بين سعاله وموائه، وبين لعابه وما يقطر من فمه من دم متخثر؟ هه! ما بك لا تكلمني؟ لم لا ترد عليّ بحرف؟ اضحك عليّ، أخبرني بأني عجوز خرف. لا بأس، انطق بما يحلو لك. تكلم، واجهني، لا تركن إلى لجة تعاستك فتغمض عينيك وتجعل نفسك منذوراً للمستقبل البعيد.

هيا، هيا، مرحباً بك هنا الآن في وقتي الحاضر. اقذفني بالشتائم، قلل من قيمتي، سمني منارة منطفئة، فقط تجاوب معي. لا تسرق الأولاد، لا تعبث مع القطط. لم لا تأكل وتشبع؟ هل من الضروري أن تخزن بعض المؤونة إلى الغد؟ من قال لك أصلاً أن الغد سوف يجيء؟ لا تعبث مع القطط، لا تدجنها يا أيها الصوت التعيس.

لِمَ تعشق تدجين القطط؟ لعلك إله القطط ونحن لسنا على علم بذلك؟ هل أنت إله القطط؟ لست أنت إله القطط... ليس للقطط إله. إله القطط لم يوجد بعد، ولن يوجد في أي يوم. إله القطط طعامها، هي تأكل إلهها كل يوم، ولا تقع فيما يسمى في عرفك بتأنيب الضمير. ليس للقطط ضمير، فالقطط ببساطة لا تذنب. لا تقترف القطط الذنوب. بالمناسبة، لم لا تكون قطاً؟ جرب أن تكون قطاً. هلا تخيلت نفسك قطاً في يوم من الأيام؟ مياو... مياو... قط صغير، قط كبير، قط في مقتبل العمر، لا يهم! جرب أن تكون قطاً لربما تخجل من نفسك، وتقضم أظافرك وتحاول عض كوعيك ندامة. يومها، قد تعتذر مني، وتقترب مني وتصافحني وتقول لي أنت يا دوستويفسكي عظيم. كن قطاً، وأنا أعلم أنك عندها سوف تعوم فوق بحر من الهدوء الرقراق.

مياو... مياو... هيا مارس المواء معي. لا تخجل، لا يوجد أحد هنا إلا نحن وبريخت. هيا، دعنا نموء، فلنموء معاً ولنركض خلف أذنابنا الجميلة من الصبح حتى المساء.

ما لك لا ترد عليّ؟ هل ثمة من قطع لسانك ورمى به للفئران؟ هل ثمة من أطبق عليك بوابل من الورق اللاصق وضعها حول فمك بإحكام؟ ماذا دهاك، لم أنت...

لم يتأتَ لدوستويفسكي أن ينهي كلامه. إذ، وفي غمرة تدفق دوستويفسكي بالكلام، اهتزت إحدى الثريات المعلقة في سماء البيت، فجعلت تلوح إلى اليمين وإلى اليسار لتسقط محدثة جلبة كبيرة... وثمة الآن تمتمة ونحيب خفيضان لا يكادان يُسمعان انتهيا بشهقة قوية زاحمت صوت تحطم الثريا فوق الأرض. أما بريخت، بريخت الوديع، فكان ممدداً على أحد جانبيه مغمضاً عينيه عن العالم

المحيط به وقد فاض فمه بالدم الأحمر، وزبد أبيض وأصفر، ولم يكن ينطق في هذه اللحظات بأي مواء، بأي خطاب. إن الهر الوديع قد صار إلى موت أكيد.

30

يخيّل إليّ أنهم يسمّرون بعجلة ضخمة نعشاً في مكان ما.

لمن؟

كان الصيف هنا البارحة، وهذا الخريف!

وهذه الضوضاء العجيبة ترنّ مثل الرحيل.

"عن فاطمة الخضراء".

لم يبد الأخير إلا اهتماماً ضئيلاً بما كان يعتمل في صدر الكاتب من فرح وحبور. إنه كتابه الأول يقلبه بين يديه سعيداً، وقد وافقت إحدى الدور على نشره بالرغم من احتوائه على الكثير من... إلى آخره.

كان الكاتب يتكلم بصوت مرتفع أن غلاف الكتاب رائع، وأن منظره أنيق. كان يتكلم مع الأخير الذي كان غارقاً بين دفتي كتاب آخر لم يسبق أن رآه في مكتبة الكاتب الجميل.

... ويأتي جمهور أخرس من العناكب الدنيئة

يمد شباكه في أعماق دماغي

أما الكاتب، فيصيح بحماس طالباً من الأخير الإصغاء: دخلت الفاطمة إلى غرفتها وقد ألقت على أمها السلام، وزمن الماء كان قد جفّ منذ قرون خلت. زمن الماء كان قد تقيأ آخر نقاطه عندما وضعت الفتاة كتب الجنة على طاولة خشبية صغيرة لعلها تُقرأ فيما بعد. أشعلت سيجارة مارلبورو لايت، وتبنت الأرق وقد مارسها هذا الأرق بلؤم على شرفة الغرفة وعلى شرفة الكون.

ولكن بين الذئاب والفهود والوحوش

والقرود والعقارب والنسور والأفاعي

والأبالسة النابحة المزمجرة المهمهمة الزاحفة

... ثمة ما هو أقبح وأشر وأدنس

إنه الضجر!!

حط الضجر بكله في رأس الفتاة وقلبها ضارباً بعرض الحائط أي إمكان لأخلاق العيش. استنفر قطرات الثقل فيه، واسترشد أقنية العالم الجافة. نزع عن وجهه القناع وأوصد اليوم بأقفال عتيقة مصنوعة في وادي الجحيم. هو الضجر، صار بكله في قلب الفتاة وعقلها، فإذا بها نتوء مرٌّ في حقل الإحساس المنبسط. هو أسود صيّر المساحات سوداء بلونه، خلّع الاسترسال المترقرق جدولاً. وثمة جفاف، ثمة شقوق في أرض اليباب. اللاماء، القحط، البيت المسكون بالأشباح هو الضجر، قالت الفاطمة.

هاجمها بغتة، لم يترصدها فتتجنبه، لم يراقبها فتنزلق من تحته، لم يكمن لها فتغير بعض الطريق. فاجأها الضجر على حين غرة، عزا لنفسه حق الكون، تمرس حضوراً جشعاً، مستفرداً بلحمها وشعرها وقلبها وأنامل لطالما جعلت من الكلمات لوناً.

إنه الضجر! يحلم بالمشانق وهو يدخن غليونه.

الضجر! هذا الشيطان الرقيق.

حدثني الولد صاحب الدراجة عن الوسادة قال: حدثتني الوسادة عن الفاطمة قالت: قالت الفاطمة: الجنة مأواي، هي لي حاجة وأنا فيها أرغب وليس لي من دونها مجال. الجنة مكاني، وهي حجة قولي وفعلي وحجة قيامي وقعودي وحجة هذه الصفحة وما سيليها من صفحات.

الشتاء كله سيدخل كينونتي...

ومثل الشمس في جحيمها القطبي

لن يكون قلبي أكثر من كتلة حمراء

كان الكاتب يصيح أن روايته رائعة، ويهزأ ممن حذروه في دار النشر من أن الرواية تحوي الكثير من إلى آخره... ليعود ويقرأ بصوت مرتفع: ابنتي مجنونة!! ما كفت أم الفاطمة، تلك التي تصنع القهوة بامتياز، عن ترداد هذه الجملة وهي تقوم بتنظيف اللوحة بعصا الريش.

ابنتي مجنونة!! ورذاذ الغبار يتطاير بخفة عن الوجه الأخضر وعن الإطار. ابنتي مجنونة، والوجه أرعد الأم والريش والعصا الخشبية وكل شيء.

أما الأخير، فكان بين دفتي الكتاب ساهياً عن صديقه الكاتب يقرأ بعينيه الجامدتين: إن القبر ينتظر... إنه جشع. بينما الكاتب مسترخ فوق كنبته الزرقاء يقرأ في "عن فاطمة الخضراء": رحتُ أقلّب فيافي الصحراء متأملاً رموز الجثث فوقها. لم تكن الجثث جثثاً على الإطلاق. فلا الأشلاء البشرية كانت محض أشلاء، ولا الأجساد المحترقة محض أجساد احتراق. تعين آخر للجسد شاهدته، وهو تعين يواري بقحة فكرة الإنسان. لم يكن الإنسان موجوداً فوق هذه الرمال السمراء حتى كجثة.

إني وحيد،

دون أصدقاء دون عشيقة دون كلب ودون قط.

لمن أشكو أمري؟ ليس لي إلا صورة أبي

... صورة أبي الأخرس أبداً.

كان المعتصمون يعوون كالكلاب، أما الشرطيون فكانوا يصدرون أصواتاً تشبه الزمجرة والتهيؤ للافتراس. فتاة الرسم وما ساواها من كائنات جنسها شاركن في حفل الأصوات هذا، فإذا بمواء القطط يحتل فضاء الحريم أمام المقهى المقفل بإحكام. تشابكت الأصوات بعنف شديد، بلا لكمات أو صدام أو تعارك بالأيدي، إنما عواء ومواء وتهيؤ مؤجل للانقضاض. من قال إن الفنانات لا يحلمن بالثورة؟

إن للموتى المساكين

آلاماً عظيمة.

كان الفجر قد أخذ بالتشكل أسطحاً ممتدة وخزانات ماء وملابس معلقة على حبال الغسيل ولاقطات هوائية ودشات وآذان. أغلقت الفاطمة الكتاب وقد كررت السطر الأخير أكثر من ألف مرة ونامت.

سوف تكون لنا أسرّة تفوح منها روائح خفيفة

وأرائك عميقة مثل القبور.

... بينما الكاتب، وقد انتقل إلى الصفحة الأخيرة من روايته: بعد أيام، أزهر الياسمين أبيض ليُسكن الأرض زمناً آخر هو زمن الياسمين. هكذا- وكما دوّن رجل البلاغة في إحدى صحائفه السرية- أنهى سقراط الكتاب عن فاطمة الخضراء ومات.

أما الأخير:

ذات مساء مصنوع من اللون الزهري والأزرق

سوف نتبادل بريقاً وحيداً

مثل تنهيدة محمّلة بالابتسامات.

كتب المكان الفاطمة أشلاء ووعداً بالجنة أكيد. كتبها بسرعة البرق جسداً ممزقاً وقد مزق وجداناً لها وشعوراً. منعها المكان عن أن تتعهد وجودها بفرح، فساقها بأحرفه الكبيرة ونقاطه الملوثة بالإيمان، وساقها بجمله وخطه العريض. تعرض لها مراراً فتجنبته، سد لها المسالك فتحذلقت عليه. لكنه، وبإلحاح سمج، فاز بها قبلي والتهمها وجعل منها مروجة موت إلهي ومروجة استشهاد. الله أكبر... الله أكبر. يقال أنها تناثرت مثل زهر الياسمين.

المطر الناقم على المدينة

يصب من جرته العظيمة برداً قاتماً فوق سكان

المقبرة الكالحين.

... رافقتها في لونها وخطها، في حزنها ومرحها، في عقلها وجنونها، في شَعرها ولاشَعرها. وها أنا أرى إلى موتها العاري اليوم. يا فتاة الحزن والغصة العميقة، ويا بحة الصوت الحزين. بمَ سأرثيك ومن أين لي بالكلمات؟!

عندما تصير الأرض زنزانة رطبة

يصير الأمل كالخفاش، ضارباً الجدران بأجنحة خجولة

وناطحاً برأسه السقوف.

قرأتُ كثيراً، أكثر من مليار كتاب. تتبعتُ الصفحات والسطور والأحرف الجميلة، حتى غدوتُ أنا حرفاً. رأيت إلى نفسي تارة ألفاً وتارة كافاً وتارة ميماً وياء ولاماً، وكل الأحرف العربية. أحرف عليها نقاط وأخرى بلا نقاط. أحرف معقوفة وأخرى مستقيمة، أحرف متوحشة وبعضها أليفة. كل الأحرف صرتها وقد تمرستها بعد أن غابت الفتاة.

... وفي المزارب تتيه نفس شاعر عجوز

مع الصوت الكئيب لشبح بردان.

حمل الرجل جرحه ووقف، وحمل معه الطفل الصغير. نظرا إلى الفاطمة بإشفاق ولم ينبسا ببنت شفة. لما وصلا إلى الباب، همس الطفل في أذن الرجل وقال: " ماذا عن الدراجة الزرقاء وذلك السرير الخشبي؟

قطي الباحث عن مفرش على بلاط الغرفة

يهز دون هوادة جسده الناحل الجربان.

باستثناء شرطي طويل القامة يوحي شكله بالقلق والحيرة، ويحمل كتاباً عن الصين، لم يثر أي شيء انتباه الفاطمة في المخفر.

... وفيما بعد سيأتي ملاك يفتح الأبواب

ويبعث الحياة

في المرايا وفي النيران.

يا إلهي، إنه الموت أرى إليه بأم العين. إنها الفاطمة، إنه نصي يسير على شفا جرف. أي مقدار من الموت تريد نيله هذه الفتاة؟

كان الكاتب يكرر كل مقطع يقرأه مرتين أو أكثر، بينما الأخير، وقد صار إلى شحوب أصفر، يواظب مع بودلير متمتماً: حولي كان يعوي الشارع الذي يصم الآذان.

لم يستفز بودلير الأخير، لم يستعجل دمعه أو ضحكه. لم يأت على الولد بأصناف من الفزع أو الخوف. صار الأخير مع هذا الشاعر شاحباً. صار لونه أصفر بينما الكاتب يردد: وقفتُ بقامتي الطويلة جداً وبما أحوي من ضاد مهشم، وحاولت عدم الترنح بسبب هذه الاستفاقة المدعوكة بالذعر والنقزة التاريخية. استبسلتُ في أن أظل واقفاً وقلتُ لنفسي: هي الفاطمة أولاً، لأصعد إليها في الجنة، فربما كان في ذلك بعض تدبر لعالم الهُنا ولعالم الآن.

غمر بودلير الأخير بموجة من عدم الإنصات، من عدم السمع. صار الولد مسرحاً، صار شاشة تتراقص فوقها الأشباح. كان الكاتب لا يزال في طور الحبور يقرأ من كتابه بفرح فيما الأخير يقرّ مع بودلير بـ "الدعارة المقدسة للروح" و بـ "الخمول والكآبة" الناشئين عن البؤس والفوضى.

لم يتوقع الأخير أن يقابل بودلير في يوم من الأيام. ظنه بعيداً لا يمكن الوصول إليه أو حتى تلمس طريقه. لطالما باغت بودلير الأخير بمواجهات ضبابية لا ملامح لها، لكن الولد لم يفكر يوماً أن هذا الضباب سينقشع. من أين له أن يخمن أن بودلير هنا، أنه قريب إلى هذا الحد؟ أصلاً، هو لا يعرف من أمر بودلير شيئاً، لم يسبق له أن سمع بهذا الاسم وفجأة، ومن حيث لا يدري رأى إلى نفسه يردد:

أجراس تقفز فجأة بجنون وتطلق صوب السماء عواء،

كأنها أشباح تائهة، لا وطن لها تنخرط في نحيب عنيد.

لم تكن شفاه الكاتب المتنقلة ببطء فوق الظهر العاري للأخير تعبر عن أسى أي منهما. طلب الأخير الذي كان مستلقياً على بطنه من صديقه أن يهديه كتاب بودلير. كانت شفاه الكاتب تتنقل ببطء

وبأنفاس متهدجة فوق ظهر الأخير وباقي جسده. كان يقبل ظهر الولد بشغف، بينما هذا الأخير مسترسل بصمته الهائل يقطعه من حين إلى حين بصوته المبحوح قارئاً في كتاب بودلير:

كل شيء ينضح بالجريمة في هذا العالم

الحائط والجريدة ووجه الإنسان.

جرذ كبير يلتهم المكان والكلمات والأوقات... أما أنا، أنا غاضب ولغضبي ما يبرره اليوم. أأنطح السماء؟ أأضاجع البحر؟ أأسوي الجبال سهولاً والسهول جبالاً؟ أم أتمتع بالواقعية وأمتطي المسلة الرخامية المنتصبة عند المدخل الجنوبي لمدينة بيروت أمام السفارة الكويتية؟ كل الاحتمالات واردة وليكن الجنون سيد الموقف.

... بينما الأخير، وقد استفاق على همهمات الكاتب يقرأ من "عن فاطمة الخضراء"، عاد إلى بودلير للحظة: كل شيء صار بالنسبة إلي مجازاً، ثم ودع صديقه وغادر.

31

تباً لبودلير، فلأتركه للأخير، قال الكاتب مغمغماً. ثم، وقد تذكر السيف المطعوج في سلة المهملات، شرع يكتب أن ثمة هاتفاً كان يرن طيلة الوقت بوابل من الرنين لا ينتهي.

الهاتف، وهو خشبي في معظمه، كان يصيح في الأرجاء وكأنه ديك من ديكة السماء. بريخت الوديع، الذي مات منذ قليل على وقع موائه الخطابي، لم يكن قد ترك مكان موته لما جعل الهاتف يرن باستعلاء فوق بشري. كان الهر في مكانه ممدداً لا يأتي بحركة باستثناء الدم الذي كان لا يزال يخرج من فمه فيسيل فوق بعض الأرجاء... والهاتف ما زال يرن.

دوستويفسكي العجوز، وكان قد استفاق لتوه تعباً نتيجة نوبة صرع ألمت به بعد خطابه السالف، تمثّل الهاتف الخشبي ديكاً إلهياً لا يرحم سامعيه.

لم يباغت رنين الهاتف دوستويفسكي. فالرجل، ومع لحظات استفاقته الأولى، شعر بما يشبه الرنين يخترق سمعه، بل أنه شعر بهذا الرنين قبل أن يستفق بكثير... كان الأمر أشبه بالحلم. فكّر دوستويفسكي - وكان صائباً في هذا التفكير- أن هذه العلبة الخشبية المطعمّة بمساحات من النحاس الأصفر والشريط الأسود الحالك كانت ترنّ منذ وقت طويل. لم يهتم العجوز بهذا الأمر كثيراً، لكنه كان بحاجة ماسة إلى بعض النشاط للأخذ بأمر نفسه والذهاب صوب الهاتف العنيد.

ألم رأسه الفظيع والثقل فوق عينيه حالا دون توجهه الفوري والرد على صاحب الرنين. تمنى دوستويفسكي لو كان الهاتف كائناً بشرياً يأتي هو إليه، تمناه حيواناً صغيراً أو طائراً يرفرف ببوقه رامياً بنفسه بين يديه. لم تكن همة الروائي الروسي على ما يرام، فيُسكت الهاتف بأن يجيب سريعاً على رنينه الجهنمي. لم تكن همته جيدة، فيكتشف، وبسرعة- وهو ما تمناه من كل قلبه- من يوجد على الخط الآخر.

حيال هذا الوضع المتراوح بين الرنين من جهة والإرهاق الناتج عن الصرع من جهة أخرى، لم يكن أمام الهاتف إلا أن يتقدم من تلقاء نفسه مرتمياً بين أحضان صاحب "الممسوسون".

قفز الهاتف من مكانه بحرية لا متناهية. اخترق زجاج الثريا المحطمة فوق أرض الغرفة، شق جثة بريخت، ومن دون أن يتلوث بنقطة دم واحدة ارتمى بين أحضان دوستويفسكي. صار رنين الهاتف أعلى لما اقترب من الرجل، وصار أقرب إلى صوت ملايين الجماهير المحتشدة لما صار بين يديه.

آلو، قال دوستويفسكي بعد زفرة سبقها بشهقة وصوته الآن في قمة الارتجاف. كان صوت المتحدث بغاية الوضوح. سأل دوستويفسكي بعد أن سلّم عليه: ما هو التراجيدي اليوم؟

لم ينتظر الجواب، مدعياً أنه على عجلة من أمره، فهو على موعد مع هوميروس وسيعاود الاتصال فيما بعد كما قال!!

نطّ الهاتف من بين يدي دوستويفسكي، وطار في أرجاء الغرفة مرفرفاً ببوقه النحاسي ليحط فوق مكانه المعهود. استغرب دوستويفسكي الأمر، فكر بالموضوع لكنه لم يلق الجواب لدى نفسه، ما

جعله يستشير إحدى الشخصيات المنتحرة في رواية "الممسوسون".

اقتنع دوستويفسكي بجواب المنتحر، لكنه لم يبثني إياه رغم إصراري. بيد أن ثمة ما يشغلني الآن وسأدونه ريثما أعرف بماذا هُمِس في أذن دوستويفسكي أثناء تلك المكالمة الغريبة.

مع عودة الهاتف الطائر إلى مكانه، ثم اقتناع دوستويفسكي بفحوى تلك المكالمة الغريبة، حدث شيء غريب عجيب... عجيب غريب.

لم يكن أحد ليتوقع أن يتدخل جاك لويس دا؟يد في مجرى الأحداث. حتى دوستويفسكي نفسه لم يكن يتوقع هذا الاقتحام الفج من قِبل الرسام الفرنسي العجوز. لم يسبق للرجلان أن تقابلا أصلاً في يوم من الأيام، حتى أن دا؟يد مات يوم كان دوستويفسكي في الرابعة من العمر. ومع هذا، ها هو دا؟يد العجوز يخوض في غمار هذا المكان الدوستويفسكيّ المعجوق أصلاً بالأحداث، والأمر يتعلق بلوحة كان دا؟يد قد رسمها في العام 1800. إنها لوحة Napoleon at St. Bernard Mountain .

لم يكن دوستويفسكي قد كمش زمام الأمور بعد، ولم يكن قد تصور ما عسى أن يكون التراجيدي اليوم، لما قفز نابليون من لوحة دا؟يد المعلقة على أحد الجدران بأبهة تاركاً حصانه الأبيض شامخاً في اللوحة وحيداً.

جعل نابليون يعدو في الأرجاء كالمعتوه ملوحاً بسيف يحمله بحزم، وكان كمن يطارد أحدهم بغية القضاء عليه. لم يلتفت نابليون إلى دوستويفسكي، بل أحسب أنه لم يره أصلاً. كان يركض بإصرار إمبراطوري، وكان على يقين تام بفحوى ما يقوم به بعكس دوستويفسكي المذهول، وبعكسي أنا الكاتب الجميل. فكلانا- وكما دوّن الكاتب في أوراقه- كنا كالمعتوهيْن أمام هذا المشهد النابليوني الغريب.

يبدو أن الأمور أخذت تفلت من يدي، قال الكاتب لنفسه، فها هو نابليون يجد في الركض بركض أسرع خلف لست أدري من، بينما دوستويفسكي القاطب الجبين يزيح من درب الامبراطور الواثق من قدرته في القضاء على هذا المطارَد المجهول.

من كان ليصدق أن أصادف نابليون في يوم من الأيام؟ قالها دوستويفسكي بجدية ووقار عظيمين، بينما علامات الغضب والتوتر الشديد أخذت ترتسم بفظاظة فوق محيا الامبراطور ذو البأس الشديد.

لن تفلت مني يا أيها الخائر الوقح، قال نابليون بالإنكليزية، وهو ما أثار دهشة الروائي الروسي. نعم، لم يكن نابليون يتكلم الفرنسية في هذه الحقبة من حقبات السرد، إنما كان يتكلم بإنكليزية هي أقرب إلى لكنة الأميركيين... ومع هذا، فلنتابع!!

بإنكليزيته العادية تابع الامبراطور الشتم وتابع المطاردة محطماً عند بعض الزوايا بعض الأيقونات التي تعود في معظمها إلى عهود المسيحية الأولى. لم يجرؤ دوستويفسكي، و بالرغم من كونه دوستويفسكي، على مخاطبة الامبراطور المطارِد والغاضب والحانق من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. لم يجرؤ على مخاطبته مباشرة، إنما، وبنوع من المواربة الدوستويفسكية، جعل يفكر من عسى أن يكون هذا المطارَد ذو البأس الشديد الذي أودى بالامبراطور القوي إلى هذا المؤدَّى من الغضب العالمي.

أسقط في يد دوستويفسكي، ولم يفلح في معرفة المطارَد المجهول الغائب إلا عن أنظار نابليون. استعرض الروائي العجوز في ذهنه مئات آلاف الأشخاص من قادة عسكريين وأمراء وملوك وغيرهم من الذين لطالما جابهوا الامبراطور بمعارك ضارية، إنما كلا، ولا واحد من هؤلاء أقنع دوستويفسكي بشدة غضب الامبراطور. فالرجل فزّ من لوحة دا?يد، ما يعني أن الأمر بغاية الخطورة ويتجاوز في خطورته مجرد الملوك والأمراء والقادة العسكريين.

كان دوستويفسكي يحيد من درب نابليون الذي اصطدم بالروائي الروسي أكثر من مرة، وكأني بالمطارَد المجهول يتوسل دوستويفسكي كي يحميه من حنق الامبراطور وغضبه الكاريكاتوري كما قال دوستويفسكي في وقت لاحق.

لن أخفي سراً فحواه أن دوستويفسكي أخذته الشفقة على المطارَد الغيبي لسبب مجهول. فشفقته كانت مجرد حدس حاول الروائي تقصي أسبابه لما، وعلى غفلة من كل أحد، عاود الهاتف الخشبي الرنين.

كان دوستويفسكي قد استرد بعض عافيته وقد مر وقت على نوبة الصرع التي ألمت به، فهو قادر الآن على التوجه إلى حيث الهاتف الذي كان يهدر برنينه كالمجنون.

لم يؤثر هذا الرنين المباغت في حركة الامبراطور المستفحل في إلقاء القبض على أحدهم وربما إعدامه. لم يؤثر هذا الرنين في نابليون البتة، فهو ثابر على ما يعتوره من ركض وقفز وتلويح بسيف لا يستكين.

كان الهاتف يرن كالمرة السابقة بزخم لا يتعب منتظراً أن تُرفع السماعة قبل أن يسير وقبل أن يطير. سار دوستويفسكي نحو الهاتف وكاد أن يقع أرضاً جراء اصطدامه بالامبراطور الذي وكما تمثله الروائي العجوز، صار أقرب إلى الأحمق والمعتوه.

آلو، قال دوستويفسكي بهدوء مصطنع، فرد عليه محدثه بوضوح أكثر من المرة السابقة سائلاً إياه بنبرة تحمل من السخرية الكثير عن أمر يتعلق بالسلام العالمي منهياً المكالمة بأنه على عجلة من أمره، فهو على موعد مع أحد الأنبياء وسيعاود الاتصال فيما بعد.

لم يفكر دوستويفسكي الذي كان يسمع دقات قلبه بأذنيه، من عسى أن يكون هذا النبي الذي سيقابل محدثه المجهول. لم يفكر بشيء البتة، فهو كان كالمأخوذ وقد تعددت المجهولات من حوله إلا نابليون الذي كان مستأسداً في حربه على هذا المنطلق المجهول.

فنابليون هذا كان بمنتهى العيانية بعكس كل العالم الدوستويفسكي الآخر الذي كان يمخر في عالم من الضبابية الفجة كما كتب الروائي العجوز في كل كتبه بعد ذلك بسنين.

أي من المؤرخين العظام لم يتوقع أن تطول ملاحقة نابليون لأحدهم كل هذا الوقت. أي من المؤرخين لم يورد في تحليلاته أن ثمة من سينجح في شق أنفاس الامبراطور إلى هذا الحد. أي من المؤرخين لم يقرأ في وثائقه أو في مخطوطاته أو في أرشيفه أن هناك من سيلزم الامبراطور القوي بمطاردة لن تنتهي بين ليلة وضحاها. إنما، كل المؤرخين قرأوا أن الامبراطور سينتصر وسيتغلب على غريمه العجوز وسينزع له رأسه من فوق منكبيه... وهو ما حصل بالفعل.

احتار دوستويفسكي بين أن يجيب على الهاتف الذي عاد يرن مذعوراً أو أن يتوجه صوب هذه الجثة المتدلية فوق أحد السلالم والمنزوعة الرأس عن باقي الجسد العتيق. إنها جثة رجل في العقد

السابع من العمر عمل جاهداً من أجل السلام العالمي والأخلاق المنزهة عن الغرض، وكان على شيء من السذاجة ويدعى إيمانويل كانط.

كان الهاتف يرن مذعوراً، بينما رأس كانط عند أسفل السلم الخشبي وقد جحظت عيناه.

آلو...آلو. لم يجب أحد على الهاتف. كرر الكاتب: آلو... آلو، من معي على الخط؟ إنما ما من مجيب. أغلق سماعة الهاتف الذي عاود الرنين من جديد وثمة صوت يهدد الكاتب الكافر بأبشع ميتة إنْ هو ثابر على كفره وعلى ما ينشر من كتب ضلال. كان صوت المتحدث بغاية الخشونة، تنم نبراته عن حقد غشيم حسب عبارات الكاتب. كرر المتحدث نفس العبارات ثم أقفل بعنف. إنها الثالثة بعد منتصف الليل.

32

كل أبناء الحي كانوا يرضعون من ثدي أمه إلا هو. حاول مزاحمة الآخرين عله يرضع قليلاً، لكن محاولته باءت بالفشل. كان الآخرون أقوى منه، أما هو فقد كان بغاية الضعف. توسل أمه بنظرة شفقة أن تمد له نهدها، ما استطاعت. حاول التغلب على الأولاد والمرور فيما بينهم، لكنه تعثر وسقط بين أقدام الرضّع. شد من بأس نفسه وتمكن من الوقوف من جديد، فإذا بأمه تومئ له بيديها الاثنتين كي يقترب ليرضع.

كان الأولاد يتهافتون فوق صدر أمه من كل حدب وصوب، فيصدون محاولاته في الاقتراب. دعته أمه أن يقترب ووعدته بأطيب حليب، لم يستطع الوصول إليها، فالرضع كانوا كثراً حتى شباب الحي ورجاله كانوا قد صاروا أطفالاً أمام ثديي أمه الكبيرين.

كلمته همساً أن يقترب "تعال يا الأخير... تعال"، لم يستطع، فالآخرون أكثر جوعاً منه وأكثر قوة.

رأى إلى ثديي أمه جرة سماء ناصعة البياض والغمام، بينما حلقه بغاية الجفاف. "أنا جائع". "اقترب إذن"، كلمته أمه. لكنه لم يستطع الوصول.

صار الأخير شهوة الحليب الأبيض الناطق بأمه، إنما بلا طائل. ابيضّ شعر الأخير وصار حليباً، وثدي أمه صعب المنال. فالرضع كثيرون، كل أبناء الحي يرضعون إلا الأخير... "إلا أنا".

كان ناس الحليب يتوافدون زرافات زرافات. كل ناس الأخير كانوا هنا، كل الرجال الذين قابلهم والذين سيقابلهم فيما بعد كانوا يرضعون من ثدي أمه ولا يرتوون.

يا لثدي أمي الملبّد بطقس الزمان الغابر. ثدي أمي ملحمة الحي وقوارير دفئه إلا أنا قال الأخير. استكان الأخير وقد صار رجال الثدي حشوداً إلى عتمة أرجاء لا يعرفها وأخذ يبكي، فحلق الصبي بغاية الجفاف. جاع الأخير كثيراً، قرصه الجوع بأنياب عاتية فضم رأسه بين ركبتيه المنثنيتين وتكبتل عند الأرجاء المعتمة.

فكر أنه نام كثيراً، فكر أنه غطس في بحر من النوم، فهو لم يدر إلا ويد أمه فوق رأسه تمسد بانتظام. أي من الرضّع ليس هنا الآن. لم يكن ثمة إلا أنا وأمي. جاهر الأخير بفرحه، بضحكة يكركرها. صار يضحك. ضحك الأخير كثيراً وأمه ضحكت لكن حلقه كان لا يزال جافاً.

مد الأخير يديه داخل عباءة أمه السوداء وأخرج ثدييها الاثنين والعالم من حوله خلاء. جرة السماء الناصعة البياض ملك له وحده الآن. إنها جرة الغمام المتشكل بألف شكل وشكل بانتظار شفتيه الاثنين. تأمل الأخير ثدي أمه باستبسال المحارب العنيف، رأى إلى نفسه وقد اعتمر خوذة بينما الثدي أبيض كالغمام.

إن الأخير جائع إلى ثدي أمه. إنه محارب، هو صياد ماهر... ثمة أسنان فوق بطن أمه، إنها أسنان الأخير. أخذت الأسنان بالتساقط من فم الأخير الواحد تلو الآخر. صارت الأسنان تتساقط فلا ترأف بهذا الجائع المسكين.

ترجى أمه الانتظار، توسلها أن لا تخاف، قال لها أسناني غبية لا تدري من أمر نفسها شيئاً. لا تزعلي يا أمي أسناني أيضاً تحبك. أسناني تحبك يا أمي أرجوك البقاء، لا ترحلي، لا تذهبي. كان يكلم أمه ويلملم أسنانه من فوق بطنها فيحاول زرعها في فمه لتسقط من جديد...

كان بودلير يقرأ الشعر على شرفة منزل الأخير عابساً. لم يكن بودلير منفرج الأسارير، كان عابساً. كان بودلير يتكلم على "السنوات الراحلة وهي تطل من شرفات السماء في أثواب عتيقة"، بينما أم الأخير ترمي القمح للدواجن، ترمي القمح للبط والدجاج وطيور أخرى.

جعل يتلمس أسنانه بلسانه وهو يراقب أمه التي كانت ترمي القمح. كان لا يزال ممدداً فوق فراشه يراقب عبر النافذة أمه ويراقب الدجاج ويراقب بودلير. لم تبال أم الأخير بوجود الشاعرالفرنسي الشاب، فانهماكها بالقمح حال دون أي بودلير في العالم. فهي لم تلحظ وجود الشاعر إلى جانبها، لم تنتبه إلا إلى طيورها ترمي لها القمح بسخاء.

تكلم أهل الحي القديم على الأخير الذي اشتاق يوماً إلى أمه. تكلم أهل الحي القديم على الأخير الذي نكش قبر أمه. تكلم أهل الحي القديم على الأخير الذي لم يبك أمه. تكلم أهل الحي القديم على الأخير الذي غضب يوم دفن أمه. تكلم أهل الحي القديم على الأخير الذي كره أمه. تكلم أهل الحي القديم على الأخير الذي... تكلم أهل الحي القديم على الأخير كثيراً. أما الأخير...

طال مكوث الصبي فوق الفراش ممدداً وهو يراقب الدجاجات التي كانت تلتقط القمح برصانة وبوقار راديكاليين. لم ينتبه إلى الوقت، وكان بودلير في هذه الأثناء قد غاب عن الانظار وأمه أيضاً.

استحث الصبي بعض الهمة كي ينهض من فوق الفراش متأملاً أسنانه في فمه بأصابعه وبلسانه وبشفتيه يقضمهما بهذه الأسنان. تعودّ الأخير هذا المنام، وصار عنده محطة ضيق، إنما لا بأس، فهو لا يعدو كونه منام.

33

"عندما تتآكل الآلهة وتهترئ تخرج الأشباح من بين الخرائب".

توقف الأخير ملياً عند هذه العبارة قبل أن يقرع الباب. كان الكاتب مشعث الشعر وعلامات الإرهاق بادية عليه. لم يأخذ الأخير تعب صديقه بعين الاعتبار، فراح يقص عليه منامه دون أن يأتي على ذكر تساقط أسنانه. كلمه على الذين كانوا يتهافتون على صدر أمه كي يرضعوا، وعلى جفاف حلقه سارداً المنام بتفاصيل تجاوزت في بعضها حقيقته.

كانت بالأخير حاجة رهيبة لأن يقص كابوسه كما أسماه على أحد ما. كانت به حاجة لأن يشاركه أحدهم جوعه وجفاف حلقه، إنما الكاتب، وعلى وقع مبالغات الأخير في سرد منامه، كان يفكر ملياً في: ما عسى أن يكون التراجيدي اليوم؟

كان الكاتب يهز رأسه ويسترسل في هذا الهز مع لغو الأخير وثرثرته. كان الولد يتكلم كثيراً ويتلعثم في بعض كلامه. كان يتكلم بسرعة كيف أومأت أمه إليه كي يأتي إليها، وعن سقوطه بين أقدام الرضّع ورؤيته العجائز والشبان وقد صاروا أطفالاً. كان يتكلم هذراً بينما الكاتب يقلّب في ذهنه تلك المكالمة الغريبة المتعلقة بالسلام العالمي.

استشاط الأخير بسبب لامبالاة الكاتب وشروده، فصاح به متوسلاً بعض الفهم، بعض الـ... لست أدري ماذا كما قال الأخير متلمساً أسنانه بأصابعه. كان المنام على درجة عالية من الحقيقة حسب عبارة الأخير وعلى درجة عالية من الفجور كما قال الكاتب أخيراً.

إنه كابوس فاجر يا الأخير قال الكاتب، ثم وقد أنهى الأخير ما يصح أن نطلق عليه ثغثغته سأل الكاتب عن هذه العبارة الملصوقة فوق باب بيته.

- أنا وضعتها يا الأخير.

- لماذا؟

- رداً على رسائلهم ومكالماتهم الهاتفية البائسة.

- ماذا يريدون منك؟

- لست أدري. ربما... لست أدري يا الأخير، ربما هو كتابي...!

- هل من الممكن أن يؤذوك؟

- أجل.

- لماذا؟

- إنها طريقتهم في الاحتفال بموت الله. قالها الكاتب وهو يعيد سماعة الهاتف إلى مكانها مشيراً على الأخير أن العبارة الملصوقة فوق باب بيته ليست لبودلير كما فكر الصبي، إنما هي للشاعر المكسيكي أوكتا؟يو باث.

- لكنها تشبه عبارات بودلير، قال الأخير شارداً وقد صعقته عبارة "موت الله".

- لا بأس أن تشبه عبارات بودلير، فالعصر عصره على كل حال، كما همس الكاتب مدوناً في الآن ذاته بعض الملاحظات المتعلقة بموعظة الجبل كما وردت في الأناجيل. أما باث، فكان يقرأ مع الأخير أن:

الأشياء كانت تنحلّ عن أسمائها

على ضفة جسدي

كنتُ أسيل.

يقرأها الأخير ليس بصوته إنما بصوت الشاعر الفرنسي الشاب. لكن... لكن، كيف يموت الله؟! متوجهاً بالسؤال إلى نفسه على خلسة من كل أحد.

34

اقشعرّ بدن دوستويفسكي الحار وتخلل جسده تيار من الهواء البارد، وقد أشار عليه كانط أن يتوجه ليرد على الهاتف. نعم، كانط صاحب الرأس المقطوع والمتدحرج من فوق السلالم كان يشير على دوستويفسكي بواسطة عينيه الجاحظتين كي يرد على الهاتف قبل فوات الأوان كما شهق الفيلسوف الشهيد. مات كانط، أما الهاتف فكان لا يزال يرن.

على وقع الرنين الصاخب الذي لا يرحم، أشاح دوستويفسكي بوجهه عن رأس كانط باتجاه لوحة دا؟يد. كانت اللوحة قد استردت عناصرها كما رسمها دا؟يد سنة 1800. نعم، عاد نابليون فاحتل صهوة جواده والجواد عاد فاستقام على قائمتيه الخلفيتين وكل علامات الفخر والسؤدد عادت فتجمعت في لوحة الفنان الفرنسي العجوز. عادت اللوحة إلى ما كانت عليه باستثناء بعض قطرات الدم التي كانت تسيل على اللوحة عند جهة سيف الامبراطور. إنه دم كانط العجوز، كما فكر دوستويفسكي الحزين. نعم، كان دوستويفسكي حزيناً وبعض الدمع كان يترقرق فوق وجنتيه. أما الهاتف، فكان لا يزال يرن.

لم يهتم الروائي الروسي بجثة الفيلسوف الألماني وبرأسه المقطوع. فهو لم يعمد مثلاً ومن باب اللياقة على الأقل إلى وصل الجثة بالرأس، كما لم يحاول أن يعيد إليه الروح. فدوستويفسكي كان على ثقة تامة أن كانط قد مات ولا جدوى من محاولة إحيائه من جديد، فهذا الرجل كان قد صار عجوزاً خائر القوى لا يني يتكئ على عصا متينة لكنها مستحيلة، وهي لم تنقذه بنهاية الأمر. هذا ما كان يفكر فيه دوستويفسكي فوق جثة كانط المظلوم، بينما نابليون كان، ومن فوق لوحة دا؟يد يتجاسر على أن يأتي لست أدري بماذا كما دوّن الكاتب. أما الهاتف الخشبي فكان كما تعلمون.

مستفيداً من الهدنة بين دوستويفسكي وصاحب الظل التعيس، جعل الكاتب يخط أن أحدهم، وهو من مقرري الغرب الحديث، لم يستطع أن يرقى إلى مستوى العالم إلا من خلال الدم. ثمة عالم هو مجزرة، هو سفك، هو خوف دائم، هو ارتياب. لم يستطع هذا الرجل التغاضي عن لحظة القتل، فالقتل حسب هذا الرجل ليس وسيلة، حتى أنه ليس بغاية. إن القتل كما مارسه هذا الرجل هو إرادة. الدم إرادة الرجال الحقيقية، دوّن الكاتب، فمكبث بلا أيدي ملطخة بالدماء، لا جوهر له، إنه نكرة. نعم، مكبث هو من كان يستدرج الكاتب صديق الأخير، فيكتب وفي قلب نصه عن دوستويفسكي أن مكبث هو إرادة الغرب الحديث بالعاً ريقه ليزيد لكنه أيضاً إرادة العالم بالإجمال. لا يريد مكبث نحر العالم، لا يريد ذبحه، فمكبث وكما كان يخط صديق الأخير، هذا المكبث أراد الكشف عن جوهر العالم، عن تخومه الأخيرة. لم يقتنع مكبث بالجريمة الأخيرة، فهو على دراية تامة أن هذه الجريمة لا وجود لها. ليس ثمة جريمة أخيرة، إنما ثمة جريمة وحسب. الجريمة الأخيرة هي موت العالم، هي انغلاقه على نفسه وانحداره إلى مستوى الجماد. إن مكبث، وكما رأى إليه الكاتب في هذا النص البغتة، هو طموح العالم لئلا يندثر، لئلا يصير فتات. إنه سيد العالم القائم بأمره. لا يوجد مجاز أحمر في عالم مكبث، فالمجاز في هذا العالم هو لحظة تضميد الجرح وتقطيبه، أما الحقيقي فهو الجرح النازف، الدم المتدفق، الأفواه الفاغرة، العيون الجاحظة، الأطراف المبتورة والخناجر في الصدور. لم يفهم الكاتب صديق الأخير، وهو ما كان يدونه

بحماس، لم يفهم أن السلطة مأرب مكبث، لم يصدق أن العرش هو حاجة مكبث الأخيرة. كلا، إن الكاتب رأى بحق أن العرش هو وسيلة، هو كذبة صدقها مكبث ليشحن العالم بصيرورة أسرع بواسطة قتله المحموم. لا يكره مكبث أحداً، لا يكره أعداءه، لا يحتقرهم، لا يشعر حتى بالمجافاة تجاههم، إنه بالأحرى يحبهم ويقدرهم ويحترمهم ويعلي من شأنهم، فهو من خلالهم يحقق إرادة العالم الأصلية. إن أعداء مكبث وقود العالم، وتدفق الدماء من رقابهم طاقة هذا العالم الحقيقية. أعداء مكبث حاجته، إنهم حاجة العالم وخزانه الزاخر بالحركة والنشاط. يحب مكبث أعداءه ويخاف هؤلاء الذين يهادنونه، يخاف هذا الرجل أصدقاءه، أقرباءه، حلفاءه، ويضعهم دائماً محل ارتيابه الدائم. يُسكن المقربين منه في دهاليز تلصصه الحذر، يسكنهم في غرف سرية لها علاقة بالمؤامرة، بالتواطؤ وبانتظار لحظة الانقضاض. إنهم بالعمق أعداؤه الحقيقيون، إنهم مجرد مجموعة من الخبثاء، مجموعة من... إنهم لا شيء إلا موضوع الجريمة القادمة وهكذا دواليك. الإنسان المثال حسب مكبث يتجسد في الليدي مكبث كما فكر الكاتب، فهذه السيدة تقدّر زوجها، تمنحه صلاحيات القتل الأبدي، تعزز إرادة العالم في وعي زوجها بأن يقتل أكثر... بأن ينحر أكثر. تقول له ضاجعني بخنجرك في صدور الآخرين، متعني بنزف أكثر برؤس متدحرجة، بطعنة في قلب أحدهم أو في ظهره.

لا يهمني من أمر الفراش شيئاً إلا الحديث عن الجريمة المقبلة، تقول الليدي مكبث كما دوّن صديق الأخير. الجنس عند هذه المرأة قتل زوجها للآخرين، فعل الجماع معها أناس يموتون كل يوم ودم يجري وشلال من الأهواء التي ترى في الجريمة ملاذاً. يحب مكبث زوجته ويعشقها. إنها قدره، بل هي قدر العالم ودفعه الدائم لعدم الانطفاء. تطلب من زوجها أن يكون رجلاً من خلال القتل، تقول له اقتل، كن رجلي الأقوى والأصلب ولا تحرمني متعة الدم. تحب السيدة مكبث زوجها وتعشقه. إنها لسان الحياة في وجوده دوّن الكاتب، قارئاً في مكبث أن إرادة العالم القتل. لم يهتم الكاتب بمكبث الطموح، بذاك الساعي إلى العرش بشتى الطرق والأساليب، لم يقرأ الكاتب في مكبث مجرد مجرم حقير أو عاجز جنسي أراد إغواء زوجته بالجريمة. لم يفهم الكاتب من أمر مكبث عقدة نفسية تدفعه إلى الجريمة أو إلى الشعور بالذنب. ليس مكبث حسب صديق الأخير إنسان معتوه أو هو على حيلة ومكر عظيمين. كلا، كل هذه الأمور لم تنتظم في ذهن الكاتب الجميل. ليس مكبث حسب هذا الكاتب إلا نشاط العالم وداخله المحموم. مكبث إرادة تجلي العالم بلا رونق أو مظهر جميل، إنه خفاش العالم الأصلي وبوتقة كل يوم أحمر.

توقف الكاتب عن فعل القلم للحظات، وشرع يفكر في الأسباب التي أغوته لأن يتكلم عن مكبث اليوم. فالرجل، وقد جنّت زوجته وماتت، مات هو أيضاً. ثمة من صرعه، ثمة من قضى عليه، لكن- وهو ما كان يجول في رأس الكاتب صديق الأخير- من يضمن قتل الساحرات الثلاث والقضاء عليهن في زحمة العالم اليوم؟

فساحرات مكبث- وقد عاد الكاتب إلى أوراقه- ما زلن يمرحن داخل طبائع الناس ومازالت ظلالهن تحوم فوق الرؤوس... هو مكبث لا بد منه في كل آن. إن الساحرات الثلاث ما زلن هنا، إنهن بصدد مليون مكبث وأكثر دوّن الكاتب. ثم، وقبل أن يفتح الباب الذي كان يقرع بعنف، دوّن أيضاً: إن الحياة ليست إلا ظلاً يسير، إنها حكاية يحكيها معتوه تافه ملؤها العنف والضجيج ولا تعني شيئاً.

كان الأخير في الخارج يدق على الباب بعنف، لكن، وقبل أن يُفتح الباب ركض مبتعداً عن بيت صديقه وكان أشبه بالمجنون.

35

لم تنزح فكرة موت الله عن رأس الأخير. لقد أقضّ هذا الموت مضجع الصبي وصار الله الميت محل تساؤل وتفكير دائمين. لقد تعوّد الأخير موت جده، موت أحد أقربائه في إحدى دول الاغتراب. تعوّد هذا الصبي موت شقيقة أحد رفاقه أو موت ديك لم يكن ذووه بحاجة إليه، وتعوّد أيضاً موت كلب كان يقوم بتربيته ابن صاحب المبنى حيث يقطن الأخير. أما موت الله، فلم يسبق للولد أن سمع به من قبل. لم يتعوّد الأخير أن يسمع من والده أن ثمة إلهاً مات في بلدة كذا، كما لم تتفوه أمه يوماً بكلمة عن الله الميت في مطرح ما، فما بال صديقه إذن يقول "موت الله"؟!

ربما هي المرة الأولى التي يموت فيها الله، فكر الأخير. لكن ربما هو موت سري لم يدر بأمره إلا قلة قليلة من أبناء الحي وعلى رأسهم صديقه الكاتب! ربما الله لم يمت، لكنها شائعة تناهت إلى مسامع الكاتب من قريب أو من بعيد.

إنها التساؤلات التي كانت تجول في ذهن الصبي، فتزاحم الصورة الأصلية في ذهنه، صورة "الله الميت". لم تبارح هذه الصورة خيال الأخير، لم تنزح عن ذهنه، فالله الميت كان في وعي الصبي أشبه بوابل من الصور المتدفقة: الله المجثى... الله الممدد على ظهره فوق سرير كبير... الله المحاط بكمية لا متناهية من الورود... الله المطمور في حفرة ضخمة... الله المتفسخة جثته مثل تلك المرأة في المقبرة... الله... آلاف الصور كانت تتزاحم داخل رأس الأخير عن موت الله.

في أحد الأيام، وبينما كان بودلير يقرأ الشعر أمام سطيحة منزل الأخير، جعل الصبي يفكر في الكلمات التي يمكن أن تستعملها أمه في ندب الله. ماذا عسى أن تقول هذه المرأة في الله الميت؟ من أين ستأتي بالكلمات التي تليق بهذا الفقيد؟ هل ستضيع الكلمات في ذهن أمه فتتلعثم وهي التي لم يسبق لها أن تلعثمت في أي مأتم؟ إن أم الأخير، وهي صاحبة اليد الطولى في جر الدمع من المآقي في مآتم الحي والجوار، إن هذه المرأة وهي الندابة التي لا يرقى إلى مقامها أي من الندابات الأخريات، دفعت بابنها، دفعت بالأخير إلى مقام آخر من مقامات القول: هل ثمة من كلمات تفي الله الميت حقه؟ فكر الأخير.

36

عبر الضاحية العتيقة،

حيث تتدلى المصاريع

فوق نوافذ البيوت المتهالكة

أمضي للتدرب وحيداً على مبارزتي الخيالية.

كان بودلير يذرع السطيحة ذهاباً وإياباً أمام ناظري الصبي الذي صار الآن في حضرة المأتم العظيم. كان بودلير يقرأ شعره بشغف لما انبثقت تلك الندابة صاحبة كلمات المآتم وفي يدها دجاجة توقوق، وفي يدها الأخرى بيضة أو بيضتان... والشيطان؟ ماذا ترى الشيطان فاعل يوم مأتم الله؟!

لم يلبِّ الصبي نداء أمه فيأتي ليأخذ البيض منها، فالأخير كان مشغولاً بكيف سيتوزع الأنبياء حول جثة الله الضخمة، وكان يفكر بما سيفعله الشيطان يوم ذاك المأتم المهيب. لا ريب أن الشيطان سوف يكون فرحاً. تخيل الأخير الشيطان راسماً ابتسامة عريضة فوق شفتيه. ستختفي تلك العبسة الأبدية وستحل محلها رعشات شفاه الشيطان اللعين ورعشات ذقنه، وستتسم عيناه ببصيص وقح.

لم يرد الأخير على أمه التي كانت تردد صياحها بشأن البيض، إذ استبدت بالصبي صورة الشيطان الفاغر والجاثم فوق قبر الله. لم يتحير الأخير شكل الشيطان يوم دفن الله العظيم، فالشيطان سوف يكون يوم هذا الدفن على نشاط زاخر وسوف لن يعدم وسيلة بغية الثأر من أهل الله الطيبين. سوف يصير الشيطان على بطش كثير، وسوف يقتلع عيون وألسنة وأفئدة المؤمنين.

لم يبال الأخير ببيض أمه الذي صار يتردد فوق لسانها بعصبية، ولم يبال ببودلير وقد اعتلى أحد الجدران يقرأ الشعر جهاراً، فالصبي مأخوذ بالشيطان وقد صار بلا منافس، حتى أن صياح أمه كي يأتي ليأخذ البيض لم يمنع في ذهنه أن الشيطان سيصير الله.

سيستولي الشيطان على عرش الرب العريض، وسيتكئ على مسنده المخملي، وسيلتحف أيام البرد القارص أغطية الله الدافئة. سينتزع الشيطان وقد صار قوياً ستائر قصر الله المنيف، وسيرمي بأثاثه عبر النوافذ والشرفات. لن يبالي الشيطان، وقد احتل بيت الله، بزوار الله من الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين، إذ سيعج هذا البيت بملايين الشياطين الصغيرة التي تبول فوق السجاد الأحمر.

تولت الأخير حالة من الفزع، بل من الرعب وقد شاهد الشيطان يعبث بإرث الله النفيس. خاف الأخير، خاف كثيراً، فهو أيضاً يحب الله، أم الأخير تحب الله، والده، أصدقاؤه، كل الناس يحبون الله... إلى أين سيلجأون؟

صار البيض فوق شفاه أمه عويلاً، أما بودلير، فكان يتحدث بهمس عن:

أنواع الرعب الغامضة لهذه الليالي المفزعة

التي تسحق القلب مثل ورقة يفركها المرء.

أما الأنبياء والرسل، كل الأنبياء والرسل، فكانوا، وكما كان يتوقع الأخير، يجهشون بالبكاء حول جثة الجثث كما قال الصبي متمتماً.

تخيل الأخير جثة الجثث منتشرة فوق مساحة لا تنتهي من القماش الأبيض، تخيلها بطولها وعرضها وآلاف الأنبياء والرسل من حولها يذرفون الدمع والملايين من البشر العاديين. كل سكان الكرة الأرضية سوف يهرعون لتوديع الله الوداع الأخير.

فكر الأخير بمكان أهله بين هذه الجموع، مكان أبيه وإخوته وأصدقائه وبمكان الكاتب وأولئك الذين يريدون أن يؤذوه. كل من مر ببال الأخير فكر الأخير بمكانه يوم دفن الله.

ماذا عن الأموات؟

هل سوف يقوم الأموات من قبورهم ويشاركون في دفن الله؟ هل ستعج ساحات الأحياء بالموتى، فيختلط الأحياء بالأموات والأموات بالأحياء ويصير التمييز بينهم مستحيلاً يوم دفن الله؟ كلا، لن يأتي أي ميت يوم دفن الله، فكل الأموات سيستقبلون الله في عالمهم مهللين، بل قد تراهم أكثر فرحاً حتى من الشيطان يوم يسمعون أن الله قد مات. نعم، هكذا فكر الأخير. إن الأموات سوف يحتفلون في عالمهم السري بموت الله لأنه صار قريباً منهم، لصيقاً بهم، بل أنه وقد مات تراه صار واحداً منهم. سوف يقدمون له الصلاة، صلاة الموتى وجهاً لوجه. قد يصافحونه ويقبلونه ويشكرونه إذا ما أخذ معه نوره إلى ظلمات سراديبهم. قد ينير الله دروب الأموات وأزقتهم الضيقة، فيعودوا ليقشعوا بعضهم البعض، فيتعرف كل قريب على قريبه وكل محب على حبيبه. سيكون الله بهجة الأموات المشعشعة.

موت الله زفاف الموتى فكر الأخير. إن الله يوم دفنه سيكون حفلة زفاف أبدية، حفلة لن يبقى ميت إلا وسيهرول إليها بشغف. سيأتي الموتى من كل حدب وصوب يوم دفن الله العظيم ليشاركوا في عرسه ويأكلوا من مائدته...

لن يبقى ميت إلا وسيعمل جاهداً كي يحضر دفن الله، حتى سكان الجحيم من الأشقياء وغيرهم سوف يكونون هنا، سوف يرحبون بالله يوم زفافه الأخير، يوم دفنه المهيب.

على وقع صفق الباب وبيضة مكسورة عند العتبة وأم تشتم بلاهة ابنها، صار الابن يتخيل مطرح كل من الأنبياء حول الجثة الضخمة، حول جثة الجثث بدءاً بسيدنا آدم وزوجته وصولاً إلى خاتم الأنبياء وزوجاته.

سيدنا نوح لن يتوانى عن الحضور بسفينته الخشبية، سيأتي نوح وكل أزواجه، وابراهيم الخليل سيأتي أيضاً. سيحتل سيدنا ابراهيم مكانه قرب رأس الله، بمحاذاة رأس الله، فسيدنا ابراهيم هو أول من قال بالتوحيد وهو الأولى بالحزن على موت الله.

كل الأنبياء سوف يأتون، سيأتي اسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وسيكون معهما إسحاق وغيره.

صار الأخير يوزع الأنبياء حول الجثة، فإذا بيوسف بن يعقوب وإخوته وقد افترشوا بقعة صغيرة أمام مرقد الرب الميت، ينتدبون. حتى أيوب سوف يأتي وسيأتي أيضاً النبي شعيب وسيتناوبان كرسياً عند أسفل حافة السرير.

نعم، هكذا فكر الأخير: سيأتي لوط بلا قومه، وهود وصالح ونبي الله إدريس. سوف يأتون جميعهم وسينتشرون حول السرير الحزين. الأنبياء في الصف الأول وخلفهم ملايين الناس ومن خلفهم الملايين. توقع الأخير حضور صفي الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام. سيأتي موسى متكئاً على عصاه الخشبية ومجهشاً. سيكون ابن عمران على حزن شديد، فهو أقرب إلى الله من غيره وهو... على كل حال، سوف يأتي الجميع.

الرب الميت، فكّر الأخير، سينيخ بكلكله فوق كل الأنبياء ويجلب للناس التشتت والضياع ومأزق القرون.

أما بودلير...

37

نزل بودلير عن حافة الجدار حيث كان يقرأ الشعر بصوت مرتفع، وجعل يجوب السطيحة على مرأى من الأخير وأمه التي، وكعادتها منذ أن أتى بودلير إلى هنا، لم تنتبه لوجوده ولم تسمع ماذا يقول.

اقترب الشاعر الشاب من نافذة الأخير، ونظر إلى الصبي بوجهه الشاحب وابتسم. رد الأخير على الشاعر بابتسامة مماثلة مشوبة بملامح القلق والاضطراب. فالأخير، وفي غمرة موت الله والتحضيرات الجارية لدفنه، توسّم في بودلير بعض خلاص، لكن اصفرار وجه بودلير وشدة شحوبه أدت بالأخير إلى الغرق في بحر من القلق، فيأخذ نفساً عميقاً ويركز بصره فوق عيني بودلير الزائغتين.

لم يتوجه بودلير بكلمة واحدة للأخير. خاف الأخير من بودلير كثيراً، أحسه شبحاً يتخلله. بودلير كان يوم دفن الله أشبه بالجثة المتحركة. حاول الصبي مخاطبة الشاعر، لكنه لم يستطع، فلسانه كان كالمعقود في فمه وشفتاه كانتا مطبقتين كأنهما قطعة لحم واحدة. حافظ الأخير على ابتسامة الخوف المرسومة فوق شفتيه المطبقتين وكان أشبه بولد تائه في الصحراء ينتظر انقضاض الوحوش عليه.

توقع الأخير أن يكون بودلير على دراية تامة بما يجول في ذهنه حول موت الله. كان الأخير يعرف أن سر موت الله وحزن الأنبياء عليه ليس بالأمر الخافي على بودلير. صار الأخير يشاطر بودلير همه وبودلير يشاطر الأخير أيضاً دون أن يهمس أي منهما في أذن الآخر بحرف. ثمة ما يتجاوز الأحرف قام بين الصبي والشاعر، وثمة ما يتعدى الكلام تبادله الإثنان باضطراب.

كان بودلير يجيب الأخير على أسئلة لم ينطق الصبي بها، بينما الأخير كان يمهد أمام بودلير درب وجهه الشاحب على مدى الأيام والسنين المقبلة. اقترب بودلير من نافذة الأخير، وكاد أن يناوله كتاباً لما أزاح الأخير وجهه بغتة عن وجه بودلير حيث كانت أمه تركض فوق سطيحة المنزل باتجاه درج صغير يؤدي إلى مدخل البيت.

إحداهن، وهي تتشح بأسود قاتم، كانت تعمل على تسلق الدرج بعجز... إنها تلك الحبلى الأبدية صاحبة البطن الذي يشبه الجبل. ماذا تريد يا ترى؟

38

لم يكن الكاتب قد استرد وعيه بالكامل لما جعل يتحسس رأسه حيث ثمة ألم مبرح يخترق هذا الرأس. كان ممدداً أمام عتبة منزله وخيط من الدم يسيل، وكان بين اليقظة والأغماء. لم يكن يدري ما الذي حصل له على وجه التمام، بيد أن ثمة طرقاً فوق باب بيته ما انفك يعاوده، وثمة مكبث وساحرات ورنين هاتف لا يرحم.

لم يستطع تحديد المشهد أمامه، فالعتمة كانت تلف المكان باستثناء الضوء المنبعث من داخل البيت. جعل الرجل يشد من أزر نفسه، فانسحب إلى داخل المنزل مجرجراً جسده ولزاجة الدم بين أصابعه كانت تمنحه يقين قربه من اليقظة وخروجه من تيه الإغماء.

دلف إلى الداخل وقد أخذ منه الإرهاق مأخذاً، فأوصد بابه بإرادة من اليقفل لا متناهية، وكان قد صار على دراية تامة بكل ما جرى له منذ بداية الطرق العنيف حتى لحظة فتحه الباب. يبدو أن ترهاته الفكرية لم تعد مجرد ترهات، فها هي رسائل الخسة تتحول إلى عصا غليظة كادت أن تقضي عليه.

استرد كاتبنا الجميل بعضاً من عافيته المؤقتة، وكان متردداً بين أن يكون قد لمح الأخير أو هو مجرد وهم. حاول رسم ملامح أحد ما من الذين ضربوه لكنه لم يستطع. إن الضربة فوق رأسه كانت أسرع من أن... على كل حال، وبالعودة إلى أوراقه المبعثرة فوق منضدة الكتابة، كتب الجميل ما يلي:

كان الهاتف لا يزال يرن مذعوراً، وجثة كانط المنزوعة الرأس كانت لا تزال متدلية فوق السلالم الخشبية، بينما دوستويفسكي، العزيز دوستويفسكي، كان لا يزال حائراً بين الجثة والرنين.

كتب الكاتب ومكعبات من الثلج الملفوفة بالقماش يكبسها فوق رأسه بإحكام، كتب أن دوستويفسكي حمل جثة الفيلسوف الألماني العجوز ووضعها داخل صندوق خشبي منسي في إحدى الزوايا. أما الرأس، رأس الفيلسوف، فقد تركه أديبنا العزيز في الأرجاء وكأنه لا يمت إلى تلك الجثة بصلة.

تأكد دوستويفسكي من وضع الجثة داخل الصندوق العتيق، ثم، وقد صار رنين الهاتف محل فضاء لا يطاق، توجه إلى هذا الهاتف بعزم، فرفع السماعة وصاح بملء الصوت: ألم يعد بوسعك الانتظار؟

أنا أقول إن البشر لم يصنعوا الوسادة إلا من أجل الجريمة. لم يكتب الكاتب الجميل صاحب الرأس المفجوج هذه العبارة من باب العبث، فالرجل، وقد استبد برأسه ألم لا يرحم، رمى بقلمه وذهب إلى فراشه متوسلاً بعض النوم. بهمة رجل بلغ التسعين من العمر، رمى الكاتب بنفسه فوق فراشه متهالكاً، وثمة وسادة أرخت بثقلها فوق رأسه المفجوج، فإذا بهذا الرأس محل أفكار دوّنها الرجل فيما بعد، وكان ذلك يوم اعتقال خالد شيخ محمد واعترافه بأنه العقل المدبر لتفجيرات 11 أيلول.

ليست العزلة في أن تكون وحيداً، إنما العزلة هي الشعور بأنك معزول. شطب الكاتب هذه العبارة التي لم ير لها مكاناً في نصه كما خمّن بحذر.

"ألم يعد بوسعك الانتظار؟" جعل يردد هذه الجملة في ذهنه مرات ومرات، وهي آخر ما كتب قبل توجهه إلى فراشه لينام. صار يتقلب فوق الفراش محاولاً ربط أحداث الرواية مركزاً بشكل خاص على رنين الهاتف الجهنمي، مكرراً في كل لحظة "ألم يعد بوسعك الانتظار؟".

جعل يفكر في من عسى أن يحادث دوستويفسكي هذه المرة عبر الهاتف الملعون. من عساه...

انقطع حبل تفكير الرجل فوق فراشه المغمّس بالعرق وقد دوت في الخارج المعتم طلقة نارية واحدة تبعها بعد لحظات عويل وصراخ وجلبة أصوات وهدير سيارة شُغّلت للتو.

كان الحي على حزن شديد. لم يشارك في الجنازة إلا القليل القليل وعلى رأسهم الكاتب والأخير الذي كان على مسافة أمتار من زمرة المشيعين. لم يكن ثمة قرآن في دارالفقيد ولم يكن ثمة شهادة أثناء عملية التشييع. يبدو وكأن النعش فارغ فكر الأخير. أما الكاتب فقد كان مجهشاً بالبكاء.

بتسوية شارك فيها بعض علية القوم تمت الموافقة على دفن المنتحر عند هامش جبانة الحي في حفرة لم يوضع فوقها شاهد قبر أو معلم أو حتى عصا تدل على وجود ميت تحت هذا المكان. كثرت التكهنات حول أسباب هذا الانتحار وأحاديث القيل والقال. إن الشرطي انتحر وأكثر ما كان يهمه في هذا الانتحار أن الزمن سوف يطويه، كما أخبر الكاتب قبل سماع دويّ الطلقة بساعات.

ثمة صلة على شيء من الغموض كانت تقوم بين الشرطي والكاتب الذي لم يأخذ كلام هذا الشرطي على محمل الجد، بل فكر أن الأمر لا يتعدى أزمة بسيطة وبعض الكلمات.

كان الحي على حزن شديد، فأحد أبناء الحي وهو شرطي في الثلاثين من العمر، انتحر لأسباب تتعلق بجسد معشوقته. فهذا الشرطي، ويدعى لست أدري ماذا، لأنه بالفعل طواه النسيان، هذا الشرطي، أخبر الكاتب أنه دفع بحبيبته إلى ممارسة السحاق مع فتاة تختارها وفعلاً تم الأمر. لكن، لما أخبرت الحبيبة حبيبها أنها لم تكن تتوقع ما نالته من لذة انتحر، وكان ذلك لحظة التقاء الكاتب الجميل ذاك الذي لم يعد بوسعه الانتظار.

كلا، لم يعد بوسعي الانتظار... سحقاً لك يا مشعوذ القرن المتهالك، وأقفل الخط.

اكفهر وجه دوستويفسكي واغلولق على نفسه، فصوت محدثه كان على انفعال شديد وكان يتسم بغموض وقح. مضت لحظات وجو من السكون الخانق يلف أرجاء المكان لما عاود الهاتف الخشبي الرنين فجأة. عجل دوستويفسكي رفع السماعة وقبل أن ينطق بحرف باغته أحدهم بقوله: ألا تدري أن الحياة ليست إلا عجلة انتحار؟

صمت دوستويفسكي لثوان، وكانت أنفاس الآخر تتهدج عبر سماعة الهاتف، فتخترق أذن الروائي العجوز الذي بادر هذه الأنفاس بالسؤال: من معي على الخط؟

استمر خيط الأنفاس المتهدجة شاداً من وتر نفسه، ثم، وبما لا يتعدى الكلمتين قال: أنا مكبث.

39

بحبح الأخير الورد فوق القبر العاري. كانت قد مرت شهور على آخر مرة سرق فيها الأخير الورد، لكن بكاء صديقه الكاتب حثه على خطف الورد وزرعه فوق قبر الشرطي المنتحر. سرق الورد من أحد المتاجر وسرق بعضه من إحدى الحدائق وغافل أمه في إحدى الأمسيات وسرق الحبق من مصطبة الدجاج والقمح.

زين الأخير قبر المنتحر بورد كثير، ونشر فوق هذا القبر حبق أمه الأخضر وبكى. بكى الصبي كثيراً فوق القبر العاري، حتى هو استغرب هذا البكاء. فالأخير لم يكن على صلة بالشرطي المنتحر، لم يبادله يوماً الكلام، لم يقل له مرحباً في أي يوم، وأقصى ما كان بين الشرطي والصبي نظرة عن بعد.

لم يفهم الأخير أسباب حزنه على شرطي التراب، لم يفهم بكاءه، وصار فوق القبر مجهشاً وكأني به يبكي لست أدري من.

مرت أيام كثيرة قبل أن يكتشف أحدهم صخرة صغيرة مرمية بين الورد والحبق اليابس ومحفور فوقها "قبري أنا". حتى اليوم، وقد مرت على موت الشرطي سنوات، لم يكتشف أي أحد من وضع تلك الصخرة فوق قبر المنتحر... أما بودلير، وعشية تلك الصخرة المتينة، كان ينظر إلى الأخير بوجهه الشاحب، وقد لف أحد معصميه بسوار من الحبق اليابس، وثمة ورد خال من أي لون.

أنا مكبث.

في العام 1864، كان دوستويفسكي على حزن شديد. سجن نفسه في قبو تحت الأرض انزوى به عن بقية العالم وكان يومذاك في الأربعين من العمر. كتب من داخل القبو أنه رجل مريض... أنه إنسان خبيث، وقال إنه لا يملك شيئاً مما يجذب أو يفتن. بلغ به اليأس مرحلة أنه قال: جوهر العصر العدم.

لم يكن دوستويفسكي في تلك الفترة من حياته يكلم أحداً، لكنه وبما يشبه الهذيان، دعا كل الناس إلى أن ينظروا حولهم. قال للناس: انظروا حولكم! إن الدم يسيل غزيراً، بل يسيل في فرح كأنه خمر العيد. انظروا إلى قرننا الحالي، قال دوستويفسكي، انظروا إلى نابليون! انظروا إلى أميركا الشمالية واتحادها الذي قام إلى الأبد!

سأل من داخل القبو عن المدينة وقال: ما الذي تلطفه المدينة فينا؟

إن المدينة- كما قال- لا تزيد على أن تنمي فينا تنوع الإحساسات و... لا شيء غير ذلك. وبفضل نمو هذا التنوع، قد يحدث أن ينتهي الإنسان إلى أن يكتشف في الدم نوعاً من اللذة؛ جعل دوستويفسكي يخاطب الناس من داخل قبوه فيكلمهم قائلاً: هل لفت نظركم يوماً إن أرهف المتعطشين للدم إنما كانوا السادة المتمدنين؟! ثم، وبعد فترة صمت، استأنف كلامه بصوت أبح فقال: إذا لم تكن المدينة قد جعلت الإنسان أشد تعطشاً إلى الدم، فمما لا شك فيه أنها جعلت تعطشه إلى الدم أخبث.

كان دوستويفسكي يتكلم من داخل قبوه وحبات من العرق البارد تنزلق فوق جبينه العريض. لم يكن يسير داخل القبو. كان جالساً على كرسي مهلهل يلعن الضجر قائلاً: آه من الملل، آه من الضجر. بئس السأم ناصحاً! إن السأم هو الذي يحملنا على أن نغرس في اللحم إبراً من ذهب.

في العام 1864، ومن داخل قبو مظلم تلفه رائحة العفونة، كان دوستويفسكي يحكي أنه في قديم الزمان كان الإنسان يرى أن من حقه سفك الدماء. فهو كان يسفك مرتاح البال هادئ الضمير، أما اليوم- كان يتأتئ دوستويفسكي هازئاً- فنحن نسفك الدماء مثلما كان يفعل الأقدمون، بل أكثر منهم بكثير. لكن الفرق أننا اليوم نعد السفك عملاً سيئاً، فهل هذا أفضل؟

لم يقدم دوستويفسكي من داخل قبوه الجواب. قام عن كرسيه وسار صوب باب القبو ليتأكد أنه مقفل بإحكام. بصق كتلتين من الدم المتخثر فوق أرضية قبوه وقال متوجهاً إلى الناس: افصلوا في الأمر بأنفسكم.

جعل يردد أنه مكبث أكثر من ألف مرة على مسامع دوستويفسكي الحزين. كان العجوز قد لفه غم شديد، وكان على استغراب من أمر ذكرى القبو التي استبدت بخاطره لا يدري لماذا وكيف.

لم يرحم مكبث رهافة دوستويفسكي وضعفه ليلتذاك الاتصال اللئيم. كان يقول "أنا مكبث" بنغمات متنوعة محاولاً مع كل نغمة سحب دوستويفسكي إلى آفاق من الكرب الشديد. تكلم مكبث في الأحمر القاني وقال في العالم... لم يكن يتكلم، كان بالأحرى يتمتم: لم يبق ما هو جاد في المصير البشري. كل شيء لغو بلغو. علو السمعة مضى والحسن مات، ونفذت خمر الحياة ولم تبق إلا الحثالة يتباهى بها قبو الأرض.

كان صوته عبر الهاتف يرتجف بينما دوستويفسكي ينصت كأنه هيكل سمع. أخبر مكبث دوستويفسكي أن ثمة من استعار منه يديه. قال له إن أحدهم أخذ يديه ليضرج بهما البحار العارمة ويجعل الأخضر أحمر قانياً.

لم يسمح مكبث لدوستويفسكي بنأمة حرف، لم يكلف نفسه عناء الصمت للحظة واحدة. لم يسكت مكبث لثانية، كان كأنه شلال كلام، شلال تمتمة. جعل يقهقه بخبث مكتوم هامساً في أذن دوستويفسكي أنه حتى إله البحار فشل في تنظيف الدماء من فوق اليدين. هناك من ورثني بحق يا حضرة الروائي العجوز، هناك من تزين بزيي، لكنه- صمت مكبث قليلاً ثم استأنف قائلاً- لكنه أخبث مني وأشر. صرتُ تلميذ ورثتي الأشقياء يا دوستويفسكي، قال مكبث... لا ريب أنهم ينظرون إليّ باستخفاف، إنهم يلفظون مكبث بازدراء.

أنا عندهم، قال مكبث، مخلوق بريء... لقد تجاوزوني. إن ورثتي أهل بالعالم أكثر مني يا صديقي العجوز، إنهم أحذلق مني بكثير، فأنا بحضرتهم- وقد مرت قرون على موتي المعروف- لا أتعدى أن أكون مخلوق قماط.

أنس مكبث في نفسه كثرة الكلام، فجعل يقول في العالم إنه روضة الدماء البهي. لا تؤاخذني يا دوستويفسكي، لا تؤاخذني يا عزيزي، لا تؤاخذني. فأنت نفسك قد وافقتني ذات يوم من سنة 1864 على شلال الدم.

أخذ مكبث يقرأ برصانة الأمراء أن الإنسان ما انفك شاعراً أن في الدم نوعاً من اللذة. إنه يسيل بفرح كأنه خمر العيد. كان يقرأ عبر سماعة الهاتف بينما دوستويفسكي يهز رأسه بحاجبيه

المقطبين لما، وعلى حين فجأة، طلب مكبث من دوستويفسكي أن ينظر إلى نابليون في لوحة دا؟يد.

كان نابليون، ومن داخل اللوحة، يبتسم. كان كأنه على علم بفحوى كلام مكبث وصحته. نصح مكبث الروائي العجوز أن يتمعن في ابتسامة الامبراطور. قال لدوستويفسكي حدّق بالامبراطور بإمعان، فهو حالة العالم كل يوم يا صديقي العزيز.

حتى هذه اللحظات، لم يأت دوستويفسكي بما يفرج عن كربه. كان محض مستمع إلى حكي مكبث عبر الهاتف الخشبي، وكان على اقتناع أن ثمة ما يحضَّر في الأجواء. كان على يقين وقد صارت ابتسامة نابليون شهشقة ضحك، كان على يقين أن هناك ما هو في طور الوقوع، أن هناك... على كل حال، لم يكن دوستويفسكي مرتاح البال لما سوف يقع. كان يمور في صدره قلق ما ستأتي به الأحداث، فالرجل يتمتع بحدس الكوارث كأنه بومة ليل جهيم.

انظر إلى نابليون يا دوستويفسكي، انظر إليه، إنه يرمقك بنظرات حادة كأنك نار، كأنك غصة الامبراطور في العالم، تطلع إليه، إنه لا يخشاك، فهو ما انفك يشعر نحوك بالعجز لكنه لا يأباك. هل لك بتحديه؟ هل لك بقهر الامبراطور يا عجوز الأدب اللولبي؟

لم يرد دوستويفسكي على أسئلة مكبث الغامضة. لقد أرهقته نظرات نابليون وكركرات ضحكه السيالة. صار محل حيرة بين مكبث وهذا المعلق على الجدار كأنه قدر.

تاه العجوز قليلاً عن لسان مكبث الثرثار، فالعجقة الامبراطورية لم تراع جانب التركيزعند دوستويفسكي المتهالك داخل هذا المنزل الجهنمي. إن الامبراطور كان من داخل لوحته كأنه ضباب شتاء قارس في سماء الروائي العجوز. كان من داخل اللوحة كأنه فجور لم يتأت لدوستويفسكي مسحه. أما مكبث، وفي قلب هذه اللجلجة الامبراطورية، كان يقرأ أن أحدهم، وفي شتاء العام 1864 ومن داخل قبو حقير، كان يكتب للناس ما يلي: إنه ليشق علينا أن نكون بشراً، بشراً يملكون أجساداً هي لهم حقاً، أجساداً تجري فيها دماء. إننا نخجل أن نكون كذلك ونعد هذا عاراً ونحلم في أن نصبح نوعاً من كائنات مجردة عامة. نحن مخلوقات ولدت ميتة، ثم أننا قد أصبحنا منذ زمن طويل لا نولد من آباء أحياء وهذا يرضينا ويعجبنا كثيراً. إنه يلقى في نفوسنا هوى، وقريباً سنجد السبيل إلى أن نولد رأساً من فكرة، نعم، من فكرة!!

ما إن أنهى مكبث القراءة حتى سُمع ما يشبه الطرطقة في كل أنحاء البيت. أما دوستويفسكي، فكان لا يزال مشدوداً إلى نظرات الامبراطور.

أين ذاك الطرق؟ سأل مكبث، ثم وبصوت اكتسى طابع الهلع: ماذا دهاني حتى صار كل شيء يرعبني؟

كل أرجاء المنزل ارتجت على وقع الطرطقة التي كانت كأنها صرير أسنان. صارت الجدران تهتز. حتى السلالم الخشبية كانت كالمرتبكة وقد ازداد الطرق حيناً بعد حين. كل شيء تجهم، كل شيء إلا الامبراطور.

صاح مكبث: من الذي جاء هنا... إني أسمع خبب حصان. أما دوستويفسكي، وقد مل صمته الصاخب، همس في أذن مكبث: ما عسى يكون إنسان بلا رغبة ولا إرادة إن لم يكن مسماراً في آلة أو شيئاً من هذا القبيل؟ لم ينتظر دوستويفسكي الجواب مدعياً أنه على عجلة من أمره. يبدو أني على موعد مع أحدهم، قال دوستويفسكي لمكبث، داعياً إياه إلى الاتصال فيما بعد.

كل شيء كان يوحي بالجلل لحظة إقفال الخط. يبدو أن ضيف البيت حضّر لمجيئه بوقار جبار. يبدو أنه ضيف كبير، فحتى ساعات الجدران الضخمة تكّت بضعة تكات ما إن شعرت بوجوده، هي المتجمدة منذ قرون. خافت دوستويفسكي السؤال في صدره عمّن يكون هذا الذي رقص الزمن لمجيئه بتكات غليظة تكّها؟!

كل شيء صار ثقيلاً، كل شيء سقط من فوق الرفوف. كل شيء تهاوى بخفة إلا امبراطور اللوحة المعلقة. يبدو أن ضيف البيت هو ضيف الامبراطور بالذات، فكر دوستويفسكي بحذر وارتياب بينما التكات تتزايد وكأني بها أصوات فزع وبعضها كان أصوات اضطراب.

حاول دوستويفسكي بكل ما واتاه من جهد روسي التملص من شبكة الأحداث والهرب إلى هامش النص، إلى ما تحت السرد. نعم، لقد جرب الروائي العجوز إسكان نفسه في حيز آخر لا علاقة له بما سوف يكون. لكن، والتكات تزيد من وتيرة تسارعها، كان لا بد لدوستويفسكي من الولوج في مزاج هذه التكات.

كان لا يزال قريباً من هاتف الخشب لما رن هذا الأخير رنة واحدة، فإذا بصوت مكبث وكأنه فحيح أفعى معمّرة يهمس في أذن دوستويفسكي أن الوافد كتلة حياة، أنه بقعة مباركة من الدم الحار. ثم، وهو يبلع ريقه، تمتم أن الوافد هيكل مقدس من الأحمر القاني في سمائنا المجعدة يا أيها الروائي العجوز، وأقفل الخط.

40

حتى الشيطان لم يكن يتوقع أن تأتي الحبلى الأبدية التي بطنها يشبه الجبل إلى منزل الأخير في يوم من الأيام. فهذه الحبلى، وقد صارت عند أعلى الدرج، ما زارت يوماً أحداً في بيته. فهي لا تشارك الناس إلا المآتم والأتراح.

استقبلت أم الأخير المرأة بترحاب يشوبه استغراب وكان في يدها اليسرى ديك يصيح بصوت مخنوق. أفلتت الديك من يدها وجعلت تساعد الحبلى في تسلق الدرج، ثم وبشكل من الأشكال، جرجرتها إلى كنبة صغيرة مركونة في إحدى زوايا السطيحة. رفضت الحبلى الولوج إلى داخل المنزل مدعية أن زيارتها قصيرة، وكانت طوال الوقت تمسد بكفها فوق بطنها الذي يتاخم الانفجار.

كانت خطوط العرق تضفي على وجهها لمعاناً مريباً، وكانت طوال الوقت تلجلج بكلمات لا تمت إلى دجاجات أم الأخير بصلة. حاول الأخير الوقوف على بعض ما تقوله الحبلى، لكنه لم يستطع أن يفهم شيئاً وإن كانت ثمة تمتمات لها علاقة بشكر الله وحمده وببعض الأولياء الصالحين وقبور وبخور وغيرها من الوشوشات التي اخترقت مسامع الصبي الذي كان لا يزال جاثماً فوق فراشه على مقربة من نافذة كبيرة تطل على سطيحة البيت.

رفضت الحبلى أن تتناول أي شيء، حتى الماء رفضته، فهي كانت تحمل داخل كيس من القماش الأسود قنينة ماء جلبتها من السبيل الملوث الذي ما فتئت تغب منه غباً.

أين الأخير؟

انتفض الصبي فوق فراشه ما إن نطقت المرأة باسمه. التفت صوب بودلير مهتاجاً، لكنه لم يجد أحداً. كان بودلير قد تلاشى لا يعلم حتى الأخير أين اختفى بودلير بغتة.

بصوت أجش: أين الأخير؟

امتقع وجه الصبي بمدّ من الذعر لا يدري كنهه. شعر وكأن كومة من الجمر سكنت قعر أذنيه، وصار وجهه إلى أصفر مائع. عانى الأخير تبدلاً في ملامحه بلحظة، فإذا به في لج من الخوف لم يدر له سبباً.

التفتت أم الأخير إلى حيث كان الصبي راقداً، ولم تجب الحبلى سؤالها، لكنها، وبلهجة تنم عن استنكار وقلة صبر، سألت الحبلى ماذا تريد من الأخير. قامت الحبلى عن كرسيها، وتوجهت صوب النافذة حيث كان الأخير مستلقياً. جعلت تنظر إلى الصبي بإمعان، وكانت طوال الوقت تمرر إحدى يديها فوق بطنها الكبير.

لم تباشر الحبلى الأخير بكلمة أو بإشارة، لم تباشره بأي شيء، فهي كانت أقرب إلى اللغز وكانت أشبه بسر لا يمكن سبر غوره. وقفت أمام النافذة للحظات وكانت أنفاسها الحارة تلطم وجه الصبي بوابل من السخونة الخفيفة. لم يزح الأخير وجهه، كان كمن مسه جنّ، كان الصبي متصلباً فوق فراشه بينما الحبلى الأبدية ترمقه بنظراتها وتلوك لعابها في فمها كأنه دسم.

ماذا تريدين مني؟! سأل الأخير المرأة وقد ثاب إلى بعض رشده. كرر السؤال على المرأة التي حتى هذه اللحظات كانت تزدرد الأخير بعينيها المحاطتين بخيط من الكحلي المخيف.

ماذا تريدين مني؟ فأنا لم أقترب من باب بيتك في أي يوم!! تولت الأخير حالة من الـ"ماذا تريدين مني؟" يكررها بشكل متواتر، بينما المرأة كأنها قعر لا قاع له من الشخوص الثاقب. اقتربت أم الأخير من الحبلى الأبدية، وعملت جاهدة على إعادتها إلى كرسي مركون في إحدى الزوايا. لكن، وبعزم لم تتوقعه أم الأخير، عمدت الحبلى إلى نزع يد المرأة عن يدها وكأني بها قد تولتها نوبة حنق وغضب. جعلت أم الصبي وقد تقهقرت إلى الخلف بضع خطوات تمرر النظر بين ابنها والمرأة المجنونة كما همست بخوف. كان قلب المرأة يدق بسرعة، حتى الأخير لاحظ علامات الارتياب والذعر على محيا أمه، ولاحظ أيضاً علامات الحنق.

ماذا تريدين من ابني؟ قالت المرأة بعنف، وقد نجحت في استجماع قواها على الرغم مما تلبسها من خوف محموم. أرجوكِ، إذا كان الأخير قد أساء إليك بأمر أطلعيني عليه، وأنا أتكفل بابني... ثم، وقد بلعت صوتها المرتجف، أجهشت بالبكاء.

هي المرة الأولى التي يرى فيها الأخير إلى أمه مجهشة، ربما هي المرة الأولى التي يراها فيها تبكي. جحظت عيناه على آخرهما، قام من فوق فراشه، ثم، وعبر قضبان النافذة الحديدية، شد قبضته فوق عنق الحبلى الأبدية وجعل يصيح بأصوات فزعة وقد اغرورقت عيناه بالدمع. كان الأخير يشد القبضة فوق عنق الحبلى، بينما أمه وقد تقدمت خطوتين، تحاول نزع يد الأخير عن المرأة المتشحة بأسود لا ينتهي. بذلت أم الأخير مجهوداً هائلاً في شيل يد الصبي عن عنق المرأة، وكانت تبكي تماماً مثل الأخير.

ران على المشهد صمت يضارع الخلاء المحض، وكل من الثلاثة كان شاخصاً في الآخر كالمعتوه.

لماذا تريد النيل مني يا أيها الشقي الصغير؟ سألت الحبلى الصبي المفصّد بالعرق هذا السؤال وقد ولته ظهرها حيث كانت تدعك رقبتها بيدها وتبرم هذه الرقبة ناح اليمين وناح اليسار.

لماذا تريد النيل مني يا عزيزي؟ ألا تدري أن موتي وبال ما بعده وبال؟ ألم تخبرك هذه المرأة- وقد أشارت بأصبعها إلى أم الأخير- أن قتل العجائز يودي إلى نار الجحيم؟ هلمّ يا ولد، هيا انهض وتعال معي، عندي في البيت ما أريد أن...

طاش صواب أم الأخير وقد رأت إلى ابنها ينسحب من فوق الفراش، فيرتدي ملابسه على عجل ويلاقي الحبلى عند أعلى الدرج، وكان في حركاته كمن به مس شيطاني. كان الأخير كالمسحور، كان كالتائه في صحراء من النساء الحبالى. نعم، كان الصبي قاب قوسين أو أدنى من الجنون.

أما الديك، ذاك الديك الذي كان يصيح مخنوقاً في قبضة أم الأخير، فقد كان طوال الوقت متشبثاً بواسطة مخالبه بحبل غسيل عند آخر السطيحة، وكان ينقر الهواء ويصيح... كان بالأحرى يزيزق، كان ديك أم الأخير ينقر الهواء فوق حبل الغسيل ويزيزق.

قالت أم الأخير إن الحبلى الأبدية هي الشيطان الرجيم. أخبرت المرأة نساء الحي ورجاله أن الحبلى شيطان لعين، إنها الشيطان ببطن كبير وبعيون كحلية. سردت خبرية الحبلى وما جرى مع "ابني" على مسامع كل الناس. ثمة من صدقها وثمة من رأى في كلامها محض افتراء على الحبلى

وتعدٍ على هذه المرأة الوحيدة. كلمت أم الأخير الناس فقالت إن للشيطان شكل امرأة وهو يقطن هذا الحي. حاولت إقناع بعض القوم بطرد المرأة من حيهم، لكن لم يجارها أحد، حتى الأخير. إنها امرأة مسكينة، وإن كانت ببطن عظيم، قال الأخير. حاول لجم أمه وإسكاتها، جرب الصبي طرد الشيطان من رأس أمه وإقناعها أن الحبلى حزينة، إنها مسكينة قال الأخير بصوت أجش وعلامات من الكرب تلفه. همس الصبي في أذن أمه أن تنسى أمر الحبلى وأن تزيحها عن بالها. كلمها في ديكها وقال لها انصتي يا أمي فقط إلى صياح الديك.

ضحك الناس كثيراً بسبب نصيحة الأخير. كل من كان على سطيحة المنزل مساء نصيحة الديك ضحك، كل الحي تملكه الضحك إلا الحبلى الأبدية وتلك التي حبلت يوماً بمن يلقَّب بالأخير.
فالحبلى كانت وقت النصيحة في بيتها تنشد لا أحد يدري ماذا. كانت هناك في بيتها حيث رافقها الأخير بغتة... كانت هناك حيث كلمت الأخير في أمر حيث أخبرته حيث قالت له... كانت هناك في منزلها المظلم حيث همست في أذن الأخير... حيث وشوشته... حيث لا أحد يدري ماذا قالت للصبي... حيث السر سيبقى أبدياً.

41

ماذا قالت الحبلى ذات البطن الأبدي للأخير لما شفطته إلى بيتها من بين أحضان سريره؟ كل الناس شأن أمه حاروا الجواب. عربدتْ خبرية ذهاب الأخير إلى منزل الحبلى في أذهان ناس الحي والأحياء المجاورة. عربدت هذه الخبرية وعهرت حتى صارت محل كل استفسار ومحل كل سؤال. أما الأخير، أما هذا الصبي الطازج، فكان ينصح سائليه أن لا يهتموا كثيراً بأمر تلك الزيارة السرية، وأن ينصتوا إلى محض صياح الديك. كان الأخير ينصح الناس لما يسألوه عن الحبلى أن ينصتوا إلى صياح أي ديك.

لكني لا أملك ديكاً، قال الكاتب ممازحاً الأخير، ومع هذا رفض الصبي إعلام صديقه الجميل ماذا همست في أذنه تلك الأبدية التي بطنها يشبه الجبل. لم يكلمه إلا عن وعاء مقعر من الزجاج الشفاف يحوي أسناناً صفراء.

يقال إن الضبع جاع فالتهم أرجل كل الناس، أما السماء ليلة ذلك الضبع الجائع فقد تلبدت بسرب داكن من الذباب الأسود، وثمة رجل يقال إنه قفز من فوق السطح منتحراً بعد طول استمناء.

اهتم الكاتب بأمر الضبع، وسأل الأخير إذا كان هذا الضبع يقطن في بيت الحبلى. مرت أسابيع قبل أن شرع الأخير بالإشارة أمام الكاتب ماذا دار من حديث على لسان صاحبة البطن.

شدت أم الأخير فوق زند الصبي تميمة أخرى. فالأخير بعد تلك الزيارة الكالحة صار إلى سوء حال، حيث ثمة أسود تحت عينيه وضعف شديد ألم ببنيته وصار قليل الإصغاء قليل الكلام ودائم التيه... صار ابني بسبب هذه اللعينة الشمطاء مسلولاً مسطولاً كما كانت تردد أمه التي تضاعف تعلقها بالأخير حتى قارب حد العبادة، كما صاح أبوه يوماً نازلاً باللائمة على زوجته داعياً إياها أن تترك الولد وشأنه.

... إن الضبع كبير جداً وطنين الذباب يصم الآذان.

كان الكاتب يقرأ في صحيفة بين يديه أن أحمدي نجاد، وفي الذكرى الثامنة عشرة لثورة الخميني، يؤكد أن زوال دولة إسرائيل بات وشيكاً بإرادة اللبنانيين والفلسطينيين، لما كلمه الأخير عن الضبع وعن الذباب. رمى الكاتب الجريدة من بين يديه وسأل الأخير إذا كانت الحبلى الأبدية قد زودته بمعلومات أكثر عن الضبع وعن الذباب. سأل الكاتب الصبي وقد عاد يتصفح الجريدة عن أولئك الذين التهم ضبع الحبلى أقدامهم، وسأله عن أشياء أخرى. لكن الأخير، وقد تشبث ببقية صمت، لم يرد على الكاتب الذي كان يقرأ بلا مبالاة أن السيد مصطفى بور المحمدي، وهو وزير داخلية نجاد كان يدعو إلى اعتماد زواج المتعة للحد من ظاهرة الدعارة المتفشية في المجتمع الإيراني. لم يهتم الكاتب، وفي غمرة شرود الأخير، بزوال دولة إسرائيل، كما أنه لم يهتم بظاهرة الدعارة، فالصبي يكابد هماً حقيقياً ولا بد من معرفته، وهو ما كان يحاوله الكاتب من خلال استنطاق الأخير. جرب هذا الكاتب أن يأتي بالأخير إلى مساحة من الصراحة، بل إلى مساحة من الوضوح. شعر أن الأفكار مشوشة في رأس الصبي، وأنه على شيء من التضعضع الذي لا يسمح له بالتركيز. فكر

الكاتب أن بالأخير حاجة لأن يتكلم عن زيارته الغريبة إلى صاحبة البطن. خمّن أن صديقه عند حد من الشرود يمنعه عن أن يفصح بهدوء عما دار من حديث بينه وبين تلك المرأة أو عما كلمته به.

لم يخطر في بال الكاتب ممكن واحد من ممكنات الحبلى الأبدية وقد اصطحبت الصبي إلى بيتها المعتم. فهو لم يتوقع حديثها مع الأخير ولم يحاول أن يخمّن همها أو ما يراودها من أفكار، فهذه المرأة هي لغز عند الكاتب وهي إزاءه حالة من الغرابة التي تعودها منذ سنوات خلت شأنه في ذلك شأن أبناء الحي.

ركز الكاتب في حديثه مع الأخير على قصة الضبع. كان كأنه على ثقة من كلام الصبي بشأن الضبع والذباب. موّه معالم وجهه بسيماء الجدة والاهتمام، وكان أثناء كلام الأخير كأنه حجة الصدق التي يجب أن يركن إليها الصبي في كل آن. طمأن الكاتب الأخير أن حديثه حقيقي وأن كل ما يقوله لا يرقى إليه الشك. لم تساور الشكوك الكاتب في أن الأخير تعس وأنه بحاجة إلى من يفضي إليه. مرت ساعات والأخير تارة يلتلت بكلمات غير مترابطة وتارة يغرق في صمته كأنه حوت. كان هم الكاتب أن يخرج صديقه من تلابيب صمته، لكن الأخير وكمن فهم خطة الكاتب، جعل يواري العبارات بوابل من الغموض الذي كان الكاتب على ثقة تامة أن الأخير ليس مسؤولاً عنه.

إن غموض الأخير في كلامه عن الزيارة ليس حيلة كما فكر الكاتب، لكنه غموض حقيقي لا ينفصل البتة عن ما يعتور الصبي من اختلال في ذهنه ومن اضطراب. كان الكاتب والأخير كمن يتحايلان على بعضهما البعض، فالأول يريد جلب الثاني إلى دائرة الكلام الواضح، والثاني يجاهد اللسان في فمه بأن يلتف على الكلمات.

... لكن الضبع كبير وطنين الذباب لا يرحم والشمس انحجبت خلف سرب من الأسْوَد الطنان، قال الأخير وقد قام عن مقعده بتثاقل وتوجه إلى رفوف الكتب:

"في ذلك الوقت كان الإغريق في كرب عظيم بمناسبة تقديم الجزية التي اجبرهم عليها مينوس ملك كريت. كانت هذه الجزية تتألف من سبعة شبان وسبع صبايا يرسلون كل عام ليتغذى بهم المينوتور، وهو وحش بجسد ثور ورأس إنسان. كان قوياً وشرساً. سُجِن في المتاهة التي بناها ديدالوس، وكان الذي يدخلها لا يعرف مهما حاول أن يجد طريقاً للخروج. هنا كان يجول المينوتور ويأكل الضحايا البشرية."

من هو ديدالوس؟ سأل الأخير الكاتب وكان ما زال يتصفح الكتاب الضخم بين يديه.

"التجربة الشعرية للإله".

كان أحدهم يلقي محاضرة في إحدى قاعات الجامعة الأميركية في بيروت بعنوان "التجربة الشعرية للإله" لما دوّى انفجار ضخم هز مدينة بيروت عن بكرة أبيها. بعد لحظات، وكان المحاضر لا يزال في خضم حديثه، دخل أحدهم القاعة وقال صائحاً أن أحد جماعة فتح الإسلام فجر نفسه أمام فندق في بيروت. لكن المحاضر وبرباطة جأش يحسده عليها الصخر القابع في قعر الوديان، رد على الصائح قائلاً إنه ليس انفجار. ثم التفت إلى الحضور وبابتسامة تنمّ عن تهذيب ووقار عظيمين قال: حسناً يا أصدقائي الحضور، ما سمعناه منذ قليل هو نمط متطور جداً من التجربة الشعرية للإله.

أوردتْ الصحف أن المئات لقوا حتفهم، وتحت عنوان التجربة الشعرية للإله كتب أحدهم، وفي أحد الملاحق الثقافية، أن الجامعة الأميركية في بيروت شهدت أمس محاضرة قيمة لأحد نقاد الشعر الحديث بعنوان "التجربة الشعرية للإله". وقد نوّه كاتب المقال بصدفة تزامن إلقاء المحاضرة مع لحظة تفجير أحد عناصر فتح الإسلام نفسه في أحد شوارع بيروت!!

لم يرد الكاتب على الأخير بشأن ديدالوس، فالرجل كان قد عاد إلى الجريدة يقرأ أن أحد علماء جامعة الأزهر في القاهرة قال في محاضرة له: إن الصحابة كانوا يتباركون في أن يشربوا من بول الرسول.

من هو ديدالوس؟ أما في غزة، فقد أعلنت حركة حماس النصر وقد استولت على مراكز السلطة هناك.

من هو ديدالوس؟ مجموعة مسلحة من حزب الله عمدت إلى توقيف دورية مؤلفة من ثلاثة عناصر من قوى الأمن الداخلي في أحد أحياء الضاحية الجنوبية لبيروت، واقتادتهم إلى أحد المراكز التابعة للحزب وعمدت إلى استجوابهم بعد أن جردتهم من أسلحتهم.

من هو ديدالوس؟ إنه من بنى المتاهة، قال الكاتب للأخير.

42

"... والذي أطلبه منكم يقيناً هو أنه حينما يكبر أطفالي الصغار عاقبوهم أيها الأثينيون بأن تقلقوهم كما أقلقتكم أنا."

أخبرتني أمي عن أمها عن جدتها أن هذه الأخيرة كانت تحكي مع الجن. حتى الأمس القريب لم أصدّق حكاية أمي. لكني اليوم وقد شاهدتُ... ليس هذا موضوع الرواية، فلنعد إلى الكاتب الجميل.

كان الكاتب في حيرة من أمره بين أن يقرأ مذكرات كيسنجر أو أن يقرأ حياة هيغل. فكل من الرجلين له سطوته الخاصة على الكاتب صديق الأخير، وكان من الخطأ شراء كتابيهما في الوقت نفسه.

"قسماً بقدرة الكلب على الشمّ أيها الأثينيون، واجب عليّ قول الحقيقة لكم أن هذا هو ما أنا على يقين منه: هؤلاء الذين كانوا أكبر شهرة بالحكمة بدوا لي أفقرهم إليها على حين أن آخرين كانوا يُعتَبَرون أقل منهم حكمة كانوا في الحقيقة رجالاً أجدر من وجهة نظر الحكمة والعقل واليقين."

بعد طول تقليب بين هيغل وكيسنجر، عقد الكاتب العزم على ترك الاثنين وقضاء الليل مع سقراط في "محاورة الدفاع"، وهي المحاورة التي كتبها أفلاطون ليبيّن فيها دفاع سقراط عن نفسه أمام قضاته الأثينيين.

فعلى الرغم من أن الكاتب الجميل كان يحفظ هذه المحاورة عن ظهر قلب، فإنه ما انفك يعود لقراءتها بين الحين والآخر، حتى أنه في إحدى المرات أخبر الأخير أن الكتاب الوحيد الذي أدى به إلى البكاء هو كتاب محاكمة سقراط.

كان الليل قد صار بعد منتصفه بقليل، والهدوء يعم الأرجاء إلا من أصوات الكلاب، لما، وفي عز دفاع سقراط عن نفسه، خلع أحدهم باب منزل الكاتب وثمة ثلاثة أو أربعة ملثمين جعلوا ينهالون على الكاتب بوابل من الضرب والشتم واللعن وسكين حاد على العنق كاد أن يفصل رأس الكاتب عن باقي جسده لولم ترتسم في هذه اللحظة بالذات امرأة عجوز عند باب المنزل المخلوع.

ما الذي يجري هنا؟ انطلق صوتها كأنه مواء قطة عجوز يخترق عتمة الضرب والسكين. أي من الرجال الملثمين لم يحتمل البقاء لحظة داخل المنزل وقد تشكلت هذه العجوز كأنها شبح عند الباب المخلوع. ذاك الذي كان يهم بقطع رأس الكاتب الجميل رمى بالسكين من يده وهمّ بالانصراف مسرعاً باتجاه الباب حيث كانت تقف العجوز بعينيها اللامعتين.

كادت الحبلى الأبدية أن تسقط فوق العتبة وقد دفعها صاحب السكين بكلتا يديه. زاحمها الآخرون الباب مذعورين وآخرهم كان يحمل في يده كتاباً امتشقه بسرعة عن الأرض. اقتربت الحبلى من الكاتب الذي كان أقرب إلى الإغماء، لكشته بعصا خشبية كانت بيدها ثم جعلت تتأمل خيطاً رفيعاً من الدم عند عنقه ودم آخر فوق وجهه وعند شفتيه. انحنت على وجهه بتثاقل مدوٍ، وتلمستْ إحدى أسنانه الذي كان على وشك السقوط جراء لكمة أو شيء من هذا القبيل. أخرجت من داخل كيس أسود كان بحوزتها قنينة ماء سكبتها على وجهه ثم همّت بالانصراف.

"... ها قد حانت ساعة الرحيل، أنا لأموت وأنتم لتعيشوا. من منا يذهب إلى المصير الأفضل؟ الأمر غير واضح أمام الجميع باستثناء الإله."

بعد مضيّ ما يقارب الثلاث ساعات على دخول الملثمين منزل الكاتب، كان أحد هؤلاء يقرأ في "محاورة الدفاع" لأفلاطون أن ساعة الرحيل قد حانت ليرمي بعدها بسقراط في أقرب مكب للنفايات. في هذه الأثناء، كانت الحبلى الأبدية قد صارت في بيتها المعتم تحصي عدد الأسنان داخل الإناء الزجاجي وقد زودتها هذه الليلة بسن إضافي. أما الكاتب، فكان يمخمض فمه بالماء المالح متسائلاً إذا كان سنه المفقود قد صار في بطنه، فهو لم يجد لهذا السن كما لم يجد لسقراط أي أثر في الأرجاء.

أسف الكاتب لضياع سنّه وسقراط، وحاول أن يلبي حاجة جسده للاسترخاء لكنه لم يستطع. لم يفكر في أولئك الذين انهالوا عليه بالضرب، لم يفكر في أي شيء. انسحب إلى زاوية من الغرفة المبعثرة ورمى بنفسه فوق أريكته الزرقاء.

مع صياح الديكة وارتشاف الشاي الأسود، جعل يقرأ أن الوافد هيكل مقدس من الأحمر القاني في سمائنا الشابة يا حضرة الروائي العجوز، بينما هيغل وكيسنجر والسكين الذي كان فوق رقبته منذ ساعات احتلوا مكانهم فوق طاولة صغيرة قرب الأريكة الزرقاء.

43

... وأقفل الخط.

" وإنْ أعثرتك عينكَ فاقلعها. خير لكَ أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتُطرح في جهنم النار حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ." (إنجيل مرقس).

لم يكن الذنْب ذنبي فيما اقترفتُ من أخطاء، همس دوستويفسكي في أذن نفسه. كلم نفسه أن الجريمة واقعة مثلى في عالم من الاضطراب الأصلي. كانت التكات تصدح بعضها بتشنج وبعضها الآخر بصراحة لما ازداد صوت الطرطقة في المنزل العتيق.

لم يدر الروائي العجوز أسباب ما ألم به من نوبة تبكيت ضمير، ولم يفهم أسباب ما اعتراه من إحساس بالذنب لا يقاوم. كان دوستويفسكي في وعي نفسه مجرماً خطيراً... لحس كفّ يده وهمس أنه جزار البدايات وجزار النهايات.

إرث ميتافيزيقي من الشر ينتابني؛ جعل يحك رأسه ويتكلم عن ميتافيزيقا الشر الأصلي بينما الطرطقة تزداد باضطراب.

لم يكن صاحب الظل التعيس مشاركاً لا من قريب ولا من بعيد في هذه المعمعة اللامنظورة. لم يتأتئ بحروفه الملتوية، فهو كان كمن فرّ لتوّه من مصيدة اشترك في وضعها الرب والشيطان.

فجأة، علقتَ يا دوستويفسكي الاضطراب، يا صاحب الجماجم المكشرة. ها أنا ذا أوقع بك أخيراً، أوصد أبوابي عليك. الصوت التعيس هو من كان يتكلم الآن. لم يفاجئ الصوت دوستويفسكي، فهو كان محل توقعه منذ لحظات مكبث الأولى.

ثمة ما يربط هذا الصوت بلعنة الدم في رأس صاحب "الممسوسون"، في رأس دوستويفسكي. ثمة ما يبرر أن ينطق الصوت الآن قال دوستويفسكي مخاطباً نفسه، بينما عجقة هذا الآتي تلمّ بالبيت عن بكرة أبيه.

إنه هر أعور ضخم، يسير بخطى عسكرية مندفعاً بصدره إلى الأمام.

44

هلل الامبراطور في اللوحة ما إن شاهد الهر، بينما صاحب الظل التعيس جعل يتدثر بكلمات لا تليق إلا بأرباب عظام. أكثر ما فاجأ دوستويفسكي مع وصول هذا الهر أن عقارب ساعات الجدران كادت أن تقفز من فوق موانئها مرحبة بهذا الهر المتعجرف صاحب الهيكل الذي يشبه النصر.

أهلاً بسيد الأوقات المنتصبة، أهلاً بك يا هيغل، زعق صاحب الظل التعيس. إنه هر أشقر ضخم بعين واحدة زرقاء يسير بخطى منتظمة ويدعى هيغل.

بالنسبة للعاملين في الفلسفة، هيغل هو من وضع المنهج الجدلي وألف كتاب "فينومينولوجيا الروح" بالإضافة إلى كتب أخرى. أما أولئك الذين لم يسمعوا بهيغل قط، فهيغل هو هر ضخم أشقر اللون بعين زرقاء. اقترب الأعور الضخم من دوستويفسكي بوقار وصرامة تاريخيين. جعل يتحسس الروائي العجوز عبر أنفه، ثم طفق يدور حوله ويشمه بنهم.

لم يتوقف دوستويفسكي البتة عند عدم تحذير الصوت لهذا الهر كي يبتعد، فكأننا بدوستويفسكي كان على يقين تام أن المشهد تغير بكله، وثمة منظورية أخرى ستجتاح البيت وقد جاء هيغل الأعور صاحب الخطى العسكرية والأنف الحقير.

منذ دخوله إلى هنا، شعر دوستويفسكي بمأزق أن يحاول الإنسان إلقاء القبض على شبح. نعم، اكتشف دوستويفسكي ومع لحظات هيغل الأولى أن صاحب الظل التعيس ليس أكثر من شبح موتور.

كان هيغل يحدج دوستويفسكي بنظرات تاريخية، بينما دوستويفسكي يخافت السؤال في صدره: شبح من يا ترى؟

ربما وصلنا إلى مرحلة من القص يجب أن نبيّن بجد من هو صاحب الظل التعيس، لكن، وقد انوجد هيغل الأعور، فلنتتبع خطواته الشيقة الآن ولنترك صاحب الظل، فالبيت يعبق على كل حال بما لا نهاية له من تأويلات. فلنترك التاريخ يأخذ مجراه ويرسم صورة صاحب الصوت أمامنا نحن قراء الكتاب وأمام دوستويفسكي الكئيب.

يا لفظاظة هذا الامبراطور وقلة ذوقه وازدرائه بكل الخصائص الشخصية التي يتمتع بها دوستويفسكي. فها هو امبراطور المقت يروّض أجواء البيت بما يتناسب مع الأعور الذي تفوح منه رائحة النفتالين.

إحدى ساعات المنزل الضخمة جيّشت تكاتها بوابل من الزغاريد وانتظمت وفق سير الأعور فوق أرضية البيت. حتى هذه اللحظات، لم يأت دوستويفسكي بنأمة حركة، إنه مجرد كائن مسمّر في مكانه الذي يعبق بتكات الساعات وابتسامات الامبراطور. وجهه الشاحب كان حطبة، حيث كان واقفاً كخيط هزيل متدثراً معطفه الأسود السميك ومدججاً بوابل من التوقعات.

لو كان دوستويفسكي هو من يقوم بكتابة هذا المقطع ماذا كان ليكتب يا ترى؟ سأل الجميل نفسه هذا السؤال، بينما نباح الكلاب في الخارج يخالط سكون العتمة المنسحبة أمام لحظات الفجر الشقشاق.

ماذا كان سيكتب دوستويفسكي لو كان "الإرهابي الأخير" من تأليفه؟ ماذا كان سيصنع بنفسه أمام هذا الأعور الضخم؟ هل ثمة من منطق في أن يكون مصير هيغل هو عينه مصير كافكا وبيكيت وكامو وجان بول وبريخت، وغيرهم من الورثة الأشقياء؟

خرج الكاتب الجميل كلية من داخل نفسه، وحاول أن يتقمص دوستويفسكي لما كتب على غفلة من هيغل والتقدم والتاريخ ما يلي:

استهل اليوم- يقصد دوستويفسكي- بأن هاتف أحدهم كي يأتي إليه تواً. لم يهاتفه عبر هاتف أو شيء من هذا القبيل، إنما هاتفه تخاطرياً بواسطة ذهنه الوقاد، إذ، وبلحظة إنسانية، إنسانية جداً، تشكل أحدهم وكأني بجنبات المكان كله قد هيأته بالقوة إذا أردنا أن نستعير الإغريقي أرسطوطاليس. لم يتكوكم المستدعى أمام دوستويفسكي أو ينبطح أرضاً، إنما تمادى بقامة منتصبة وقد لفه شعور يتراوح بين الاستنكار والقبول. لم يصافح دوستويفسكي الرجل أو يسلم عليه. كلمه بأن إقامته في هذا الكتاب الذي تقرأونه الآن باتت وشيكة على الانقضاء. أما أنت يا عزيزي- هكذا كلم دوستويفسكي الرجل- فلا بأس أن تغادر كتاب "الممسوسون" من وقت لآخر. بدا وكأن صحبة قديمة تقوم بين الرجلين، فأي منهما لم يتهيب وجود الآخر، بل وبوجه من الوجوه قد يحسبهما المرء وكأنهما شخص واحد!!

جحظت عينا صاحب الصوت التعيس، وقد تنبأ الكاتب صديق الأخير أن دوستويفسكي سوف يخط هذه الكلمات. في الواقع، هو لم يجحظ، لكنه زعق صوتاً ينم عن جحوظ هائل للعينين.

التفت دوستويفسكي صوب مصدر الصوت، وكان بعضوه انتصاب هائل لم يعهده منذ دخوله إلى هنا. نظر إلى بقعة داكنة يعلوها رف يضم كمية كبيرة من الكتب... من هناك انطلق الصوت. ذاك الذي انتصب أمام دوستويفسكي بقامته المديدة، لم يجارِ واضعه في تبرمه من فراغ البقعة الداكنة إلا من الكتب. لم ينظر هذا المنتحر كما كتبه دوستويفسكي يوماً في رواية "الممسوسون" إلى مصدر الصوت التعيس. هل بهذا الكائن المجازي دراية أكثر من دوستويفسكي بفحوى صاحب الصوت؟ لم يفكر الكاتب الجميل بهذه المسألة كثيراً، إذ ثمة التباس غريب وفريد من نوعه كان يتأسس داخل البيت وهو التباس معقد ويشي بالحيرة والتذبذب الذهني. لذا، وكما قال الكاتب في سريرته السرية، لا بد من سرد هذا الالتباس في مقطع ما من مقاطع هذا الكتاب.

أما المنتحر، فكان في هذه الأثناء يشتم هيغل ويشتم الامبراطور ويقول في دوستويفسكي العظيم أنه مريض بحاجة إلى علاج سريع، وإلا ثمة حرب جديدة.

45

رمى الكاتب القلم من يده وركض نحو الباب ناقزاً. كان القرع قوياً وثمة من يصرخ في الخارج: افتح الباب، افتح الباب.

إنه صوت الأخير. كان الصبي يصرخ بغضب، وما إن فُتح الباب حتى دخل مسرعاً وجعل يجهش بالبكاء. جرب الكاتب شد أزر الصبي وفهم ما يجري، حاول تهدئته والوقوف على حاله... نظر الأخير إلى الكاتب وقال ماتت أمي، لم يعد عندي أم.

انزوت العجوز الطيبة في وحدتها الأبدية وراحت تبكي

وتقول: ها نحن نروّع الأطفال الصغار الذين نشتهي قلوبهم.

كان وجه الأخير يعاني تبدلاً في الملامح يدل على ما يشبه الإزهاق. لطالما تعوّد الكاتب شحوب وجه الأخير، لكنه اليوم ينظر إليه فيظنه فيض موت. تكلم الأخير على موت أمه متنهنهاً. قال لصديقه لم تستيقظ أمي اليوم من النوم. تكلم على ابتسامة أمه وقال إن أباه فشل في إيقاظها عند الصباح. صار أبي يصيح كأنه ديك أمي الرومي، صار يصرخ ويولول ماذا أفعل من بعدك يا نعمة أيامي الكثيرة. تكلم الأخير أمام الكاتب أن ناس الحي ركضوا إلى بيتهم وهم الآن مجتمعون عند جسد أمه المجثى والكل يبكي. لست أدري من قتل أمي، قال الأخير للكاتب... أنت أخبرتني أن الله قد مات، من قتل أمي إذن؟! أرجوك أخبرني أين ذهبت روح أمي؟ كانت ركبتا الولد تصطفقان وذقنه ترتج وكان أحمر العينين بشعر مشعث. لم يقرأ الكاتب حساب موت أم الأخير، لم يظن أن الولد سيقع فريسة اليتم الجائر بهذه السرعة. عمل بكل ما واتاه من جهد على تهدئة الصبي الحزين، وسار به إلى حيث الجثة الحزينة. كان البيت يعج بسكان الجوار وصوت القرآن يعم المكان. كل نساء الحي كنّ هناك وعلى رأسهن الحبلى الأبدية التي ما إن أطل الكاتب حتى نظرت إلى فمه ونمّت عن شفتيها ابتسامة بسبب فراغ السن الضائع من فم صديق الأخير. كانت الحبلى تندب المرأة بأبيات من الشعر تخالط آيات القرآن، فتقول: إن الموت حق وإن الله خير العالمين. كانت النساء ترددن ندبيات الحبلى بوتيرة بطيئة، فيعلين الصوت تارة ويخفضنه تارة أخرى بينما الجثة كأنها عدم في حضرة القرآن الكريم. ثمة من قبّل الصبي وأبدى علامات العطف عليه، فالكل يعلم مدى تعلق أمه به ومدى تعلقه بأمه الميتة. الكل كان يشعر فقدان الأخير لأمه أكثر من باقي الأشقاء. كان الأخير في مأتم أمه طاقة حزن شديد. من حين لآخر، كانت تنتاب الصبي شردة أو سبحة خاطر، فيتوه عن جمهرة المعزين ليعود فيثوب إلى رشده من جديد. لم يفارق الكاتب الأخير لحظة، لم يسمح له الأخير بالابتعاد عنه فشختين. ظل الصبي لصيقاً بالكاتب، ظل ملازماً له، وفي غمرة ندب الحبلى وصوت القرآن الكريم، سأله إذا كان متيقناً من أن الله مات.

نظر الكاتب خلسة إلى جثة أم الأخير. كانت كما وصفها ابنها على شيء من الابتسام الخجول. كانت بها، وكما مايزها الكاتب، رغبة بالاستيقاظ. شعر الكاتب أن بأم الأخير حاجة لأن تنهض وتقبل ابنها. خمّن أن المرأة على وشك البكاء بسبب حزنها على هذا الجاثم هناك يبكي فوق رأسها ويُطلق عليه لقب الأخير.

على هذا الفراش ترقد المعبودة، أميرة الأحلام.

كيف جاءت إلى هنا؟ من الذي جاء بها؟

أي سحر نصّبها إلهاً على عرش الأحلام هذا؟

لا يهم، لا يهم! إنها هناك، وأنا أراها.

لقد ماتت يا الأخير.

انظر إليه، إنه هناك ينظر إليّ بخفر. لم يكن بودلير فوق شرفة القرن التاسع عشر يشاهد جثة أم الأخير. كان هنا طوال الوقت جامداً يسبّح الحادي والعشرين بصلاة يرفعها نحو العدم.

لمح الأخير عبر نافذة غرفة الموت بودلير. كان عند آخر الشارع متكئاً على عمود كهرباء ينظر إلى الأخير كأنه تمثال بعينين جامدتين. جارى الكاتب إرادة الأخير، وجعل ينظر نحو العمود حيث بودلير الذي لا يراه إلا الأخير. كان يقرأ أشعاره على مسامع الصبي اليتيم الذي حثّ صديقه الجميل أن ينصت إلى بودلير.

"ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"، بينما الأخير يتمتم مع بودلير: لأي شيطان حنون أدين بكوني محاطاً هكذا بالسر، محاطاً بالصمت، محاطاً بالطمأنينة والعطور؟ أما الأبدية التي بطنها يشبه الجبل، فتردد فوق رأس الجثة أن الموت حق وأن الله خير العالمين.

"إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم." هذا الكوخ القذر، مقام الضجر الأبدي... إنه مقامي لا سواه. أتذكر الرعب، أتذكر الرعب، أتذكر الرعب... أتنفس الآن زنخ الكآبة. لم يغير بودلير مكانه عند أسفل العمود، بينما الجموع تزداد في بيت الأخير وتبكي المرأة الجاثمة التي طالما كانت قريبة من الناس، حتى من أولئك الغرباء كما قال رجل عجوز.

أم الأخير التي موتها حيّر الناس لم يكن لها عدو، حتى قطط الحي الكئيبة كانت تحب أم الأخير. كان الحزن يستدعي الحزن فوق سطيحة المنزل الحزين. كل شيء كان حزيناً، حتى الديك صديق أمه كان صياحه يوم موتها كأنه ندب فوق حبل الغسيل.

فكر الأخير وقد احتل بودلير الشاحب مساحة النافذة كلها، أن أمه سوف تعاني ضجراً قاتلاً تحت التراب. هناك سوف تكون وحيدة، هناك سوف تكون ميتة... أمي تحت التراب سوف تعاني سأم الانتظار، كان يفكر الأخير.

أما النافذة، وقد سار نحوها الصبي على غفلة من الجميع، فكانت تردد همسات بودلير:

هناك عفاريت صغيرة ممسوخة، عفاريت هزيلة،

عفاريت تتوسل الصدقات.

هناك أمهات عجائز...

أمهات يحملن جهائض معلقة بأثدائهن الضامرة.

"والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى"، بينما الحبلى تقول للرجال يجب رفع الجثة الآن قبل أن تفوح رائحة النتانة.

شدّ الديك انتباه الناس بصياحه المفرط كأني بأم الأخير أمه كما قال الجميع. لم يكن الديك يصيح، كان يلبي حاجة طيور المرأة الميتة لحزن فقدانها كما همس الأخير. الطير أيضاً يبكي، قال الكاتب للأخير. إن الديك حزين على أمه... على أم الأخير. حاول بعضهم شيل الديك عن حبل الغسيل، وقد شتت بصياحه انتباه الناس عن القرآن. ثمة من لعن الديك، وبعضهم قال في الديك إنه مجروح الفؤاد.

كان الديك يذرف الدمع من مقلتيه الجامدتين، بينما الدجاجات البهلاوات ترفرف بأجنحتها كأنها تشيّع سيدة البيض. تشتت جمع المعزين بين الديك والقرآن، وصاحبة البطن الذي يشبه الجبل. أما الأخير، فكان الآن عند نافذة بودلير الفسيحة يصيح مثل ديك أمه:

وراء موجات الآذان ألمح امرأة ناضجة، متجعدة،

فقيرة تميل دائماً على عدم ما ولا تخرج أبداً.

من سحنتها، من ثيابها، من إيماءاتها من لا شيء على الأرجح

أعيد صوغ حكايتها... أعيد صوغ أسطورتها، أعيد سرد لمحاتها

أحكيها لنفسي وأنا أبكي.

وقع الديك من فوق حبله وحيداً. لمّه الكاتب عن الأرض، كان ميتاً بالكامل إلا من بعض الريش عند أسفل قدميه. ذهب الناس ليواروا أم الأخير في الثرى، أما الكاتب فكان يبكي فوق الديك الذي بلحظة تحول إلى سراب وغاب.

"والوالدات يرضعن أولادهن... " التفت، لم يجد حوله إلا القرآن الكريم "... حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة".

46

الالتباس الغريب:

إلهي... إلهي، لماذا تركتني؟!

كان الرئيس الأميركي يبشر أن العالم سيكون على شفير حرب عالمية ثالثة في حال امتلكت إيران القنبلة النووية. أما قائد الثورة الإيرانية، فكان يهدد بإطلاق 11000 صاروخ في أول دقيقة من دقائق الحرب، بينما الرئيس الروسي يهدد أن بلاده ستنسحب من اتفاقية الحد من انتشار الأسلحة النووية في حال أقدمت الولايات المتحدة على نشر درعها الصاروخي في بعض دول أوروبا الشرقية.

فإذن، لم يكن العالم على ما يرام يومذاك. كان به ورم خبيث، كان بالعالم ما يشبه الهتك والمجون وحرائق كثيرة تلتهم الأحراج في أكثر من مكان في العالم. البرلمان التركي يجيز للجيش شن حرب على حزب العمال الكردستاني، وانفجارات روتينية في العراق، والذهب في أعلى معدلات غلائه، والنفط أيضاً، وسوريا تغلق حدودها أمام البطاطا اللبنانية ولست أدري ماذا أيضاً وماذا أيضاً وأيضاً لما سُمِع صوت خفيض ينطلق من البيت الملعون.

لم يكن المسيح هو الذي يصرخ على صليبه داخل البيت الملعون، إنه الروائي الروسي العجوز وقد ظن نفسه أنه ابن الرب المسكين. تشبث دوستويفسكي بكونه المسيح وذلك في غمرة الأعور الضخم الذي كان يرمق المنتحر بعينه الواحدة.

كان دوستويفسكي يتأتئ أن السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول، لما جعل الصوت التعيس يهسهس من خلف تواريه قائلاً: لا تعلمون متى يأتي رب البيت، أمساء أم نصف الليل أم صياح الديك أم صباحاً.

حاول المنتحر أن يتجنّب نظرة هيغل الزرقاء محاولاً في الآن نفسه إقناع دوستويفسكي بأنه ليس السيد المسيح. لم يقتنع الروائي العجوز بأنه روائي عظيم وليس مجرد نبي أو شيء من هذا القبيل. تشبث بأنه ابن الرب وشرع يوجه كلامه إلى غرف البيت الخاوية فيقول: إذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا لأنها لا بد أن تكون... أما صاحب الصوت التعيس، فيردد من خلف ظله: أنا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.

امتقع وجه المنتحر لما رأى الامبراطور في اللوحة وقد تزين وجهه بابتسامة عريضة ونظرة ملؤها الفخر والانتصار، وقد جعل من فوق حصانه يصدح بجملة من التطويبات وكأني بالحصان قد صار جبلاً فيقول: طوبى لأصحاب الأسهم لأن لهم ملكوت الرب. طوبى للشركات العابرة للقارات لأنها ترث الأرض. طوبى للأثرياء والعطاش إلى الكنز. طوبى لأصحاب المدرعات والنفاثات لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي الحروب لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى لمديري المصارف الكبرى لأن لهم ملكوت السماوات. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في سماوات الامبراطورية.

ثم، وقد قفز من فوق حصانه بغتة، توجه إلى جمهور افتراضي وقال بملء شدقيه: أنتم ملح الأرض، ولكن إذا فُسد الملح فبماذا يُملَّح؟

صار الامبراطور يعدو في أرجاء البيت متبختراً غير عابئ بوجود الآخرين ملوحاً بسيفه ومردداً مع كل عدو: لا تظنوا أني جئتُ لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. صرح الامبراطور بأنه سيد المدينة وقال بعد أن استأذن هيغل أنه لا يمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل.

عند هذه اللحظة من الالتباس الغريب، قام المنتحر بشتم الامبراطور والهر الأعور. كان دوستويفسكي طوال هذا الوقت ساجداً على ركبتيه وقد لفّ رأسه بكلتا يديه. كان كمن به مسّ شيطاني لم يدر من أمر نفسه شيئاً، بينما المنتحر، وفي عز العجقة الامبراطورية الطارئة وما يحايثها من التباس، يحاول إعادة دوستويفسكي إلى جادة الصواب.

شتم المنتحر مدينة الامبراطور وسيدها وقال في هيغل أنه مجرد عورة حضارية لن تلبث أن تزول. جن جنون الهر الضخم وتقدم من المنتحر بخطى مسستمة تدعي الكمال ونهاية التاريخ.

قابل المنتحر الأعور الهائج بترفع ازدرائي، لم يبال بمخالب هيغل المسننة جداً، ولم يهتم بقفزه التاريخي. كان كمن به ثقة تامة أن هذا الهر القوي لا يستطيع مهما فعل أن ينال منه مأرباً.

في الحقيقة، لم يكن منتحر دوستويفسكي على خطأ فيما يتعلق بهذه النقطة بالتحديد، ويمكن سرد الحكاية على الشكل التالي:

قفز هيغل من فوق إحدى الأرائك على وجه المنتحر ولكن دون طائل. فهذا المنتحر بنهاية الأمر هو مجرد شخصية وهمية من شخصيات رواية "الممسوسون"، أي أنه ليس له وجود عيني إلا في عقل الروائي الروسي العجوز. صار هيغل ينط على المنتحر من هنا ومن هناك كواحد غشيم يظن بنفسه القدرة على الاستحواذ على... كان نطّه بلا طائل وبلا... فالمنتحر ليس هنا ولا في أي مكان.

عند هذه النقطة الهيغلية الحزينة، تدخل صاحب الصوت التعيس ونصح الصديق هيغل كما قال، أن يترك هذا الوهم وشأنه وينقض على مبدعه، إن العلة في دوستويفسكي الخائب الذي لم يورث الغرب كما قال الصوت التعيس إلا بعض القطط الوهمية التي حاولت زجرك عبثاً يا هيغل العظيم، والمتكلم حتى الآن ما زال صاحب الصوت التعيس.

كان يحكي كأنه يؤدي نشيداً ما، كأنه يلقي الشعر جهاراً، بينما الامبراطور، وفي حضرة جمهوره الوهمي، كان يوزع قرباناً مقدساً اكتُشِف فيما بعد أنه أسهم مضمونة النتائج في بورصة وول ستريت.

همس المنتحر في أذن دوستويفسكي كي يجاريه فيهربا معاً، لكن هذا المعذَّب الحزين كان يردد مخافتاً الصوت في صدره: أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. ويهمس أيضاً وقد ران بنظره صوب المنتحر: إنك اليوم تكون معي في الفردوس.

ضحك صاحب الصوت التعيس من علياء خفائه وقد وعد دوستويفسكي المنتحر بالفردوس الأبدي. صار يضحك محاولاً بين القهقهة والأخرى رمي كلمة من هنا وأخرى من هناك، بينما هيغل،

وبدهائه التاريخي، يموء أن موطئ الجنة هنا مشيراً بذنبه ناح الامبراطور.

كان الأمر داخل البيت على اختلاط كثير، فالكاتب كان يرمي القلم بين الفينة والفينة محاولاً فهم لغز البيت وقد وصل بروايته إلى هذا الحد من التعقيد.

خارج الرواية، كان بوش يجدد إمكان الحرب العالمية الثالثة. كان يجدد هذا الإمكان كأنه يؤدي نشيداً وطنياً. حاول الكاتب إزاحة بوش من فوق ذهنه المتوتر والتفرغ كلياً لسرد باقي الأحداث. فهذا الكاتب لا يحبذ خلط الخارج مع أحداث روايته. توقف عن الكتابة لحظة، توجه إلى البراد وكرع بعض الماء، ولما رجع إلى الأريكة ونظر إلى متون نصه، كان البيت يحترق والمنتحر يحث صديقه الروائي على الفرار، بينما صاحب الظل التعيس يأمر دوستويفسكي بالبقاء.

صار البيت يتهرهر وقد انتشرت ألسنة اللهب في كل أرجائه. ترجى المنتحر دوستويفسكي العظيم أن يجاريه الفرار، لكن العجوز وقد استبدت به رغبة المسيح، جعل يردد مع صاحب الظل التعيس: أيها الرب، قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً.

أسقط في يد المنتحر وطفق بالبكاء عند أقدام الروسي العجوز، بينما ألسنة اللهب الحمراء تأكل كل ما في البيت.

لم يتأثر الامبراطور بلهيب النار، فقربانه المقدس شغل كل شاغل لديه، بينما الأعور كان يوقد النار كلما توشك على الانطفاء. فهو كان يموء أن النار ضرورية جداً من أجل تقدم البيت وتنويره.

47

واجهت المشيعين مشكلة مزعجة وقد وصلوا بجثة أم الأخير إلى مكان الدفن. فحفار القبور لم يكن قد حفر القبر بعد مدعياً أن الأرض تصلّبت تحت معوله فجأة، حتى تحولت إلى كتلة صخر.

عرفتُ واحدة اسمها أمي

تشيع الروعة في الجو.

عيناها تنشران اشتهاء

الجمال والمجد والخلود.

أي من الرجال المشيعين لم يتجرأ أن يأتي على حفار القبور بنأمة لوم. فللرجل باع طويل في مهنة حفر القبور التي ورثها عن والده الذي ورثها بدوره عن والده، وصولاً إلى الوالد الأول، فالمشكلة إذن في الأرض وليست في حفار القبور.

كل الرجال حاروا العمل، فالجثة أخذت بالتفسخ ولا بد من دفنها في أسرع وقت. والد الأخير الذي كان في زيغ كثير، لم يُدلِ بدلوه في ما ألم بزوجته من أرض متحجرة. كان كالمصاب بغيبوبة لا يدري من أمر العالم شيئاً. الحبلى الأبدية، صاحبة البطن الذي يشبه الجبل، جعلت تصيح "احفروا الصخر"، وكانت تدق على الأرض بعصا غليظة تحملها.

كان المساء يرفرف فوق المقبرة بجناحيه الكئيبين وأم الأخير ما زالت جثة في الهواء الطلق. بعض الرجال تحولوا عن مكان القبر وقفلوا راجعين، آخرون تنبأوا أن بصاحبة الجثة لعنة أو شيئاً من هذا القبيل. أما الأخير، فكان يجمع الحطب اليابس مقترحاً بتوسل تغطية أمه بهذا الحطب كي يمنع عنها الندى كما قال.

كل ناس الحي رحلوا يوم دفن أم الأخير إلا الأخير الذي كان يكوّم الحطب ويضعه فوق جسد أمه، بينما الحبلى ترمق الصبي عن بعد وتحصي عدد الأسنان في كيس أسود تحمله.

ولأجل هذا، أيتها الطفلة العزيزة الملعونة

أرقد الآن عند قدميك، منقباً في كل حنانك

عن صورة الإله صاحب الرعب العظيم.

لم يدر الأخير لمَ أطلق على الحبلى اسم رحلة البطن المخيف لما سألها، وبصوت متهدج: كم سناً نزعتِ من فم أمي؟!

كانت العتمة قد لفت مكان القبر كله لما ركنت الحبلى إلى صمت كئيب، بينما بودلير، وكان قد صار عند كومة الحطب، يهمس:

إنها جميلة، وأكثر من جميلة

... إنها مدهشة

فيها تفيض الحلكة، وكل ما تلهمه ليلي وعميق

عيناها كهفان، ونظرتها تضيء كالبرق

... فلأقارنها بشمس سوداء.

لم يكن بيت الأخير ينم إلا عن محض الفجيعة. فالمرأة سيدة البيت، أم الأخير، صاحبة الديك، لم يكن موتها محل توقع من قبل أحد. ماتت على غفلة حتى من سطيحة منزلها الدافئ.

بان بيت الأخير في مرأى هذا الصبي كومة من الفزع المضاعف. موت أمي سيدوبل خوفي، كان يقول الأخير وقد صار قاب قوسين للوصول إلى عتبة البيت. كان القرآن لا يزال يهمس منطلقاً عبر مسجلة قديمة موضوعة فوق طاولة خشبية في إحدى زوايا البيت، بينما الأرمل المفجوع يلملم دمعه بواسطة منديل وسخ يفرك فيه عينيه. بضعة نسوة من اللواتي يمتّن إلى العائلة بصلة كن ما زلن في البيت، وبعض الرجال محض صمت كانوا ما زالوا هناك أيضاً.

لم يتوقع الصبي أن يدفن أمه يوماً تحت الحطب. حار العمل وتناوشته كل ضروب... فبيته الآن يشبه البن، بيت الأخير فحم أسود. من كان يتوقع أن يكون الشبح سيد موقف موت أم الأخير؟

خرج الجميع من المنزل إلا الشبح وصوت القرآن الكريم. كل الناس فلّوا إلا صورة أم الأخير التي كانت بين كفيه يتأملها بصمت ويتنهنه بالعاً شفته السفلى، ساحباً مخاطه إلى داخل أنفه يحك أذنه اليمنى ويعود ليتنهنه من جديد، فهو لم يكن يرى في الحطب منزلاً أخيراً لأمه الحنون.

لاذ القرآن بصمته وقد انقطع التيار الكهربائي. زاغت أبصار الآخرين بين هيئة بيّه الغافي فوق الكنبة وصورة أمه الصامتة جداً داخل الإطار الخشبي.

دميمة هي بالفعل

إنها نملة، انثى عنكبوت

هيكل عظمي إن شئتم

" قل إني أخاف إنْ عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم"، عاد التيار الكهربائي، فإذا بالقرآن يعاود همسه عبر المسجلة. أما عينا الصبي، وعبر قضبان النافذة، فكانتا شاخصتين في الحبلى الأبدية التي بطنها يشبه الجبل تسير مهرولة بواسطة عكازها مهموكة في لا أحد يدري ماذا، بينما بودلير يتخلل القرآن والرجل النائم فوق الكنبة ويتخلل الصورة التي ما زالت بين كفي الأخير: لكنها أيضاً شراب، بلسم، تعويذة، إنها باختصار عذبة.

48

في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله.

(إنجيل يوحنا)

سأل كرانلي: هل خطرت لك فكرة أن يسوع لم يكن حقاً ما كان يتظاهر به؟

فرد ستي؟ن: أول شخص خطرت له هذه الفكرة هو يسوع نفسه.

جيمس جويس (صورة الفنان في شبابه)

لست على ثقة أن الكلمات قادرة على تأجيل الموت، كما أني لا أعرف إذا ما كان للكلمات أقدارها الخاصة.

لم يفتش دوستويفسكي يوماً على ما يبل به ريقه. إن كلمات هذا الروائي العجوز هي ريقه الذي يسيل كالشلال. كانت ألسنة اللهب تشد من أزر نفسها في أرجاء البيت، وصاحب القربان المقدس كان لا يزال يوزع قربانه على جمهوره الافتراضي مردداً بين المناولة والأخرى: لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب.

لا أعرف من كتب يوماً أن الأدب الغربي منذ بولس الرسول حتى اليوم ليس إلا محاولة فاشلة لاحتلال المساحة التي تركها المسيح يوم قرر، وبلا مسؤولية، أن يذهب برحلة ترفيهية إلى السماء. يقال: إن من كتب هذه العبارة شرطي لبناني ينتمي إلى جيل ما بعد الحداثة (!) ولا يحب الله كثيراً، كما أنه لا يحب اللحم النيء. على كل حال، أكمل الكاتب تدوينه بالتالي:

لم يزح الروائي العجوز من مكانه وقد أتته النار من كل حدب وصوب. يبدو أن القدر شاء أن يموت دوستويفسكي بالنار في لجة هذا البيت. لم يتأثر منتحر دوستويفسكي بلهيب النار. فهو كائن مجازي، والمجاز نادراً بل من المستحيل أن يحترق.

حاول المنتحر، هذا الكائن المجازي بامتياز، أن يخلص من جديد- عذراً لهذا التكرار- دوستويفسكي من هذه الميتة الشنيعة. لم يسجل تاريخ الأدب الغربي أن دوستويفسكي مات محترقاً، فتاريخ هذا الأدب محض افتراء وتزوير لأن دوستويفسكي العظيم- ليس في ذلك شك- مات احتراقاً بين يدي كائن المجاز.

هبت عاصفة هوجاء وأدخلت هيجانها إلى البيت، ما جعل النار أكثر التهاباً وأشد في وهجها من أي نار أخرى ألمت بهذا البيت منذ تاريخه القديم. لم يكن دوستويفسكي قد مات عندما هبت هذه العاصفة، كان لا يزال جاثماً فوق أرضية الغرفة يدعي أنه السيد المسيح، ويزبد بكلمات فحواها أن صاحب الصورة على خطأ، فصاحب الصورة لا يمت إلى الرب بصلة.

استبد بالبيت جو من الاضطراب قبل موت دوستويفسكي بقليل. فالامبراطور، وبوحي من الهر الأعور، كان على ثقة أنه المسيح، و دوستويفسكي كان يدعي أنه المسيح، حتى صاحب الظل التعيس لتلت من خلف تواريه أنه هو أيضاً المسيح.

من المسيح يا ترى؟؟

هذا هو الالتباس المعقد الذي أرخى بظلاله الكثيفة فوق مساحات البيت وجدرانه. صار يشتد الالتباس أكثر على وقع تشبث الامبراطور بأنه هو المسيح، وذلك في زحمة الإنجيل الذي كان الروائي المسكين يدعي أنه هو سيده. ضاعت الحقيقة بين الروائي والامبراطور وذلك المتواري خلف ظله بحذر.

صرخ الامبراطور من فوق حصانه قائلاً: لقد كمل الزمان واقترب ملكوت الله- كان يصرخ باللغة الإنكليزية كما ينطقها اليانكيز- فتوبوا وآمنوا بي. أما دوستويفسكي، وكانت النار قد صارت قاب قوسين أو أدنى من جبهته العريضة، جعل يردد ملء الصوت: أليس مكتوباً بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الأمم؟ وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. أما المتواري، فكان يدبدب خلف حجبه الكثيفة ويقول: ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام.

لم يكن الهر الأعور، وفي غمرة ما يجري هنا، على قلق كثير. بالحقيقة، لم يكن هذا الهر على قلق البتة. كان كأن به معرفة يقينية بكل ما يجري، كان بالأحرى مساهماً فيما يجري بأن يزيد وقود النار.

جاء في أنطولوجيا الشعر الألماني أن أحدهم ويدعى هاينه كتب يوماً: كنت شاباً فخوراً وكان يدغدغ اعتزازي أن أعلم من هيغل أن الله ليس ذلك الذي في السماوات كما تعتقد جدتي، بل أنني على هذه الأرض الله.

طبعاً، من غير اللائق استدعاء أنطولوجيا الشعر الألماني في رواية عن إرهابي أخير، لكن، وكما هي العادة، تم استدعاء هذه الأنطولوجيا كوسيلة اقترحها الكاتب ليفر عبرها إلى مساحات من الخيال أرحب.

لم يتوقع الكاتب الجميل، وفي عز احتراق البيت، أن يقرع أحدهم الباب. ظل القارع يواظب على قرعه العنيف كأن به تمام الثقة أن الكاتب في الداخل. بينما هذا الأخير، وخوفاً من هرب الكلمات، تشبث بمكانه يكتب أن المنتحر صديق دوستويفسكي وقد تيقن موت صديقه جعل يفكر في مصيره في حال احترق البيت. فهو، وعلى الرغم من كونه مجاز، كان خائفاً لعنة التشتت والفلتان.

تباً للنهايات المتوقعة، قال الكاتب الجميل، وتباً لصاحب الصوت التعيس. كان القرع على بابه يشتد لما قرر هذا الكاتب أن صاحب الظل التعيس هو...

في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله الخ... ايضاً وأيضاً الباب يُقرع والكاتب متشبث بأن لا يفتح الباب. صار كل شيء يشي بنار لا تطاق، حتى في بيت الكاتب الجميل. توقف الطرق فجأة ليشاهد الكاتب صديق الأخير، وعبر إحدى نوافذ بيته، بضعة غلمان يركضون وأحدهم يحمل سيفاً يلوّح به، وعلى الجهة الأخرى من الشارع تحت لمبة البلدية المتوهجة، الحبلى صاحبة البطن الكبير تقوم بإحصاء أشياء ما داخل كيس أسود صغير.

لست أرى أنه من دواعي السرور أن تتعقد القصة إلى هذا الحد. ومع هذا، قرر الكاتب وبلحظة تنم عن محض الفجيعة، أنّ صاحب الظل التعيس هو... تدخل هيغل بعينه الواحدة من حيث لا يدري أحد، وجعل يموء بقلم الكاتب أن دوستويفسكي ليس إلا لحظة وعي شقي في سمائنا الغربية المرصعة بالنجوم.

كان دوستويفسكي إلى حين تدخل هيغل الفظ لا يزال حياً، لم يكن قد مات بعد. أي من الآخرين لم يتدخل في مجرى الحديث الهيغلي، لا الامبراطور ولا صاحب الظل التعيس ولا المنتحر القافز من كتاب "الممسوسون"، حتى دوستويفسكي لم يتدخل في مجرى هذا الحديث.

صار الهر الأعور يموء عبر قلم الكاتب أن دوستويفسكي لمعة شقاء ما لبثت أن زالت تحت وقع سنابك الامبراطور العظيم. ليس دوستويفسكي إلا نواحٍ قصية لا تمت إلى عقلنا الهائل بصلة. كان يموء كأنه يحاضر في مصير العالم أو كأنه بصدد تنصيب أو تتويج ملك جديد.

خالف هيغل صديق الأخير كل أفكاره حول دوستويفسكي وفرض عليه أن يكتب أن دوستويفسكي محاولة فاشلة فوق صفيح الغرب الملتهب. حتى ورثتكَ يا أيها الأبله الروسي لم يكونوا إلا مجرد قططٍ تموء أمام ساحات منازلنا العتيقة. من كافكا؟ سأل هيغل. من بيكيت؟ من كامو؟ من جان بول؟ من بريخت؟ ليسوا أكثر من قططٍ صغيرة حاولت خربشة مساحة الغرب وباءت محاولاتها بالفشل الذريع.

هل تعلم يا صاحب الشياطين ماذا يقول الغرب فيك؟ هل تعلم مكانتك الهائلة عند نقاد الأدب الحديثين؟ يقال أنكَ رسمتَ بعبقرية شيطانية قل نظيرها مجاهل النفس البشرية. يقال أنك حددت بواسطة بوصلة شديدة الدقة ضروب الجريمة وضروب العقاب. قدسك الغرب يا دوستويفسكي، وجعل منك أيقونته التي لا تقبل المسّ. هل تعلم لماذا؟ لأنك، وبعبقرية نادرة رصدت كل إمكانات عدمه. لكن- والقلم يرتعش في يد الكاتب الجميل- ماذا في كل هذا؟ لا شيء!! ماءها هيغل بخبث، بلغة تشبه لغة النهايات. لا شيء يا دوستويفسكي، لا شيء سوى المزيد من التعقيد، سوى المزيد من القتل الفتّان، سوى المزيد من القطط.

حتى أنا يا روسي النهايات التائهة اضطررت أن أكون قطاً كي يتثنى لك أن تفهم عليّ. يا لمكبث العظيم، قال هيغل وتابع: عليك الاقتناع يا أيها الروسي الضخم أن روح العالم الدم كما يقول مكبث. حتى أنت يا دوستويفسكي وليس في ذلك سر عمدت إلى خطة الدم في التعاطي مع قططك، مع ورثتك وقد فشل هؤلاء الورثة في مهمتهم المقدسة، كما لطالما ادّعيت!!

كان هيغل يذرع المكان جيئة وذهاباً ويقول لدوستويفسكي فشلت مهمتك يا عزيزي في تأسيس الغرب الحديث، في التأسيس لأخلاق ما وأشياء من هذا القبيل، قالها هيغل بتثاؤب.

أنا أعلم أنك سوداوي الطابع، وأنك متشائم ولست أدري ماذا أيضاً، ومع هذا، ما انفك مسيح صغير يدبدب في قلبك البريء ويحاول شيئاً ما لا أعلم ما هو.

ساهمتَ في قتل الرب- شكراً لك- لكن ورثتك وقد فترت همتهم كثيراً، فشلوا في معمار الرب الجديد، رب ما، رب يحوز رضاك النادر.

أعترف لك أن قططك الصغيرة نجحت في لمس الرتابة، لمس العبث، اللامعنى، وهم الحرية ووهم المساواة. لكن، ماذا في هذا اللمس الأخرق؟ ماذا في هذه الإضاءات على لوحة العدم المنتشر فوق مساحة العالم العزيز؟! لا شيء، لا شيء يا دوستويفسكي.

واظب هيغل على مشيه المتأني كأني به يتحرى قهر الروائي المتألم، وزيادة في قهره نظر إليه بازداء وأردف كلامه بما يلي: كان عليك أن تدرك يا صاحب العين الثاقبة أن موت الرب العتيق لا

يُعوَّض ببضعة قطط تموء وتشير بأذنابها إلى فجيعة القرن الأخير. قال هيغل الجملة الأخيرة وقد ندت عن محياه ثقة تفيد أنه سيد كل القرون.

أنا أفهم ردة فعلك وما يتناوش قلبك من استياء من كافكا ورفاقه. أنا أفهم يا صاحب "الجريمة والعقاب" قتلك لهم وقد خذلوك. لكن، كان عليك أن تدرك أن العدم ليس مجرد ذباب منتشر تستطيع هشه عندما تريد.

رمق هيغل دوستويفسكي بنظرة تتراوح بين الانتقام منه والعطف عليه، ثم أكمل بلغة هازئة: ليس الرب سمكة صغيرة موضوعة في علبة سردين نتناولها عندما نجوع يا صديقي التائه. ليست أخلاق التفاؤل بضاعة جاهزة للاستعمال.

وقف هيغل فجأة وصرخ بملء صوته: تباً لك ولفتى رواية "الجريمة والعقاب"، ثم أشار إلى المنتحر وأكمل: لم جعلت هذا المنتحر يقرر أن يصير إلهاً؟ انظر إليه، تطلع إلى وجه هذا المخلوق البائس. هل يستطيع هذا البائس أن ينتشلك من براثن الموت الأكيد؟ هل يستطيع أن يزيح بانتحاره الجريمة عن كتفيك؟ لا يستطيع، لا يستطيع.

صمت هيغل بغتة بسبب رنين صدح فجأة في الأرجاء منطلقاً من الهاتف الخشبي الذي كان لا يزال في مكانه فوق الرخام.

برم هيغل رأسه بتفاخر وقال: هل تعلم يا دوستويفسكي من سيخاطبني إذا رفعتَ السماعة الآن؟ حسناً، أنا أعلم أنك لا تعلم بشيء. أنا أعلم أنك... إنه أسخيليوس يا عجوز الأدب العاقر. إنه جدنا الأول ونحن ورثته الأقوياء وتباً لك ولقططك التي لم تفلح إلا في لعق قضيب فرويد ومن قبله داروين العظيم.

إنه أسخيليوس، تابع هيغل، يريد أن يقول شكراً، يريد شكري أنا يا أيها المراهق الأبله. قامرتَ بكل ما تملك ولم تأت إلا بما يؤكد الحقيقة... حقيقة العالم... حقيقة الغرب قالها هيغل بفخر.

لماذا يا صديقي العجوز تنأى بنفسك عن قناعة أن لغة العالم النار، أن كل الآخرين ليسوا- وقد يمّ بصره ناح الامبراطور- إلا بيادق صغيرة فوق رقعة من الجحيم الأبدي. قال هيغل هذه العبارة الأخيرة وهو يدحرج أمام قائمتيه رأس كانط المقطوع كأنه طابة اسفنج أو كأنه كبتول قش!! (مسكين كانط).

لبط هيغل رأس كانط نابذاً إياه إلى إحدى الزوايا المعتمة وقال: تدعي يا متذبذب الأدب إنك قارعت... صمت هيغل من جديد على وقع الرنين المنطلق من الهاتف "الملعون" كما همس دوستويفسكي في أذن نفسه.

أيضاً وأيضاً الهاتف يرن، قال هيغل، ليتوجه بعدها إلى دوستويفسكي: إنه مكبث يا أيها المنفي العجوز، إنه مكبث يخاطرني أنه الأصل وأنك الفرع أو ما دون. يخبرني مكبث أنك مجرد هامش بسيط. يوشوشني أن مسيحك صغير لا يمكن البناء عليه. لكنه يهنئك على ما أوردتَ من قطط صغيرة أفلحت في مواساة بعض القرن يا دوستويفسكي.

نعم يا دوستويفسكي، هذا ما يقوله مكبث مقهقهاً. نعم يا... كتبتَ يوماً على لسان إحدى شخصياتك أن الإنسانية تستطيع الاستغناء عن الإنكليز إذا لزم الأمر، والاستغناء أيضاً عن الألمان، وأنها تستطيع أن تستغني عن الروس وعن الخبز وعن العلم، لكنها لا تستطيع أن تستغني عن الجمال.

صمت هيغل، ثم تنهد وقال: ... حتى أنك وبجسارة خرقاء، تجرأت وقلت هذا هو السر كله، بل قلت هذا هو التاريخ (نطق هيغل كلمة التاريخ بنبرة تنمّ عن محض الاستحواذ)، ثم أكمل مؤنباً هذا الضعيف أمامه: ماذا تفهم من التاريخ يا أيها المتقوقع الهش؟! حتى أنا لا أعرف عدد الذين ماتوا في أوروبا والعالم أثناء الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وغيرها من حروب القرن، لكنك أيضاً لا تعلم، ومع هذا تدعي القول في التاريخ؟! قالها هيغل هازئاً، ثم بهزء أكثر قال: أسمع قططاً دوستويفسكية تموء وتنعي مسيرة العقل، تنعي مسيرة التقدم البشري.

اسمع يا دوستويفسكي الجريمة والحس البريء، أودّ أن أسألك سؤالاً يتعلق بمسيحك البريء: هل قابلتَ يوماً جويس، صديقي جيمس جويس؟ إنه أخبر منك بأميال بحقيقة "السيد" المسيح.

أخبر هيغل دوستويفسكي أنه لا يحمل قائمة بأسماء الذين ماتوا في حروب القرن الأخير الدافئة والحميمة جداً، لكني- أكمل هيغل- سأهمس لك بسر صغير لطالما تجاهلتَه بخبث في رواياتك العظيمة: جوهر الجمال العدم.

قال هيغل همساً: إن جوهر الجمال العدم، وكان في هذه الأثناء قد تحول عن أن يكون قطاً يموء. نعم، لم يكن الهر الأعور الضخم صاحب العين الواحدة هنا مع "جوهر الجمال العدم".

ثمة مخلوق غريب، مخلوق بشع، ينظر إلى دوستويفسكي الهرم، يلوك اللعاب في فمه ويزدرد الرجل العجوز بنظرات حمراء. نعم، بلحظة سينمائية لا يستطيع الأدب الحديث أن يستغني عن خدماتها الجليلة تحول هيغل إلى كائن آخر، وتملص من شكل القطط.

أنا لست قطاً يموء فوق صفيح القرن الملتهب، صرخ هيغل ملء الصوت وقد استجد أمام الروائي الروسي بهيئة جسدية أخرى، صار كأنه... لست أدري ماذا.

كتب الكاتب صديق الأخير أن هيغل الحداثة، سليل الأنوار، لا يشبه في شكله الجديد - وكان ذلك بعد مشاهدته الجزء الأخير من فيلم Lord of The Rings بأيام- كتب أن هيغل الحداثة لا يشبه إلا سميغل.

أسعدت مساء يا دوستويفسكي الأدب العظيم، قال هيغل سميغل.

أسعدت مساء وقد حدستَ منذ البدء أن العالم لا يستطيع أن يستغني عن الجمال... عن جمالي أنا!!

لماذا أنت متأرجح هكذا بين الخوف من العالم والشفقة عليه؟ ما لكَ ولهذا التردد المضني بين الفوبوس والإيليو اليونانيين؟ ما بك يا قطة أوروبا الكبرى تبدو أمامي كالمصدوم؟

أطلقوا عليك لقب متنبئ العالم الحديث، فإذا بنبوءاتك شديدة الضحالة أمام عظمة إلهنا الجديد، قال هيغل ونظر بشموخ إلى الامبراطور الذي وفي عز الهشيم المتوقد، كان لا يزال يوزع قربانه المقدس على جمهوره الافتراضي.

كتب أحدهم يوماً، وكان ذلك أنت، جملة رائعة: حين يشب حريق، فالمذهب العدمي هو المسؤول. ومع هذا، أرى إليك ترسل بضعة قطط بريئة تحاول عبرها هش العدم كأن العدم مجرد ذباب.

تريد يا دوستويفسكي البلاهة أن ترتفع بأحدهم إلى مرتبة الألوهة وقد تجرأ أن يقدم على الانتحار؟! سأل هيغل دوستويفسكي هذا السؤال وهو يرمق المنتحر.

عجباً! أكمل هيغل. ماذا عن هتلر العزيز يا صديقي؟ هل هتلر أيضاً إله؟ ثم اقترب من دوستويفسكي وكان يتمتم بكلمات عن بروميثيوس وغيره، وقال، وقد دحش لسانه في أذن دوستويفسكي: ماذا عن أولئك الأشقياء الذين فجروا أجسادهم النتنة بهيكل الغرب العظيم؟ هل هؤلاء أيضاً أرباب؟

صار هيغل يتجوّل بهيئته الجديدة في أرجاء النار، يتحرى الجواب من دوستويفسكي المسكين، وهو على ثقة بأن المسكين لا يملك أدنى جواب. فحّ هيغل كأنه أفعى القرون الخوالي وما ستليها من أيام، بينما دوستويفسكي يوارب العبارات في ذهنه علّه يلقط إمكان الجواب. ماذا عن أرباب اليوم؟ فكر دوستويفسكي في عز العجرفة الهيغلية، بينما هيغل كان يجوب أرجاء المكان داعكاً كفيه التاريخيين ببعضهما البعض ويفحّ مثل سميغل بالتمام، يفح في وجه الروسي الرقيق بأن أجبني يا روائي الغرب الأول: من عسى أن يكون الرب اليوم؟

49

كان والد الأخير يهش الذباب من حول فمه ومن تحت أنفه وقد تراكم الذباب هناك بسبب اللعاب والمخاط. إن الرجل والد الأخير، وقد توفيت عنه زوجته منذ حوالى الشهر، تحول إلى ما يشبه الغريب الذي فرّت منه البلاد.

حاول بعضهم رد الرجل إلى جادة العقل والصواب، إلا الأخير الذي تقصى في والده، ومن حيث لا يدري، ضالته المنشودة. نعم، إن منظر والده كان كأنه بوصلة تعاطيه مع العالم بعد موت أمه الغريب. كلم الأخير صديقه الكاتب أنه لم يستشعر يوماً رهافة إحساس والده إلا منذ أن صار يهش الذباب من فوق وجهه البشع.

قال الأخير لصديقه أنه، ومنذ أن فارقت أمه الحياة، لمح والده أكثر من مرة يقوم بالاستمناء قرب السلم الخشبي في الجهة الخلفية من البيت. لم يكن أبي يتحرج رؤيتي له يقوم بهذا العمل.

اهتم الكاتب بخبرية استمناء والد الأخير وتاه عن الخبر الذي كان يقرأه في الجريدة والمتعلق بتبني الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 1/11/2005 قراراً حول ذاكرة المحرقة، يعلن يوم 27 كانون الثاني من كل عام يوماً عالمياً للاحتفاء بذكرى هذه المحرقة.

يستمني أمامك دون حرج؟! سأل الكاتب الأخير على الرغم من انشغاله بمقال يكتبه حول الاندفاع الأوروبي ولا سيما الفرنسي بغية تأسيس شراكة أورومتوسطية تضم كل الدول الواقعة على ضفاف المتوسط، ويتناوب على رئاستها دورياً دولة من الشمال وأخرى من الجنوب الخ...

فكر الكاتب، وفي عز انشغاله بالحيلة الفرنسية لاستبعاد تركيا عن الاتحاد الأوروبي من خلال دمجها بالاتحاد المتوسطي، فكر أن والد الأخير قد جن بالتأكيد، إذ من المستحيل أن يقدم رجل عاقل على الاستمناء (!) أمام ابنه حزناً على زوجته المتوفاة منذ أقل من شهر.

كان الأخير يؤكد للكاتب أن أباه، ومنذ اليوم الثاني لموت "أمي"، ما كفّ عن الاستمناء عند السلم الخشبي في الجهة الخلفية من البيت.

كان يتكلم متلعثماً بينما الكاتب وعلامات الاستغراب بادية عليه، يركز في مقاله على الحيوية الفرنسية- الألمانية في المشروع المتوسطي مقابل ذهول دول الجنوب أمام هذه الحيوية الأوروبية.

نصح الكاتب صديقه أن يصطحب والده إلى طبيب نفساني أو شيء من هذا القبيل، إذ من المعيب أن تترك والدك يا الأخير يقوم بالاستمناء على مرأى من الناس.

... أما إسرائيل، فاستخدمت نفوذها لكبح اندفاع الزعامة الفرنسية خوفاً من أن يؤدي الاتحاد المتوسطي إلى تذويب علاقاتها الثنائية مع البلدان الأوروبية. قال الأخير للكاتب أنه صار يكره هذا السلم الخشبي المركون في تلك الزاوية الخارجية من البيت، حتى أنه قام بتغيير مكانه لكن والده وقد صار أبشع، أعاد السلم إلى مكانه الأول متمتماً كما قال الأخير للكاتب بكلمات لها علاقة بأمي وكلمات أخرى تتعلق بصلاة الفجر وصلاة الظهر وكلمات لم أفهم منها شيئاً، صاحبة البطن،

الذباب، الحرب، أسنان، عيد الأضحى المبارك، حليب، جوع، وكلمات أخرى كان يهمسها بالعاً صوته في حلقه، كما قال الأخير.

... غير أن باريس أعطت إسرائيل تطمينات واضحة بأن المشروع لن ينتقص من المكانة الخاصة التي تتمتع بها لدى دول الاتحاد الأوروبي. كلم الأخير الكاتب أنه، وعلى الرغم من الشعور بالتقزز الذي ما انفك ينتابه منذ أن رأى إلى والده يقوم بالاستمناء قرب السلم، فإنه ما أشاح بوجهه يوماً عن منظر أبيه، بل أنه- قالها بصوت مرتجف- كان يشعر بالإثارة لدى رؤيته هذا المنظر البشع كما قال.

حاول الكاتب كبت ابتسامة صغيرة ندت عن شفتيه، أما الأخير، فكان وقد وصل بخبريته إلى هذا الحد من الجرأة، يهمس في أذن الكاتب أنه يود أن...

إن اقتراح تناوب رئاسة الاتحاد المتوسطي بين دولة من الشمال وأخرى من الجنوب سيسبب تعقيدات إضافية، وذلك بالنظر إلى العلاقات السيئة بين المغرب والجزائر والعلاقات المتدهورة بين سوريا وفرنسا والعلاقات المقطوعة بين سوريا ولبنان، ما يجعل احتمال التوافق على دولة جنوبية كي تحظى بمقعد المشارك في الرئاسة أمراً بعيد المنال حتى بالنسبة إلى مصر التي ستلقى منافسة من ليبيا والجزائر والمغرب وغيرها. لم تطل فترة الهمس في أذن الكاتب كثيراً.

مرتاح القلب تسلقتُ الجبل،

حيث يمكن تأمل المدينة،

حيث كل فاحشة تزدهر كزهرة.

ران على الصديقين صمت مطبق. كل منهما كان يلهث كأنه جواد الدساكر العتيقة. فاز الأخير بجمرة دافئة، بينما بودلير يغمغم عبر الستائر المنسدلة:

يا أيها الشيطان العذب

يا راعي جحيمي

تعرف جيداً أنني لا أذرف الدمع هناك

أنت الأعلم يا أيها الشيطان العذب

... الدمع هناك غير مجدٍ.

أكد الفرنسيون أنهم سيقترحون إقامة عدد من المشاريع التي تساعد على الاندماج الإقليمي في المتوسط، بينها النقل والطاقة وحماية البيئة بالإضافة إلى إنشاء بنك متوسطي للاستثمار ثم صوغ سياسة مشتركة لإدارة ملف المياه ووضع استراتيجية موحدة في مجال الهجرة وخطة جماعية لمكافحة الإرهاب. كان الأخير مستلقياً على بطنه ينكّش بأنامله أوراق الكاتب الذي كان يرفع الستائر عن نافذة الغرفة.

ماذا تقصد بالإرهاب؟ أنّى توجهتُ سمعتُ كلمة الإرهاب، قال الأخير وهو يفلفش أوراق الكاتب بين يديه.

لست أدري يا الأخير ماذا يُقصَد على وجه الدقة بالإرهاب. لكن، وبلغة أنتَ تحبها يمكنك القول أن الإرهاب هو، ماذا أقول... ماذا أقول؟ لست أدري... لست أدري يا الأخير ما الإرهاب. أحياناً أفكر... تستبد بي فكرة أن الإرهاب هو طريقة الله في التعبير عن ضجره. ربما الإرهاب يا الأخير هو ضجر الله! لست أدري، حقاً لست أدري. لكن، يمكنك القول أن الإرهابيين هم... لست أدري، انظر إليهم فأرى في سحناتهم في ملامحهم ما يشبه... ما يمكن أن نطلق عليه اسم أوجاع الله الأخيرة.

نام الأخير عند الكاتب مأخوذاً بفكرة أن الإرهابيين هم أوجاع الله الأخيرة. خافت السؤال في صدره أن كيف للإله أن يتوجع وهو ميت كما أخبره الكاتب الجميل؟ خجل الأخير أن يستوضح فكرة أوجاع الله الميت، ونام فوق أريكة الجمر وقد نهنهه زخم السؤال.

نام بعمق لطالما تمناه منذ وقت طويل، كان كالميت، كان الأخير كملاك ميت فوق كنبة الكاتب الجميل الذي، وعلى وقع الموت المؤقت للأخير، كان ينهي مقاله ويضع اللمسات الأخيرة عليه قبل إرساله إلى الصحيفة.

... وعلى خلاف الاتحاد الأوروبي الذي أرسى آليات عمل جماعية بين أعضائه منذ نصف قرن، ما زالت بلدان الضفة الجنوبية للمتوسط، وغالبيتها عربية، تتوجس من بعضها البعض وتتصارع على أبسط مواقع النفوذ مهما كانت وهمية.

" أعرف أن الشيطان يتردد بحرية إلى الأماكن المقفرة، وإن روح القتل تلتهب التهاباً في العزلة". فزَّ الأخير من فوق الأريكة بغتة... لم يكن يدري أين هو. لم يكن في المنزل إلا هو. نظر حوله، لم يكن الكاتب هنا. لا أحد إلا هو. مرت لحظات قبل أن يتذكر مكان وجوده، مرت لحظات تخلل أثناءها الشاعر الفرنسي بيت الكاتب، تخلل نوم الصبي العميق الذي شعر وقد قام من فوق الأريكة بعزلة هائلة.

أسنانه كلها كانت في فمه. جعل يتحسس هاته الأسنان بلسانه وبأصابعه متوجساً، إذ ثمة دم شديد التخثر كان الأخير يلوكه في فمه منذ لحظات قلائل. حاول استجماع بعض ذهنه والتفلّت من ربقة ما ألم به من كابوس مرعب. عاود تحسس أسنانه وبصق فوق كفه ثم بصق فوق كفه الآخر ليتأكد أن ما يخرج من فمه ليس إلا محض لعاب.

برم الأخير وجهه وجعل يتلفت في أرجاء الغرفة مسترسلاً في أمنية أن يكون الكاتب هنا. لم يكن الصبي خائفاً، وقد تيقن أن الأمر لا يتعدى أن يكون مجرد كابوس. بيد أن ثمة ما يشبه الصحراء ألمت به. لم يكن يعيش الأخير في هذه اللحظات إلا مساحات من الرمل الداكن.

عاد، وبحركة لا إرادية، يتلمس أسنانه بأصابعه المنطوية على نفسها بسبب دبق اللعاب، فيخجل من نفسه أن أسنانه ما زالت هنا، وتخثر الدم في فمه ليس سوى وميض كابوس مقرف. أما أصابع الصبي، تلك الموجودة عند نهاية يديه الاثنتين، فكانت منطوية على نفسها كأنها علامات عزلة، كانت أصابعه لحظة تلك الاستفاقة الممقوتة كأنها مسلات تومئ بالرحيل. تنفس الأخير الصعداء وقد تلاشى طعم الدم من فوق لسانه الجاف، وصار، وقد تاكد أن أسنانه ما زالت هنا، يجوب أرجاء الغرفة مقلباً هذا الكتاب، مفلفشاً في تلك الأوراق. يفتح هذا الدرج ثم يغلقه ليفتح ذاك.

كان الصبي وكأن به حاجة لتركيب العالم بما يتنافى مع ما ألم به من حصار منذ أن استفاق مذعوراً.

لن أعمد- أنا مؤلف هذا الكتاب- إلى الكلام على ما يعتور الأخير من أحاسيس بشكل مجرد. فلن أتكلم مثلاً على العزلة كما يعانيها هذا الصبي كأنها فكرة مجردة أو شيء من هذا القبيل، كما أنني لن أنصرف إلى تناول ما ينتاب الأخير من خوف كأن الخوف مفهوم قائم بذاته. فحياة الأخير المبتلاة بما لا نهاية له من كوابيس تساقط الأسنان، وحبلى أبدية، وموت مفاجئ لأمه، واستمناء مقزز يقوم به أبوه ولست أدري ماذا أيضاً، وبودلير أيضاً...

على كل حال، فأنا على يقين تام أن كتابة بيان خطابي في العزلة أو الوحشة أو الرعب أو التضعضع الذهني لن يفي حاجة السرد، لذا، ومن باب اللياقة الأدبية أولاً، ثم من باب التمرين على كتابة الأدب ثانياً، سأواظب على محاولات تجسيد هذه الأحاسيس من خلال الكلام على الأخير الذي كان يقرأ عبر ورقة وجدها في أحد الأدراج ما يلي:

هل ثمة من يستطيع أن يصور لنا ارتباط الجريمة بالمثال أكثر من دوستويفسكي عبر شخصية راسكولنيكو؟ كما صاغها في رواية "الجريمة والعقاب"؟ كان الأخير يقرأ عبر أوراق نكشها من هنا وهناك أن هل ثمة من خطاب يستطيع تجسيد شقاء النبل أكثر من شخصية الأمير ميشكين كما صُورت في رواية "الأبله"، ثم، وبعد عدة ملاحظات تتعلق بالأسطورة الإغريقية وبالتقنية وبالكتاب المقدس وغيرها من الملاحظات، شرع الأخير يقرأ أن أي نص هو ذاك الذي يستطيع مضاهاة كيريليو؟ كتجسيد حي لرغبة الإنسان في أن يكون سيد نفسه بالمطلق، بل في أن يكون الله كما رسمه دوستويفسكي في رواية "الممسوسون"؟ الخ...

تزامنت عودة الكاتب إلى البيت مع قراءة الأخير لملاحظات كثيرة لم يفهم منها شيئاً. لم يبد الكاتب أي امتعاض أو انزعاج من الأخير وقد فلش كل أوراقه فوق طول الطاولة وعرضها. كان يحمل بيده كيساً من النايلون يحوي كمية من سمك السردين وكيساً آخر من النايلون أيضاً، فيه ليمون حامض وفجل. أما في يده الأخرى فكان الكاتب وقد دخل إلى المنزل وأغلق الباب خلفه، يحمل كيساً يضم كتاباً ضخماً بالإنكليزية استطاع الأخير أن يقرأ عنوانه "Encyclopedia of Greek Mythology" ، بالإضافة إلى CD لعبد الحليم حافظ وكتابين آخرين تناول الصبي أحدهما "بروميثيوس"، وكتاب ثالث مغلق بإحكام ربما نأتي على ذكره فيما بعد وربما لا.

50

كرر هيغل الهمس في أذن دوستويفسكي: أجبني، هيا أجبني. من عسى أن يكون الرب اليوم؟!

إلى حين قراءته كتاب فرويد "قلق في الحضارة"، أقسم الكاتب الجميل أنه لم يكن يدري من هو صاحب الظل التعيس. كان يقول في سره: إن فرويد هو أذكى رجل في القرن العشرين، ولا يمكن إغفاله البتة في أي تصور مستقبلي لله. جعل يقلّب بعض كتب فرويد بين يديه، ويقسم أمام نفسه أنه حتى هذه اللحظات لم يكن يدري من هو صاحب الظل التعيس.

كان الوقت قد صار إلى آناء الليل وأطراف النهار، وثمة ما يشبه الثغثغة خطرت في بال الكاتب صديق الأخير. بخلطة تحتاج إلى كل قدرات الله وحلمه ثغثغ أحد كائنات المنزل المحترق بما يلي: أحدهم وهو مؤرخ دقيق للعزلة كتب يوماً أن بروميثيوس هو شرنقة الغرب الأولى، أما الشرنقة الثانية فهي الكثلكة، ثم الأنوار وبعدها الثورة الفرنسية لننتهي بهيروشيما وأخيراً ما يطلق عليه عادة اسم تأنيب الضمير.

لم يساور أي من كائنات البيت أن ينطق أحدهم في هذه اللحظات الحرجة. بحلق منتحر كتاب "الممسوسون"، وجعل يزحزح صديقه العجوز إلى زاوية أخرى أكثر بعداً عن لهب النار. صمت هيغل كأني به ما يشبه الصدمة، ثم اقترب من دوستويفسكي الذي كان لا يزال راكعاً فوق الأرض.

ماذا قلتَ؟ سأل هيغل دوستويفسكي بلغة تتراوح بين اللاتينية الكلاسيكية والإنكليزية كما ينطقها الأساتذة الأكاديميون في جامعة كامبريدج. ماذا قلتَ؟ كرر السؤال ثانية، ثم كرره مرة ثالثة ورابعة وخامسة وكان مع كل تكرار يعلو بنبرة صوته حتى ضارع صوت النار. نعم، قال دوستويفسكي بصوت أبح: لم لا يُصار إلى إعادة صلب المسيح؟ أي مسيح... مسيح ما!! صار دوستويفسكي وكأني به حاجة إلى جذب الانتباه من كل حدب وصوب يرتل أن البطل يجب أن يُذبح كل يوم. حتى هذه اللحظات اللعينة، لم ينتبه أي من ناس البيت أن صاحب الظل التعيس يخرّ مغرغراً بين يدي كائن المجاز.

المنتحر، وبما يملك من قدرة على الموت والحياة وإلى آخره من مجاز، طفق يصر بأسنانه أن بدوستويفسكي جنون أكيد، أن بكاتبه مساحات اقتتال، أن به فجوات سحيقة. وصار يبكي أن كيف لي أن أساعد كاتبي الحزين؟ الصوت أيضاً صار يبكي، صار يتأتئ من أنا؟ هل حقاً أنا أنت يا قاتل القطط اللعين؟ صار دوستويفسكي يناقش دوستويفسكي غير آبه بموته القريب. كلا أنا لست أنت، صاح دوستويفسكي بين يدي كائن المجاز.

كتب فرويد في العام 1925 أن غريزة الهدم القوية جداً لدى دوستويفسكي والتي ربما كان يمكن أن تجعل منه مجرماً كانت موجهة في حياته العقلية ضد شخصه هو. نعم، كتب فرويد في العام 1925 أن دوستويفسكي لم يكن يستريح البتة إلا إذا فقد كل شيء.

كلا، أنا لست التعيس. كلا، أنا لست الصوت وصار يشد المنتحر أن يغمره بكلتي يديه. تحول دوستويفسكي على مرأى من خصومه التقليديين إلى ما يشبه الطفل الصغير. صار به حاجة إلى

ثدي عظيم، صار بدوستويفسكي توق إلى نهد أمه وقد تهاوى الناس فوق هذا النهد كما اشتكى بصوت لطالما لقبه بالتعيس.

إحداهن لا أحد يدري من أين نتأت، أزاحت المجاز عن دوستويفسكي وقامت بقلع سن الحليب من فمه الفاغر، وتبعثرت دون أن يلمحها أحد وكانت ذات بطن عظيم.

لا أحد يدري هشاشة ما يخط الكاتب إلا الكاتب نفسه، فالرجل مرت عليه أيام لم يذق خلالها طعم النوم. فها هو يخط بهبل أن الحبلى الأبدية، تلك التي بطنها يشبه الجبل والقاطنة قرب منزل الأخير، دخلت إلى بيت النار وقلعت سن الولد دوستويفسكي ثم تبعثرت كأنها سحر.

في العام 1930 كتب فرويد ما يلي: ما الفائدة من تحليل العصاب الاجتماعي مهما يكن هذا التحليل ثاقباً ما دام أحد لن يملك السلطة اللازمة ليفرض على الجماعة العلاج؟ لكن، وبعد لحظات، كتب فرويد: إنما يبقى في وسعنا أن نتوقع أن يتجاسر أحدهم ذات يوم على الشروع بدراسة علم أمراض المجتمعات المتمدنة.

طبعاً، لم يكن فرويد يقصد من وراء جملته هذه الرئيس الأميركي أو المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية في إيران. كما أنه لا يقصد بيل غيتس أو بابا الـ؟اتيكان. بالمثل، هو لا يقصد قائد حلف شمال الأطلسي أو أمين عام جامعة الدول العربية أو الأمم المتحدة أو غيرها من الجامعات. ولا أخال أن فرويد عنى بهذه الجملة عالم فيسيولوجيا أو تكنولوجيا أو عالم اتصالات أو بورصة أو اقتصاد. كما أنه لم يقصد، وأنا على يقين من ذلك، أي أكاديمي أو عالم محيطات أو رائد فضاء أو مهندس عظيم أو عالم حشرات.

أما دوستويفسكي، فكان في هذه الأثناء، وبين يدي المنتحر، يردد أن المدينة الكبرى ليست إلا سراب ماكر. جادل دوستويفسكي دوستويفسكي أن الغرب صنو العدم. قال أحدهما للآخر: إن البشرية بغاية الأمان، لكن الآخر رد مقهقهاً أي أمان تعني بالتحديد؟

حاول هيغل أن يتدخل في مجرى هذا الذهان مبيناً أن الغرب هو سيد القول وسيد الأسماء. وافقه أحد الدوستويفسكيين الرأي، لكن الآخر اعترض متلعثماً. قال أحدهما: إن هيغل ماكر لعين، أما الآخر فجعل يزمجر أن هيغل خارطة مستقبلنا وماضينا المجيد.

أثناء هذا الذهان المنتشر، كان الامبراطور وفي ردح من الزمن لا أحد يعلم مداه، يفلش فوق بقعة لم تصلها النار بعد خريطة زرقاء عليها علامات تشير تارة إلى الانتصارات وتارة أخرى إلى ما يشبه الانتصارات. ثمة إشارات كثيرة في الخريطة تشير إلى حركة المواصلات البحرية وأخرى البرية وبعضها إلى باطن الأرض ثم باطن هذا الباطن، بالإضافة إلى إشارة عظيمة تشبه وجه مؤسسي الولايات المتحدة الأميركية، تشير بوضوح إلى السماء.

أقسم الكاتب، وكان قد صار الصباح عند أول بواباته الحمراء، أنه لم يكن في نيته أن يدعي أن الصوت هو عينه قاتل القطط وسيد المنتحر وسيد غيره من المجاز. لكن الحضارة كما قال وكان في ذلك محقاً، حتّمت عليه ثمة انفصام.

حمل القلم وجعل يشطب تلك الإشارة إلى الحبلى التي اقتلعت سن الحليب من فم الولد دوستويفسكي، لكنه، وقد حدّق في فم الروائي الروسي ملياً، لاحظ أن ثمة سناً مقلوعاً فآب عن

فكرة الشطب ودوّن أن إماطة اللثام عن شخصية صاحب الصوت أتت عفواً، ليجد نفسه بعد قليل في خضم من النقاش بين هيغل وما ألم بالبيت المحروق من دوستويفسكيين.

نعم، لم يجرؤ الكاتب المسكين على رمي القلم بعيداً والخلود إلى النوم، فعجقة الأفق جعلته ينصت إلى لغط من الأصوات الخفيضة ويرى إلى حشد من الوجوه المعتمة، فتهجس في رأسه خواطر كان لا بد له من تهجينها على أي حال.

دوّن، وكان ذلك بموازاة مشاهدته عبر التلفاز أحدهم يتسلم جائزة من إحدى الجامعات الأميركية لأبحاثه في علم الجمال، دوّن ما يلي: من كان ليصدق أن نزيح إلى هذه الدرجة عن جادة العقل، فنغوص كل هذا الغوص في عمق الخيال، مستعيداً في رأسه صورة شاعر ضرير كان يردد أن الكتابة تعني ببساطة أن يكون الإنسان وفياً لمخيلته. لطالما تأمل الكاتب الجميل عبارات بورخيس الذي كان يقول: إنه عندما يكتب شيئاً لا يطرحه على أنه حقيقي موضوعي، وإنما حقيقي لأنه وفي لشيء أعمق. على كل حال، وبعيداً عن هذه الثرثرة الواقعة على هامش النص، فلننصت معاً إلى تلك الوشوشات التي حاول الكاتب أن يهملها إنما بلا طائل. فها هو، وقد سحب فيش التلفون كي لا يزعجه أحد، يضع على الطاولة بقربه إبريقاً من الشاي المغلي، فيحتسي شايه الأسود ويخربش جملة ملاحظات بخط يشبه خط الأطباء، يتمدد ثم يستقيم ثم يقف ويسير ليعود ويتمدد من جديد وهكذا دواليك. إن الكاتب، وقد راودته هذه الوشوشات عن نفسها إلى حد الشغف، جعل يجوب فضاء أذنيه فيرهف السمع إلى كل حرف يقال ويصيخ إلى كل نأمة تأتيه من هنا أو من هناك غير مبال ألاّ يذهب إلى عمله، وغير مبال ألا يستوي ما يكتبه مع أي حقيقة موضوعية في هذا العالم الذي تارة يدعوه بالجميل وتارة أخرى بالبشع.

51

كان الشوط الأول قد دخل في دقيقته الثانية والثلاثين والنتيجة ما زالت 0-2 لصالح حي القبة ضد فريق حي البلاطة حيث يقطن الأخير. سعيد، وهو مدرّب فريق البلاطة كان يركض عند أحد جانبي الملعب متوتراً، وكان بين الفينة والأخرى يطلق الشتائم والسباب لهذا اللاعب أو ذاك. لم يتوقع أن يخسر فريقه الماتش وقد أمضى أياماً في تدريبه من أجل هذه المباراة. كاد الهدف الثالث أن يدخل في مرمى فوزي ذبيان، لكن الله ستر كما همس فوزي بعد أن صدّ الكرة بمعجزة. طار صواب سعيد وطفق يصيح من خارج الملعب ويشرمط للساعة التي وضع فيها كميل على الوينغ اليمين من الدفاع. كان سعيد يركض كالمعتوه والكلب الصغير شيتّو يركض بين قدميه. بلحظة غضب جهنمية شاط سعيد الكلب الذي ومنذ دخول الهدف الأول في مرمى فريق سيده، أبى أن يبتعد عن المدرب الغاضب الذي كاد أن يتعثر أكثر من مرة بسبب مزاحمة شيتّو لقدميه الغاضبتين. هرب شيتّو بعد ركلة من سعيد، وانزوى في إحدى زوايا الملعب وقد لف وجهه بأذنيه اللتين من حين لآخر كان يرفع إحداهما من فوق إحدى عينيه، وذلك بالتساوق مع صياح هذا الجمهور أو ذاك. قبل نهاية الشوط الأول بدقائق، وكان اللعب قد انحصر في وسط الملعب، نظر سعيد إلى جهاد الشامي وهو أحد لاعبي الاحتياط غير الأكفاء، وناداه أن يأتي إليه. فرح جهاد كثيراً ظناً منه أنه سيشارك في المباراة، لكن سعيداً وقد صار شعره حول صلعته يشبه الدغل، أمر جهاداً بالتوجه إلى منزل الأخير وجلبه إلى الملعب بأي طريقة يختار. شفتر جهاد، وهو دائماً ما يشفتر عندما يكظم غيظه، وجعل يعدو باتجاه منزل الأخير وشيتّو يعدو تارة أمامه وتارة وراءه عاوياً وأذناه ترفرفان عند جانبي رأسه كأنهما جناحان. كان والد الأخير قاعداً فوق كرسيه الخشبي أمام باب البيت ساهياً في لا أحد يدري ماذا لما وصل جهاد وشيتّو.

"وينو الأخير؟" لم ينتظر جهاد الجواب، اجتاح المنزل منادياً الأخير وشيتّو يعدو لاهثاً بين قدميه. كان الأخير في المطبخ يقوم بجلي شيء ما لما وصل إليه جهاد وقال له بالحرف الواحد: "البلاطة خسرانة 0-2، سعيد بدّو اياك إسّا إسّا بالملعب."

- "شورتي مخزوء واسبدريني منّو منيح، إلّو لسعيد مش فاضي عم ساوي أكل لبيي".

- "دخيلك يا الأخير، إذا خسرنا الماتش بيلعن إلّي بزّرنا سعيد... شو، بدّك إياه يخوت؟"

- "مين حاطط سعيد غولار؟"

- "فوزي ذبيان".

- "العمى!... فوزي حارس مرمى شاطر! ليه فات فيه غولين؟!"

- "الوينغ اليمين عنّا تعتير، كميل عم يلعب متل الحمار."

أما شيتّو، فكان في هذه الأثناء يقمز بين قدمي الأخير وينونص، ثم يذهب إلى مدخل المنزل ليعود إلى المطبخ وهكذا دواليك.

كانت فترة الاستراحة بين الشوطين قد شارفت على نهايتها عند وصول شيتّو والولدين إلى الملعب. ما إن شاهد فريق البلاطة الأخير، حتى تنفس الكل الصعداء. نظر سعيد إلى الأخير وقال له: "يرحم أمك يا الأخير، والله يشفي أبوك أو ياخدو حيا الله... إذا ما لعبت منيح بتفوتني بالحيط. مراهن على 1000 دولار إنّو نحنا حنربح الماتش."

أمر سعيد جهاد الشامي أن يخلع ملابسه الرياضية ويعطيها للأخير، بالإضافة إلى الحذاء طبعاً. شفتر جهاد أكثر، لكنه رضخ لأوامر المدرب الذي وبناء على نصيحة الأخير، استبدل كميل بمصطفى نبعة على الدفاع من جهة اليمين. فمصطفى، وعلى الرغم من بطء حركته، هو أجرأ من كميل على التصدي لعبودي الديك، رأس حربة فريق القبة. مع نهاية الخمس عشرة دقيقة الفاصلة بين الشوطين، كان اللاعبون في الملعب وبينهم الأخير الذي كان يشتم جهاد الشامي بسبب الرائحة القذرة التي تفوح من ملابسه. مع إعلان حكم المباراة عن بدء الشوط الثاني من خلال صفرة قوية أطلقها بصفارته السوداء، بدأ اللعب والكرة الآن مع فريق حي القبة. أحدهم من هذا الفريق الأخير رفع الكرة لجهة عبودي الديك، لكن مصطفى، وقد كان لعبودي بالمرصاد، استطاع نزع الكرة منه وتوجيهها إلى وسط الملعب حيث تلقاها لاعب سريع من فريق البلاطة يدعى فهد. راوغ فهد لاعباً أو لاعبين، ومرر الكرة إلى الجهة الأخرى من الملعب حيث تلقاها شادي وهو شقيق جهاد الشامي، ومررها بسرعة إلى داخل منطقة جزاء فريق القبة حيث كان الأخير وقد حوصر بثلاثة لاعبين من الفريق الخصم. استطاع الأخير أن يراوغ اللاعب الأول ثم اللاعب الثاني وكاد أن يسدد الكرة إلى مرمى القبة لكن، أحدهم صده فرمى بالكرة بحركة رشيقة إلى شوقي أو روبيرتو كارلوس كما كانوا يلقبونه. تلقف شوقي طابة الأخير وقام بتسديدها بكل ما أوتي من قوة إلى مرمى الفريق الآخر مسجلاً الهدف الأول للبلاطة. عانق شوقي الأخير وعج الملعب بالصياح، وصار سعيد ينط عن الأرض كأنه نصف قرد، وشيتّو يعدو حول الملعب ويعوي متوجهاً بعوائه إلى شوقي والأخير. مع النتيجة 2-1 تحسنت آمال فريق البلاطة بالفوز، أو بالتعادل على الأقل. هدأت روح الحماسة بين الجمهور والكرة الآن في وسط الملعب مع فريق القبة الذي يعمل جاهداً على تمرير الكرة إلى منطقة جزاء فريق البلاطة حيث يقف عبودي الديك... لكن عبثاً كل المحاولات. فيصل الغصيني، وهو لاعب وسط لا بأس به، استطاع نزع الكرة من لاعب القبة ومررها إلى محمد حمية الذي هو موزع ممتاز للكرات في فريق البلاطة. استلم محمد أو رومينيغيه كما كان يُلقَّب، كرة فيصل ببرودته المعهودة، راوغ أحد لاعبي القبة، ثم مررها إلى الخلف ليتلقفها وفيق أو ماتايوس كما كان يفضل أن ينادوه، ثم قام بإرسالها إلى ما بعد منتصف الملعب حيث كان يقف الأخير. استطاع الأخير، وعلى الرغم من الحصار المفروض عليه، أن ينطلق بالكرة سريعاً كالثور الهائج كما كان يتمتم سعيد. راوغ لاعباً ثم آخر ثم لاعباً ثالثاً والكل خارج الملعب يصرخ "مارادونا، مارادونا..."، ليمرر بلمحة بصر كرته إلى شوقي الذي أعادها إلى محمد حمية الذي بدوره قام برفعها لتستقر فوق رأس الأخير الذي وجهها من توه إلى داخل مرمى القبة. 2-2. صاح الحكم بسعيد أن يبعد كلبه البشع عن وسط الملعب، وإلا سيلغي هذه المباراة. نادى سعيد شيتّو أن يتوجه بسرعة إليه، لكن الكلب فضل، وعلى الرغم من تفاؤل سعيد، أن يتوجه إلى مقاعد لاعبي الاحتياط ويستقر بين قدمي جهاد. كان فوزي قد صار أشبه بعاطل عن العمل بعد دخول الأخير الملعب واستبدال كميل بمصطفى. كان قد بقي على نهاية المباراة حوالى عشر دقائق لما قرر سعيد تعزيز الهجوم وقد تأكد من قدرة دفاعه على شل حركة الخصم. فقام باستبدال أحد لاعبي خط الوسط، ويدعى خالد شبشول، بمروان نقور وهو لاعب هجوم قوي يستطيع أن يساند الأخير. ما إن دخل

مروان الملعب حتى انصرف إلى التنسيق مع الأخير بلغة الإشارات. فهم الأخير من مروان أنه سيقصر حركته الهجومية بين الوسط والوينغ اليسار. مرر مصطفى الكرة إلى فوزي الذي قام بقذفها بقوة إلى ما بعد منتصف الملعب من جهة اليمين. تلقف شوقي كرة فوزي وأعادها بسرعة إلى فهد، ليمررها هذا الأخير إلى الوسط حيث فيصل الذي أعادها بسرعة إلى مصطفى الذي رفعها إلى مروان الذي أوهم دفاع القبة أنه سيسدد الكرة إلى مرماهم، فإذا به، وبحيلة ماكرة، يمررها للأخير. همس سعيد من الخارج "هيدي هيي"، لتستقر الكرة وكأنها كتلة من النار في مرمى القبة حيث السباب والشتائم أخذت تنهال على حارس مرماهم الذي لم يكن بيده شيء.

انتهت المباراة 3-2 لصالح البلاطة، وكتلة متحركة من الدبق والعرق الوحل والرائحة الزنخة اجتمعت أمام دكان منيف، تشرب البيبسي وتأكل الشيبس والشوكولا على حساب المدرب السعيد. لم يتوقع سعيد الفوز، كان يأمل بمجرد التعادل، لكن الأخير لعب في هذا الماتش كالعفريت. كان داخل الملعب كأنه شبح كما ردد الجميع. أما شيتّو، وفي عز هذه المعمعة والفرح، كان ينطنط بين أجساد الأولاد كأنه ولد، إذ غالباً ما كان الجميع يسهو أن شيتّو هو كلب. كان شيتّو يشرب البيبسي ويأكل الشوكولا والشيبس، ويشارك الأولاد التمارين. كان يحزن عندما يخسرون ويفرح عندما يفوزون.

إنعام، خالتي إنعام كما كان يناديها الجميع، والتي يقع منزلها قرب دكان منيف، دعت الأولاد كي يساعدوها في نقل شتولها إلى الفيء. فهي تعشق هذه الشتول، وتترصد أي مار كي يساعدها في نقلها من الفيء إلى الشمس ومن الشمس إلى الفيء، فكيف الحال وكل أولاد الحي أمام منزلها الآن.

تملص الأولاد من دعوة خالتي إنعام، وشرعوا بالانصراف كأنهم يسيلون إلا الأخير الذي كان منهمكاً وقد رحل الجميع، بإقناع والده بالكف عن لمّ أعقاب السجائر عن الأرض، عاملاً بكل ما أوتي من قوة على جره إلى البيت.

لم يصدق الأخير أنه استطاع أن يلعب بهذه المهارة، فهو منذ أن ماتت أمه، بل قبل موتها بكثير، لم يشارك الأولاد اللعب. نمّت شفتاه عن ابتسامة صغيرة وصار كأنه...

أما إنعام، فكانت وقد صارت الشمس إلى بعض غياب، تزيح شتولها إلى الجهة الأخرى من مدخل بيتها الفسيح. صار الغياب كأنه مقت، صار كأنه سطر موت. والد الأخير كان يدخن ما أجاد عليه الشارع من أعقاب سجائر. كان يدخن كأنه نزوع العالم إلى حتفه، كان هذا الرجل كأنه- لست أدري العبارة لمن- شبق مستقبل قلق.

ملّ الصبي، اشمأز هذا المغيب المعفَّر بوابل من الضجر المقيت، وجعل يلوك صمته ويتأمل سحاب سيجارة والده الماكث هناك كأنه أثر.

... فلتواصلي النوم في غلالات الصباح

ثقيلة، معتمة، مزكومة.

أو فلتتبختري في غلالات المساء.

أخذ الأخير، وقد جره هذا المساء إلى غابة من البوم الناعق، ينصت إلى صوت أمه يتردد بين جنبات البيت. صارت كأنها هنا تناديه، تقبله، تفرك جسده بليف لا يرحم. صارت على بغتة هنا، تفوح منها رائحة مساحيق الغسيل، زهر الليمون ورائحة القصعين المغلي.

حاول الأخير كبت دمعه ورسم أمه هناك، في مكان آخر، تحت الحطب أو تحت التراب. أي مكان إلا هنا. لكن صوتها يرن تضحك، تفرك جبينه بأصابعها الندية وتسأل: لماذا قتلتني يا الأخير؟ لماذا وضعت السم في صحن طعامي؟

أحبكِ أيتها المدينة الشائنة! أيتها المومسات،

ويا قطاع الطرق.

نام رجل أعقاب السجائر فوق كرسيه الخشبي والشمس صارت إلى محض غياب. أما بودلير، وقد شارك الأخير أمه، فقد كان لا يزال هناك عند أسفل عمود الكهرباء مقابل منزل الأخير يتأمل بكاءه المكتوم، ويهمس:

لأي شيطان حنون أدين بكوني

محاطاً هكذا بالسر،

بالصمت، بالطمأنينة، وبالعطور؟

52

"مرحباً،

هلا تخيلتم إصبعاً ضخماً يجوب أرجاء المدينة متبختراً، يهدد هذا ويلعن ذاك، ثم يتوارى عن الأنظار مؤقتاً ليعود فيتبختر من جديد، ناقراً في رأس هذا ماعساً رأس ذاك.

ربما كان في الأمر مجاز، لكن، وفيما يتعلق بالأصابع تحديداً، التاريخ علمنا أن الحقيقة تكمن في عمق المجاز.

البارحة، وكان قد مر شهر على وفاة شقيقته بسرطان البنكرياس، قرر عند الساعة الخامسة عصراً أن يمارس حزنه على هواه الخاص. نام في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولم يكن في باله أنه مراقب إلى هذا الحد، فهو ليس بالإنسان المهم، مجرد عامل في شركة محلية للمياه ينقل المياه إلى المنازل عند الطلب. حتى أنني، ولضآلة شأنه لن آتي على ذكر اسمه البتة.

افتح الباب وإلا حطمته فوق رأسك.

استفاق مذعوراً على وقع طرق قوي فوق باب بيته، وصوت يصيح بوتيرة واحدة: افتح الباب... هيا افتح الباب!

جلس على حافة سريره لثوان لاقطاً أنفاسه ومحاولاً التركيز. عرف الصائح من صوته. إنه المسؤول المحلي عن الانضباط التابع للحزب النظيف في هذه البقعة من الحي."

التاريخ علمنا أن الحقيقة تكمن في عمق المجاز. استوقفت هذه العبارة صديق الأخير، وفكر... لم يستطع التفكير كثيراً، فالهمس الهادر في أذنيه كان لا يزال مثابراً على هديره حتى كأننا بالكاتب الجميل في هذه الأثناء على شيء من الهبل. رمى من يديه الرواية التي كان يقرؤها، وهي بعنوان " أورويل في الضاحية الجنوبية"، وفكر أننا نحن الناس ربما كنا عن حق كائنات مجازية لواقع آخر؟!

كانت نشرات الأخبار تبث صور انفجار ضخم هز مدينة لندن، وكان ما يشبه الـ.. لست أدري ماذا ينخر رأس الكاتب الجميل. وضع كوب الشاي الأسود فوق الطاولة- وكانت النشرة تبث صوراً جديدة لانفجار لندن- ودوّن: ربما المدينة مجاز الإرهاب؟

"أورويل في الضاحية الجنوبية" كانت قد صدرت حديثاً وفكرة المجاز هي أكثر ما شدّ الكاتب في هذه الرواية الصغيرة التي لا تتعدى المئة صفحة.

إذا كانت المدينة مجاز الإرهاب، فما هو مجاز المدينة يا ترى؟

كل هذه التساؤلات لا علاقة لها بـ"الإرهابي الأخير"، إنما، ولما كان الكاتب الجميل جزءاً لا يتجزأ من هذه الرواية، فلا بأس كما أعتقد من بث تساؤلاته البريئة من آن لآخر. على كل حال، وبعيداً عن هذه الفذلكة في السرد، ها هو الكاتب يدوّن: ربما مجاز المدينة شعرها.

أقضّ خلط الأصوات الخفيضة داخل أذني الكاتب مضجعه. إن هذا الهدير الهامس بلغ من الحد مبلغاً... أزاح الكاتب ورقة ملاحظاته حول المدينة والإرهاب والشعر، صرف النظر عن أورويل وسجّل أن منتحر دوستويفسكي اقترب من رأس هيغل وحدّق في وجهه بإمعان وكلمه متفاخراً: سقطت أسوار مدينتك يا أعور القرن العتيق.

إنها المرة الأولى التي يوجه منتحر دوستويفسكي كلامه إلى أحدهم ما خلا دوستويفسكي في هذا البيت. استنكر هيغل ملاحظة المنتحر وحاول صفعه، لكن المنتحر أشاح بوجهه عن هيغل وقال له بكل هدوء: يا لك من أعور غبي، هل ثمة من يصفع المجاز؟

طار صواب الأعور البشع، وجعل يعدو في أرجاء النار متمتماً بكلمات يوجهها إلى الامبراطور الذي كان لا يزال منشغلاً بتوزيع قربانه المقدس على مؤمنيه الافتراضيين. لم يحسب منتحر دوستويفسكي أنه سيقض مضاجع هيغل إلى هذا الحد، فهو كان يظن بهيغل شدة بأس وفحولة أسطورية لا تخشى إلى هذا الحد سقوط أسوار مدينة اللؤلؤ والسعادة والرخاء.

تحول هيغل على مرأى من كل الحضور إلى ناطور، مجرد ناطور عند أسوار المدينة وفقد هيبته التاريخية دفعة واحدة أمام منتحر دوستويفسكي الوقح كما قال الأعور متبرماً. لم يكن المنتحر وقحاً من قريب أو بعيد، إنه بالأحرى كان مرحاً، كان به ما يشبه الإشراق. ثمة صوفية لفت محياه وكان يطرطق فوق رأس هيغل بملعقة معدنية لمها عن الأرض.

أي من الدوستويفسكيين لم يشارك في مجرى الأحداث والوشوشات الهادرة في ذهن الكاتب الجميل. قاتل القطط كان يزبد بحشرجات متأتئاً بكلمة من هنا وأخرى من هناك، بينما ذلك المتواري يثغثغ أن منتحري العزيز قد ضل الطريق.

كلا، أنا لست بضال يا دوستويفسكي الانفلاق العظيم، قال المنتحر، ليتوجه بعدها إلى هيغل ويقول له بلغة حادة: صحح خطأك يا صاحب العين الواحدة قبل فوات الأوان، إن المدينة في النزع الأخير.

كأننا بهيغل ليس دارياً بعوره، رفع إحدى يديه ووضع كفه فوق عينه الواحدة ليزيح هذا الكف بسرعة ويتوجه إلى الامبراطور بالسؤال عن مرآة مصقولة جيداً أو شيء من هذا القبيل. نزع الامبراطور قبعته الكبيرة من فوق رأسه، وسحب من داخلها مرآة تنم عن احتراف في الصقل وناولها إلى هيغل الذي كان يناوب أحد كفيه بين العور والعين.

تلقف هيغل مرآة الامبراطور وباشرها أمام وجهه الممتقع. يا لي أنا... يا لي أنا. أنا أجمل منك بكثير، قال هيغل للمنتحر مطلقاً عليه لقب المخادع. نمّت شفتا هيغل عن ابتسامة عريضة وتورد في الخدين و "يا لي أنا... يا لي أنا" ما انفك يكررها. أنا لست بأعور يا أيها المترحل الحقير، قال هيغل للمنتحر وأردف: مرآة الامبراطور ترشدني إلى جمالي الهائل، هذه المرآة تدلني على هيئتي الكاملة، إنها دليلي إلى شكلي الرائع وليس أنتَ يا هامش الطرقات الواسعة.

تسمّر هيغل أمام مرآة الامبراطور طويلاً يزدرد جماله بعبارات رشيقة، بينما هذا الأخير، وفي عز الغزل الهيغلي بهيغل، يخرج من قبعته الأشياء تلو الأشياء.

كان المنتحر، وفي خضم هذه المراودة الهيغلية عن الذات، يشيل الروائي العجوز إلى بقعة أخرى أكثر أماناً، وقد استفحلت ألسنة اللهب إلى حد لا يطاق. بردة فعل ذات جذور دوستويفسكية عميقة،

قفز المنتحر على هيغل ونزع المرآة من بين يديه وقد اشمأز من الإصرار الهيغلي أمام مرآة الامبراطور المصقولة.

طار صواب هيغل وطار صواب المنتحر أيضاً!!

نعم، طار صواب منتحر دوستويفسكي، وألمّت به حيرة شمطاء وقد لمح عبر مرآة الامبراطور أنه أعور لا يملك في وجهه إلا عيناً واحدة. أخذ هيغل يحدق بالمنتحر الذي رمى بالمرآة أرضاً محطماً إياها إلى قطع صغيرة.

53

كان الأخير يشم باب البيت ويبكي.

بالإضافة إلى كلب أعرج وديك أبحّ وتيس أجرب، لم يشارك في تشييع والد الأخير إلا أربعة رجال، اسكافي حقير ولص مسكين وصياد سمك له ذقن طويلة ورجل عاطل من العمل يدعي أنه كان ثرياً في يوم من الأيام.

- الرجل الأول: لماذا برأيكم رمت الحبلى والد الأخير من فوق السطح؟

- الرجل الثاني: لكن، من قال إن الحبلى هي من رمى الرجل من فوق السطح؟

- الرجل الثالث: إذا لم تكن هي من قام برمي الرجل من فوق السطح، لماذا اختفت من الحي فجأة؟

- الرجل الرابع: إذا لم تكن هي من قام برمي الرجل من فوق السطح، سوف تعود بالتأكيد.

تزامن اكتشاف جثة والد الأخير في الجهة الخلفية من المنزل مع اختفاء الحبلى الأبدية من الحي، وذلك عند الساعة الرابعة فجراً.

توجهت دروية من رجال الشرطة إلى منزل المرأة، فكان المنزل مشرّع الأبواب والنوافذ وخالياً من كل شيء إلا من ستائر منسدلة فوق النوافذ ووعاء زجاجي يحوي عدداً من الأسنان وخاتم عليه فص أسود ضخم الحجم محفور فيه كلمة الله.

أحد رجال الشرطة، وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، حاول رفع وعاء الأسنان عن الأرض، لكنه سقط من طوله قبل أن يرفع الوعاء. وبتشريح الجثة تبين أن المنية حصلت نتيجة ذبحة قلبية ألمّت بالشاب فأردته.

أرضية منزل الحبلى مؤلفة من التراب الأسود وجدران هذا المنزل صفراء تحوي شقوقاً كثيرة. لفتَ رجال الشرطة أن أي من غرف المنزل لم يكن فيها لمبة... لم يكن هناك أي تمديدات كهربائية. بالإضافة إلى الستائر المنسدلة ووعاء الأسنان والخاتم الأسود، لم يكن في المنزل أي شيء إلا كمية هائلة من الذباب الحي.

لبّك الذباب رجال الشرطة الذين أوقع هذا العدد الهائل من الذباب الحيرة في قلوبهم. إن الذباب الكثير الذي كان يحوم في بيت الحبلى أدى بفرقة الشرطة التي دخلت البيت أن تنقسم إلى فرقتين، الأولى مهمتها هش الذباب كي تستطيع الفرقة الثانية تسجيل ملاحظاتها على الورق.

دارت الشبهات حول الحبلى، بيد أن أحد المحققين كان يتثاءب عندما أبدى ملاحظة أن الرجل قد يكون مات انتحاراً.

الأخير وكل أشقائه أجمعوا على أنه لم يكن لوالدهم أعداء، بل أن الأخير قال في إفادته لرجال الشرطة أن والده ومنذ أن ماتت "أمي"، تحول إلى جرو مسكين. سأل المحقق الأخير إذا كان يود تسجيل ملاحظة تحول أبيه إلى جرو في المحضر الرسمي، فأكد الأخير هذه الملاحظة مصراً أن والده تحول إلى جرو صغير.

- الرجل الأول: يقول رجال الشرطة أن والد الأخير مات انتحاراً.

- الرجل الثاني: لم يسجل التاريخ انتحار غائب عن الوعي.

- الرجل الثالث: بلى.

- الرجل الرابع: كلا.

- الكلب: لا علاقة للتاريخ بالوعي.

- الرجل الأول (مندهشاً): انظروا، إن الكلب يحكي!

- الديك: يا لك من رجل غبي، منذ متى الكلاب تحكي؟

- الرجل الثاني (جاحظ العينين): هل سمعتم كلام الديك؟

- التيس: يبدو أن الرجال قد فقدوا صوابهم.

- الرجل الرابع (بجدية ووقار): أنا أؤيد فكرة التيس أن الرجال قد فقدوا صوابهم.

لدى استجواب رجال الشرطة بعض أبناء الحي عن الحبلى التي بطنها يشبه الجبل، انتبه ناس هذا الحي إلى أن أي منهم لا يعرف اسم الحبلى التي قطنت بينهم سنيناً.

البعض ادعى أن اسمها هو "جزيرة". أحدهم قال أنه سمعها يوماً تقول إنها تدعى "واحة"، لكن ثمة من أكد أن اسم المرأة "غيمة". إحداهن، وهي تبلغ من العمر عتياً حلفت بكتاب الله ونبيه أن اسمها هو "صحراء". مط رجل الشرطة شفته بسبب كثرة الأسماء، وأمر مرؤوسه أن يدون في المحضر أن الحبلى تدعى "عزلة".

منذ ذلك اليوم الكئيب، ومع لحظة مط رجل الشرطة شفته، صار أهل الحي لما يأتون على سيرة الحبلى يطلقون عليها اسم "العزلة"، فيقولون لما كانت العزلة تأتي أو لما كانت العزلة تروح. بعضهم نسي، وقد تلبسها اسم العزلة لبوساً، أن المرأة كانت حبلى وبطنها كان يشبه الجبل.

أما الأخير، وقد مات الشرطي الشاب بالذبحة القلبية، قرر بعد أن مر شهر على وفاة والده الاحتفاظ بوعاء أسنان العزلة. فتوجه يوماً، وكانت الساعة قرابة الرابعة فجراً، إلى منزل الذباب- هو الاسم الذي أطلق على بيت الحبلى بعد تواريها- وحمل الوعاء من فوق التراب وأتى به إلى منزله خلسة.

صار الصبي كل يوم بعد صلاة العشاء يقوم بعد أسنان العزلة، فيستغرب أن أسنان الوعاء لا تحتفظ بعدد نهائي. فهو يوم أتى بالأسنان كان عددها ثلاثين سناً، وفي اليوم الثاني صارت أربعين، وبعد عشرة أيام انخفض العدد إلى خمسة عشر سناً، ثم خمسة أسنان فعشرة وفي إحدى الأمسيات سبعون ثم ثلاثة فخمسة وخمسون وهكذا دواليك. أما خاتم الفص الأسود صاحب كلمة الله المحفورة، فلم يكن بوارد الزيادة أو النقصان.

فرح الأخير بلعبة الأسنان، ولم يخبر بها إلا أحد الرجال الملثمين الذين كان يلتقيهم تارة عند قبر أمه وتارة عند قبر أبيه.

محضر التحقيق الذي تناول قضية موت والد الأخير ما زال قيد التداول بانتظار الحصول على معلومات جديدة أو ربما عودة العزلة أو إلقاء القبض عليها أو غيرها من المستجدات.

كان عدد الأسنان اليوم حوالى مئة وعشرة أسنان... الذباب في منزل العزلة ما زال يطن وبيلاً، وستائر منزلها يقال إن ثمة من رآها تُطوى لتعود فتنسدل من جديد. كان قد مر على موت والد الأخير شهوراً لما سأله أحد الملثمين عند قبر أمه عن عدد الأسنان. رد الأخير أن عدد الأسنان ناهز بعد آخر صلاة عشاء أداها المئة والستين.

أحد هؤلاء الملثمين، وهو قوي الشكيمة ويدعى الشديد، ربت فوق كتف الأخير أن يواظب على عد أسنانه كل يوم.

- الرجل الأول: حكى لي الكلب أن الأخير أصعد والده إلى السطح.

- الرجل الثاني: حكى لي الديك أن الأخير وبعد أن أصعد والده، حطم السلم الخشبي المؤدي إلى ذاك السطح.

- الرجل الثالث: حكى لي التيس أن الرجل كان يصيح أن انزلوني عن السطح....

- الرجل الرابع (همساً): لا تبوحوا بهذه الحكايا إلى أحد.

تابع الرجال همهماتهم الخفيضة وهم عائدون من تشييع أحد الرجال الذي لم يشارك في تشييعه بالإضافة إلى هؤلاء الأربعة إلا كلب أعرج وديك أبح وتيس أجرب.

54

كان الكاتب ينظر بشغف عبر التلفزيون إلى الرجل الأصلع الذي يعزف على القانون خلف أم كلثوم وهي تؤدي أغنية "أمل حياتي"، ويتمتم أن هذا العزف أعظم من كل الرسالات السماوية لما سأله الأخير فجأة "كان يحكي بروميثيوس عربي؟". كلا، رد الكاتب متوجهاً صوب النافذة ليغلقها وقد صدح صوت الآذان. "شو كان يحكي لكان؟". يوناني، متمنياً في ذهنه لو يُستبدل الصوت الآتي عبر النافذة بصوت...

كان الشديد مع غيره من الملثمين عند قبر أم الأخير لما وصل الأخير إلى هناك أصفراً. سأله الشديد إذا كان قد أنجز المهمة.

كان الحطب فوق قبر أمه قد تشقق كثيراً، لكن جثتها كانت لا تزال طازجة. لم يجب الأخير الشديد نأمة جواب، وكان به ما يشبه الإرهاق والتلبك. طلب الشديد من الأخير أن يعيد إليه الخنجر وقد فهم أن الغلام لم ينفذ ما أُمر به. ناول الأخير الشديد الخنجر وأوغل في صمت مطبق. ران السكوت على الحاضرين إلا من بعض الهمس الذي كان يدور بين الشديد وأمير الجماعة الذي توجه إلى الأخير بنظره، ثم كلمه قائلاً: لكن ذبح هذا الرجل يا أخي الأخير جهاد في سبيل الله ونصرة لنبيه.

لم يستطع أي من مؤرخي الفن تحديد السنة التي ولد فيها بروغل، وإن كان ثمة إجماع أن هذا الرسام العظيم ولد بين عامي 1525 و 1530 في هولندا.

عندما كلم أمير الجماعة الأخير عند قبر أمه، كان الكاتب صديق الأخير يشاهد عبر إحدى محطات التلفزة الأجنبية عالم الجمال الذي نال جائزة هامة من إحدى الجامعات الأميركية، يلقي محاضرة حول فنان تشكيلي هولندي ينتمي إلى القرن السادس عشر الميلادي ويدعى بيتر بروغل.

كان الكاتب الجميل ممدداً باسترخاء فوق كنبته الزرقاء يحتسي الشاي الأسود مستمتعاً بمحاضرة البروفيسور الأميركي الذي كان يتكلم على "Tower of Babel" لبروغل، شارحاً كيف أن هذا الفنان أراد عبر هذه اللوحة العملاقة إبراز فكرة "هزيمة الغيب أمام المدينة"، متكلماً على البيئة الاجتماعية والثقافية وبشكل خاص الاقتصادية التي أوحت لبروغل كي يأتي بهذه الرائعة، كما قال البروفيسور الأميركي.

أما أمير الجماعة، فكان عند قبر أم الأخير يحذر الأخير من أن تلم به الشفقة على من هم أمثال هذا الكافر الزنديق من الذين يلوثون بيئتنا الإسلامية وينشرون في حواضرنا الطاهرة ضروب السموم والآفات وغيرها من موبقات الغرب الكافر.

فيما يتعلق بـ "The Parable of the Blind" أو "العميان"، فهي آخر لوحة رسمها بروغل، كان يتابع العالم الأميركي.

لم يكن الأخير ينظر إلى أمير الجماعة مباشرة. لم يكن ينظر إلى أحد. كان مطأطئ الرأس وثمة عيون تحدق بالصبي والشديد الذي كان يتأمل الخنجر. قال الأمير للأخير: إن الغرب آفة العالمين،

لا يحفظ أهل الغرب للعرض مأمناً ولا يقيمون لتعاليم ديننا الحنيف وزناً. وجب قتالهم إلى يوم الدين وكتب الله علينا سفك من يواليهم حتى ولو كان ممن يدعي الإسلام. أولم تقرأ يا الأخير في كتابه تعالى "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون"؟

بعد مقدمة يطول بثها في هذا الكتاب، جعل عالم الجمال الأميركي يتكلم على لوحة العميان باعتبارها نصاً بصرياً هاماً من القرن السادس عشر. قال العالم: إن بروغل كان يبشر في هذه اللوحة بقدرة العقل على تحسين شروط الإنسان مقابل ظلامية كل ما يضاد هذا العقل. إن العميان في هذه اللوحة- كما كان يتكلم العالم بحماس كبير- يرمزون إلى الذين لا يرون في العقل سبباً للتقدم والتطور البشريين. أما الحفرة...

اسمع يا الأخير، كان يقول أمير الجماعة، إن الإسلام دين الفطرة والعقل السليم، ومن يخرج عن تعاليم هذا الدين وسنة نبيه يخرجه الله من رحمته ويورده موارد التهلكة والعذاب الأليم كما قال الله في كتابه العزيز، "وبشر الذين كفروا بعذاب أليم".

إن عظمة لوحة العميان- وقد قام العالم الأميركي عن مقعده، وجعل يدلل على اللوحة بعصا كانت معه- إن عظمة هذه اللوحة تكمن في فكرة أن الخروج من لعنة الظلام إلى نعمة النور تعتمد على سيادة العقل المطلقة. أما الحفرة في هذه اللوحة، أراد بروغل من خلالها أن يشير إلى مكان الذين لا يوافقون درب العقل ومسيرته التي خطها فلاسفتنا اللاحقين، كما قال العالم الأميركي الذي كان يبتسم مع كل مرة ينطق فيها بكلمة "العقل" وكلمة "التقدم" و"الجنس البشري".

بعد لحظات خيم عليها السكون المطبق، قال أمير الجماعة للأخير الذي بدأ يستمد شيئاً من توازنه، إن مهمتنا يا الأخير تقوم على تعرية قلوب الكافرين من أهل الغرب ومن لحق بركبهم من أبناء بلادنا المغرّر بهم، شأن ذلك الكاتب الكافر. يجب يا أخي الأخير أن نعري قلوب من ظلموا أنفسهم بأن ابتنوا في قلوبهم بنياناً يخالف بنيان سنة رسولنا الكريم. ثم أغمض عينيه وجعل يتلو "أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين".

ختم عالم الجمال الأميركي محاضرته عن بروغل بالكلام على الرؤية التنبؤية لهذا الفنان العظيم الذي سبق عصر الأنوار الأوروبي، نعم الأنوار الأوروبي بقرنين من خلال لوحة العميان التي هي ودائماً حسب البروفيسور الأميركي، تجسد بعمق فكرة طهارة العقل مقابل دنس الخرافة.

تحول هدوء أمير الجماعة إلى غلظة وصوت عالٍ كاد أن يوقظ أم الأخير نازلاً باللائمة على كل من تخوله نفسه فكّ رباط البأس وشدة الحزم في التعامل مع أعداء الله ورسوله الأكرم، هامساً في أذن الأخير أن اقتلاع أزهار الشر من هذه الدنيا الفانية تتطلب جهاد المتقين،"يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين".

لم تقم المرأة من تحت الحطب، وقد غادر الجميع إلا الأخير.

ثمة فوضى جعلت تتناوش نفس الصبي، فيتطلع إلى أمه الطازجة علّها تبادره برأفة ما. كل الأصوات انحلت من حول الأخير إلا صوت الهواء الذي كان ينغرس بكآبة في غصون أشجار المقبرة وبين مساحات شواهدها. نشرت العتمة مضامينها السوداء كأنها غراب أصم. كانت العتمة

في القبر كأنها قوس قزح من الفراشات الميتة. رأى الأخير إلى العتمة وقد غادر الجميع كأنها عين ديك مذبوح تحدّق.

نام الأخير ليلتذاك عند حطب أمه المشقق، نام كأنه جثتها. كل شيء نام إلا الهواء وبودلير الذي كان يلتهم الأخير من بين شواهد المقبرة ويتمتم بكلمات تتعلق برفض الإنسان المتحضر التدخل في شؤون مشنوق**!!**

نام الأخير ولما استفاق كانت أمه لا تزال هنا وكان بودلير لا يزال هنا يتكلم بصمت عن العالم المذهول الذي تخور قواه في جبن، حيث النائم شبه مستيقظ يتذوق شهوات فنائه ببطء.

55

عمر قلب الكاتب بالفرح، وقد رأى إلى الامبراطور يشيل من داخل قبعته ميكروفوناً ضخماً ويناوله إلى هيغل.

لم يكن الكاتب الجميل يتوقع سماع كل الحوار الذي كان يدور بين هيغل ومنتحر دوستويفسكي، إنما الآن، وقد لبى الامبراطور الشاب أمنية هيغل وقدم له هذا الميكروفون، صار بالإمكان سماع وجهة النظر الهيغلية بكل وضوح.

صدح صوت هيغل في كل أرجاء البيت، وقد استكمل فمه الكبير بهذا الفم الامبراطوري الكبير. قال للمنتحر متشامخاً إن صوته منذ الآن فصاعداً سوف يصم كل الآذان ولن يردعه عن القول أي صوت آخر. أُسقط في يد منتحر دوستويفسكي، وجعل يصيح وكان منظره يوحي باليأس وهو يعمل جاهداً بغية إيصال صوته إنما بلا طائل. إن ميكروفون الامبراطور سحق عبر هيغل كل الأصوات الأخرى وبالكاد استطاع صديق الأخير سماع همهمات المنتحر.

أخذ الكاتب يرهف السمع بكل ما أوتي من حدة أذن، فدوّن بعد أن خفض صوت الستيريو الذي كان بجانبه، ما يلي:

أخذ المجاز الدوستويفسكي الفريد ينصح هيغل أن لا يرتمي في مغبة الـ....، لكن صاحب الميكروفون لم يحفل بتحذيرات المنتحر، ومع كل قفزة يقفزها في أرجاء البيت كان يزمجر عبر ميكروفونه الامبراطوري أن سكان كل البيوت الأخرى مدينون لجده.

لكن جدك- وأثناء لحظة صمت هيغلية- ليس إلا مجرد وهم، قال المنتحر هازئاً.

أنت الوهم يا كائن الهمس، رد هيغل على المنتحر ليتوجه بعدها إلى الامبراطور بنظره. كعادته منذ أن صار هنا، لم يخيّب الامبراطور هيغل، فإذا به وعبر يديه السحريتيتن، يشيل من داخل قبعته ما يشبه الوثيقة ويناولها بزخمه الامبراطوري إلى هيغل.

فضّ هيغل الرسالة الامبراطورية وقد توردت وجنتاه ونمت نظراته عن تعالٍ رخيص، وجعل عبر الميكروفون- الذي يجوز وصفه من الآن فصاعداً بالتاريخي- يقرأ:

بيان في أصل التقدم البشري وفصله.

اشمأط منظر منتحر "الممسوسون" واسودت الدنيا أمام ناظريه وقد سمع هيغل يهدر بأصل التقدم البشري وفصله. نمّ شكل المنتحر الشاب، وقد استحوذت عبارات الأصل والفصل على مجمل الرسالة الهيغلية، نمّ شكله عما يشبه القرف ومحض الاشمئزاز، وجعل يصيح. لكن، وفي غمرة الميكروفون التاريخي، كان صياحه كأنه هسيس. لم يعد صوت هذا المنتحر الحزين مسموعاً، لم يعد صوته وفي عز العجقة الهيغلية، إلا سراباً.

قرأ هيغل أنه سليل سيد النار وحافظها، وقرأ أيضاً أن النار ملكه. لم يتمالك منتحر دوستويفسكي نفسه وألمّت به الخيبة وصاح بما لا أحد يدري ماذا.... أما هيغل، وارث النار على حد تعبيره،

فكان يردد بلا خجل- وهي العبارة الوحيدة التي استطاع الكاتب التقاطها من المنتحر- أما هذا الهيغل، فكان يردد أن أصحاب البيوت الأخرى رهن نارنا، رهن دفئنا، رهن نورنا، رهن شعاعنا، رهن... رهن... رهن...، مكرراً كلمة رهن أكثر من مئة ألف مرة.

صار صراخ المنتحر الذي كان إلى الهمس أقرب يعبر عن نفسه عبر شرايين رقبته المنتفخة، ويعبر عن نفسه أيضاً عبر جحوظ عينيه. لم يبال هيغل الوقح بردة فعل المنتحر، وكان، وقد استولى بصوته على كل المشهد، أقرب إلى خطيب يوناني يقرأ أن نسر زوس ما زال هنا وأن كبد بروميثيوس ما زال عرضة لنهش هذا النسر الجائع، داعياً الجميع إلى أخذ الحذر.

اكتست نبرة هيغل طابع الخطابة الكلاسيكية وهو يقرأ عبر رسالة قبعة الامبراطور أن زوس الزمن الحاضر لن يهدأ له بال وها هو كل يوم يرسل نسره المعدني لينهش كبدنا يوماً بعد يوم.

لم يفهم الكاتب الجميل- وقد أخفض صوت الستيريو أكثر- وجهة نظر منتحر دوستويفسكي إلا عبر شكل هذا المنتحر وقد تلبدت أجواء البيت بمحض ضجيج الصوت الهيغلي وكلماته حول المدينة الأخيرة والموت والسيد والعبد والعدم والحرب والشرق والغرب والروح والتاريخ والفكرة ونقيضها وغيرها من الكلمات التي عمّت الأرجاء كأنها وابل من حديد محمّى تنتظر وابلاً من حديد محمى.

بذل الكاتب كل جهد عله يتوفق بحرف ما من حروف المنتحر، إنما أي حرف هو وميكروفون هيغل تحول ليصير سيد الحروف وسيد الكلمات وسيد كل قول؟!

لم يمل أعور الحضارات- وهي صفة خالسها أحد الدوستويفسكيين بغتة- من ترداد كلمات النار، نحن، الجنس البشري، التقدم، الحضارة... وغيرها من اللتلتات الحديدية، مكرراً بين كل لتلتة وأخرى وبنبرة تنم عن حذر كثير، أن النسر ما زال هنا وأن كبدنا السمين جداً لن يكف عن مراودة هذا النسر.

فرح الامبراطور بهيغل كثيراً، واطمأن إلى مستقبله الزاهر، فجمع شؤونه وبارك مريديه الافتراضيين وعاد إلى لوحة دا؟يد. أما هيغل، الميكروفون هيغل، وقد استبدت به رغبة القول من كل حدب وصوب، فكان يطالع المنتحر من وراء ميكروفونه ناظراً إليه بازدراء لما ومن حيث لا أحد يدري، نصحه أحد الدوستويفسكيين أن يعجل بالرحيل.

- الدوستويفسكي الأول: اهرب يا هيغل، أرجوك أن تهرب.

- الدوستويفسكي الثاني: اقتله يا مجازي المشوَّه، هيا يا مجاز القرن، انقض عليه.

- الدوستويفسكي الأول: لا تؤذه يا المنتحر، أرجوك لا تؤذ هيغل.

- الدوستويفسكي الثاني: اقـ....

لم يكمل بقية كلامه، فالنار كانت قد أتت عليه!!

مع موت الدوستويفسكي الثاني، مات الدوستويفسكي الأول بالتأكيد. أما المنتحر...

لم يسمع صديق الأخير بقية ما دار من حديث في البيت بعد موت الدوستويفسكيين، ولم يتبين المشهد التالي. فالنار، وكما دوّن الكاتب الجميل، اشتدت داخل فضاءات البيت حاجبة أي رؤيا واضحة وحاجبة مصائر سكان البيت. دوّن- وكان مسروراً أن روايته قاب قوسين على الانتهاء-

أن باب البيت انفتح، وخرج أحدهم دون أن يبلى بنار. خرج كأنه انتحر لتوه وكان في شكله يشبه المجاز.

أمسك الكاتب صديق الأخير عن الكتابة وقد أنهكه صوت الضجيج، فرمى بالقلم من يده وجعل يحتسي شايه الأسود شاخصاً في النافذة أمامه راسماً في رأسه نعشاً يحمله المجاز.

56

لم يدوّن الكاتب أن المجاز انوجد بغتة داخل غرفة فوق البحر بمعية آخرين. لم يدون صديق الأخير حرفاً واحداً بعد أن رمى القلم فوق طاولة الورق المبعثر.

كان يحتسي الشاي ساهياً إلا عن مشهد يرسمه في ذهنه يرى فيه إلى المجاز وكأنه تابوت جوال. كان الأمر في ذهن الكاتب أشبه برحلة تابوت بالإضافة إلى توابيت أخرى. اتكأ على المسند الخلفي للكنبة الزرقاء وكوب الشاي في يده، وكان فيه بعض انشراح أن روايته قاربت الانتهاء.

صار يمرر نظره بين القلم والنافذة، ويتمتم، وكان أشبه بالمعتوه. مع كل تحديق في النافذة، كان الكاتب يحاول لقط المشهد، لكن الصورة وكأني بها تراوغ الرجل، كانت تنزلق من أمام عينيه فيتأفف ويعود إلى التحديق من جديد. كانت عبارة مشهد النعش رجراجة جداً في ذهن صديق الأخير. كرع كرعة من شايه الأسود، حمل القلم وحاول تدوين أن شاباً في مقتبل العمر فتح باباً من الحديد الصدئ وفاجأ رجل المجاز الذي خرج لتوه من بيت النار.

راقت العبارة الأخيرة الكاتب، لكنه عدل عن تدوينها بانتظار أن تزوده النافذة برؤية أكثر جلاء لمصير رجل المجاز الذي لم تلتهمه النار.

صار الكاتب ينقر بالقلم فوق أوراقه ويشخبط ويداور العبارات في ذهنه بينما الشاب اليافع يقف مشدوهاً وقد غصّت غرفة البحر برجال منهمكين في الطباعة أو شيء من هذا القبيل.

كان المشهد برمته عصياً على النظر، أو بالأحرى كان أقرب إلى الـ puzzle التي جمْع عناصرها يتطلب تركيزاً شديداً.

تباً للبحر!! من أين أتى البحر إلى متون روايتي؟ همس الكاتب بهذه العبارات وقد اعتملت في صدره عوامل التوتر والإنهاك. من أين أتى البحر في هذا المشهد الـ...؟

قام الكاتب، وقد ازدادت الحركة داخل غرفة البحر، من فوق كنبته البليلة بالعرق وطفق يقلّب الكتب الموزعة في أرجاء الغرفة ممنياً النفس بإيحاء أو بفكرة أو ربما بجملة يقدمها كتاب ما من تلك الكتب المذررة بضوضاء.

أوز؟الد اشبنغلر، أفول الغرب. تشارلز داروين، أصل الأنواع. كارل ماركس، رأس المال. فرويد، تفسير الأحلام. نيتشه، هكذا تكلم زرادشت. توماس مان، الموت في البندقية. أنطولوجيا المسرح الأوروبي في القرن العشرين. الرأسمالية تجدد نفسها. كافكا. كامو. بريخت. جان بول سارتر. بودلير، أزهار الشـ... Waiting for .

اقشعر بدن الكاتب الجميل وقد لمح عبر النافذة مجموعة من الملثمين الذين سرعان ما تواروا عن نظره كأنهم أشباح. جعل يرهف السمع، وصار كالحيوان المتوثب، لكن خارج النافذة لم يردفه إلا بنباح كلب أجش وصوت الضفادع الذي لا ينقطع.

وطّن الكاتب العزم على الدفاع عن نفسه إذا ما اقتحم أحدهم بيته. اقترب من زجاج النافذة، لكن الليل لم ينبئه إلا بالعتمة وبكلب أعرج وبأغراض ليلية أخرى. عاد إلى شايه الأسود، وكان مشتتاً بين خارج الملثمين والنافذة التي ما زالت متشبثة بأن لا تفيض بمشهدها صراحة.

جلس على كنبته الزرقاء وقد امتقع وجهه بمد من الخوف الصامت، وكان يحمل في يده نسخة من "عن فاطمة الخضراء"، يقلّب صفحاتها وقد ابتدرها كأنها لعبة أو شيء من هذا القبيل.

عمل صديق الأخير على مغالبة الخوف الذي ألم به بعد لمحه الملثمين، فانحنى فوق أوراقه متحايلاً على خوفه، لكنه لم يكتب شيئاً. صارت النافذة قبالة الكاتب كأنها تهسهس فتشد نظره الذي جعل يتأمل بذعر بطانية سوداء تحتضن جثة أحدهم- لا يدري الكاتب من- وورد أسود وماكينة طباعة تقعقع والشاب اليافع الذي كان... إنه الأخير، يه، الأخير!!

عانى وجه الكاتب تبدلاً حاداً في الملامح، وقد مدته نافذة بيته بصورة الأخير في هذا المشهد الرجراج. لم يأنس في نفسه القدرة على تتبع مشهد النافذة حتى نهايته، لكنه لمح رجل المجاز يربت فوق كتف الأخير (؟!) كأنه على معرفة به، كأنهما صديقان أو شريكان في جريمة... كلا كلا، خافت الكاتب الصوت في صدره.

لم يدوّن الكاتب مشهد النافذة فوق الورق، وخاب ظنه لأن روايته تتناوشها جثث لم تكن في الحسبان. كانت "عن فاطمة الخضراء" في حضنه لما تلاشى مشهد النافذة برمته عن ذهنه المهذار. ارتج قلبه في صدره وقد تناهى إلى مسامعه وقع أقدام مكتومة، لكنه شد من أزر نفسه ودوّن بإرباك ما يلي:

... فجأة، وقد توارى رجل المجاز عن الأنظار، خرج من منزل النار بضعة رجال يتكئون على بعضهم البعض ويتلمسون الطريق بعصيان يحملونها، فيتعثرون على الطرق ويسقطون، ثم ينهضون ليتعثروا من جديد، وهكذا دواليك. كان الرجال- دوّن الكاتب ووقع الأقدام يقترب- قد صاروا خارج البيت الذي تحول إلى برج من الشهب الأحمر. دوّن- وقد تحول وقع الأقدام إلى طرق فوق باب بيته الركيك- أن الرجال المتعثرين كانوا في مشيهم الهزيل أشبه بالعميان الذين يقودهم أعمى. أما رجل المجاز ذاك، كان.....

رفع صديق الأخير رأسه عن طاولة الكتابة بغتة، وتوجه بنظره إلى باب بيته مخافتاً الصوت في صدره: ماذا يريد هؤلاء مني؟ شدّ "عن فاطمة الخضراء" إلى صدره كأنها تعويذة أمان لما انخلع الباب عن بكرة أبيه وثمة ثلاثة أو أربعة ملثمين عند عتبة بيته الجميل.

57

قصة الرجل الذي قرر أن يكون شاعراً.

أخبرني أبي وكان ذلك يوم استمنائه الأول قال: أحدهم، وهو من علية القوم، كتب في مذكراته أن الله أراد أن يستجوبه يوماً فرمى به في صحراء قاحلة وجعل فوقه غمامة كثيفة من الذباب الأسود.

قال أبي، وكان ذلك يوم استمنائه الثاني، إن الناس لا تعرف من أمر هذا الرجل شيئاً. يقال إنه عاش يتيماً في الصحراء وثمة إشاعة أنه استفاق بغتة على انشقاق في صدره ونور عظيم. كان ذلك في الدهر الأخير من عمر الرمل، يوم قرر هذا الرجل أن يصير شاعراً على مرأى من كل الناس، قال أبي يوم استمنائه الثالث.

ذات ظهيرة خرج الرجل، قال أبي، من بين جمع غفير، يطوف حول حجر ضخم وصاح: أنا آخر الشعراء.

لم تلبِّ صيحة الرجل عند تلك الظهيرة القائظة حاجة الشعر فيه، فصاح ثانية ثم ثالثة ثم رابعة والكل عنه غافلون. كان الجمع الغفير يطوف عارياً إلا من غمس العرق، والشمس يومذاك في صحن السماء ترجف كأنها عين مجرم خائف.

رجال، نساء، أطفال عراة، حتى الشيوخ يوم ذاك الطواف العظيم كان العري سيد أجسادهم، والشمس فوقهم ترجف كعين المجرم الخائف، قال أبي يوم استمنائه الرابع.

اشتدت حاجة الشعر في قلب الرجل، حتى كأن الشعر خلاص كما قال، كأن الشعر نعمة، كأن الشعر إله، كلم الرجل نفسه كما أخبرني أبي يوم استمنائه الخامس. لم يدرك رجل الكلم والحرف الجديد، قال أبي، إن الشعر فيض الجرح. لم يدرك هذا الرجل أن الشعر فيض العدم. أُسقط في يد الرجل وتاه في صحراء ذاته، وصارت الكلمات عند شفتيه كأنها بقاع لا تجيد إلا التيه.

كلم الرجل ذاته في ليل بهيم أن كلمات قبيلته صديد، أن كلمات القبيلة ثغاء، ولا بد كما قال من بعض الهجر. أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه السادس، أن الرجل نظر إلى القمر يوماً وأنشد، ثم أنشد ثم أنشد حتى سقط على الأرض مغشياً عليه.

همس أبي في أذني، وكان ذلك يوم استمنائه السابع، وقال: كان الرجل إذا واتته نوبة الشعر يتضعضع يغيب ثم يستفيق، فيعود ليغيب من جديد. كان إذا واتته النوبة يصير محل إرهاق عظيم، ينز العرق، لا يسمع ما يقال له، تهزه الرعشة، وتطغى على مسامعه أصوات السلاسل والنواقيس وأصوات أخرى.

نعم، كلمني أبي: أن الرجل كان يعاني تجربة الشعر بجسده، بلحمه، بلسانه، وبعينيه. كان يعاني الشعر بظاهره وبباطنه، وكان لما يتلو شعره ينكمش وجهه وينبسط، حتى يغدو هذا الوجه زحمة القبل، زحمة البعد وزحمة الآن.

ولا مرة، أخبرني أبي يوم استمنائه الثامن، فشل الرجل في تلقف شعره العظيم. ولا مرة سقط في ثقب اللاحرف، ولا مرة كما أخبرني أبي متنهنهاً، زاغ الرجل عن ناحية شعره أو ضل الطريق.

الشعر حاجة الحرف فينا، كلم الرجل قومه يوماً لعلهم يعلمون. لكن القوم، ومع صياح ديك الفجر، انصرفوا عنه ساخرين. لسنا بحاجة إلى شاعر أو جن أو ساحر شريد، كلمه زعيم القبيلة جهاراً، نحن بحاجة إلى أصل متين... نحن بحاجة إلى رجل سماء يصعد إلى السماء وينزل، عندنا من الشعراء الكثير.

ازدرد الرجل كلام القبيلة ورأى إلى نفسه غريباً.

أنا غريب الشعر الأخير، خالس الصوت في صدره، أنا غريب الحرف الجديد... أنا هو الغريب.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه التاسع، قال: اعتزل الرجل أمور ناس القبيلة وانفض إلى بئر عميق يفتش فيه عن إله. كانت الآلهة يومذاك كثيرة جداً في سماء القبيلة وجوفها، لكن الآلهة يومذاك كانت بحاجة إلى حرف وجرح وشهب نار.

الحرف وجه الإله وجسده، الحرف حركة الإله الظاهرة فوق جسد معبوديه.

أنصت الرجل بكل مسامه إلى وشوشات البئر العميق، إلى ليل هذا البئر وفكر: ليس لليل مستقبل واضح، فلأنتظر انبلاج الفجر المبين.

عند أول فجر وضاح، كلم البئر رجل العزلة وقال له: لا تحتار أي من الآلهة تختار، تمتع بحس الحرف الضاري واختيارك سوف يكون صائباً. تمتع بنعمة الحرف المسنن وارتجل إلهك، عندها حتماً سوف تفوز. إن الإله والحرف صنوان، فحّ البئر في وجه الشاعر وهسهس: الحرف ظاهر باطن الإله.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم اسمتنائه العاشر، قال: خاف الرجل همس البئر، خاف هسهسة هذا البئر وعمَته الرهبة وقد لفته من كل حدب وصوب. صار الرجل يجوب صحراء القبيلة مذعوراً ويجوب صحراء ذاته ساهياً حتى لقب بالمجنون.

لحق رعناء القبيلة برجل البئر هازئين وشوه الأشقياء عتبة بيته والجوار. أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه الحادي عشر، أن الرجل صار إلى الخيال أقرب، وحاول القفز من فوق الجبل، ثم شرد في وادٍ سحيق.

قال أبي: إن التاريخ لم يحضر مزاولة الرجل للصحراء وحيداً. أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه الثاني عشر، أن تاريخ صحراء الرجل بهت ثم شفّ ثم اضمحل ثم غاب. لكن الرجل وقد رأى إلى الغيم متدلياً، انتصب شدّ من أزر نفسه ووضع كتاب الهواء والرمل والشمس والصحراء. وطن رجل الكلمات العزم، وقد أيقن أنه عظيم، على عقد القران المقدس بين الموت والكلمات، وهام.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه الثالث عشر، قال: فزع ناس القبيلة شعر رجل الكلمات ورأوا فيه ما يشبه الخيانة، رأوا إليه محل ظنون. ناوشوا الرجل كلماته، صبوا زيت قوافلهم فوق تضاريس هاته الكلمات وعيّنوا فوقه الكارثة والهلاك.

صمت الرجل لفترة من الزمن طويلة، تلفع أحرفه الصامتة وهاجر إلى دار جديدة. حتى الآن، قال أبي يوم استمنائه الرابع عشر، لا ندري من أمر هجرة الرجل شيئاً. يقال أن النحل يومذاك أرشد الرجل حسن السبيل، ويقال إن النجم والقمر والرعد والفجر رسمت للتائه أفق الطريق.

صار الرجل، قال أبي، كأنه فتى القلم المدلل. يستهدي بالقلم تارة وتارة يستهدي بالدخان. أسقط في يد ناس القبيلة، أخبرني أبي يوم استمنائه الخامس عشر، وقرروا في الرجل القتل، قرروا في الرجل الموت. فموت هذا الرجل، قالت عجوز شمطاء، هو ارتخاء الكلمات فيه.

يقال، وكما أخبرني أبي، إن كلمات رجل التيه أصابت الناس بالإعياء، هتكت كلماته سراديبهم وحولت أهازيجهم إلى قصص زيف. ثمة بين أهل القبيلة من عاف كلماته، وآخرون بعد جهد جهيد أكلوا بنهم من وليمة هذه الكلمات.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه السادس عشر، قال: كل مخلوقات البسيطة صارت مواضيع لفعل "تعجَّب"، كل موجودات الفلك تحولت إلى آيات رائعة بفضل قدرة هذا الرجل على تغنيج الكلمات تارة، وشد عودها تارات وتارات.

حاول البعض سرقة بعض كلمات الرجل وزرعها في صحراء أخرى، وثمة من جرب نزع روح هاته الكلمات. لكن الكلمات جسد الرجل... جسد الشاعر. إن الكلمات شغف المستحيل، شغف الغيم والفرار، قال رجل التيه لبعض قومه، كما أخبرني أبي يوم استمنائه السابع عشر.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه الثامن عشر، أن ناس القبيلة وقفوا أمام نصب الكلمات مشدوهين، وكلموا الرجل بصوت واحد أنك أنتَ رجل السماء الموعود... أنت هو جسد الأصل، قال له أهل القبيلة مهللين!!

خاف الرجل وضوح السماء، خاف ديجور الأصل ومتاهاته، وقرأ في عيون القبيلة أن اللغة مصيدة الإله. حاول الرجل تجنّب القبيلة، حاول تجنب السماء ورفض عقد القران المستحيل بين الأرض والسماء. لكن الرجال، رجال القبيلة، شرعوا باب المنفى أمامه ورموا به في لجة المستحيل.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه التاسع عشر، قال: خاف الرجل زخم السماء وفر إلى حضن آمن وتوسل وشاحاً أو شيئاً من هذا القبيل.

أم الشاعر، زينة الأمان. أم الشاعر ورم الحنان. أم الشاعر قفص الخوف.

يقال: إن الشاعر خاف ولوج عتبة باب بيته وقد رأى إلى بطن أمه جبلاً. كان ذلك في العقد الأخير من الرمل المنصرم يوم رأى رجل الكلمات إلى بطن أمه جبلاً. سأل الشاعر أمه بخفر، بغتة هذا البطن الكبير. كلمته أن بطنها حبل وسألته دفق الكلمات بعد.

خاف الشاعر كلمات لسانه، خاف بطن أمه الكبير وعزى خوفه كما يقال إلى جن، إلى سحر أسود وعزاه مرة إلى شيطان لعين. كلمته القبيلة أن الحبل نعمة حروفه، كلمته أن بطن أمه الكتاب.

صار الغريب يحكي الحجار وصار يحكي الشجر. علم الناس كل شيء، علمهم أمور الحياة وأمور الموت وأمور الضجر. أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه العشرين، قال: هللت القبيلة أن رجلها بياوم الإنصات إلى صوت السماء. كل يوم السماء هنا، كل يوم السماء هناك، كل يوم السماء لسان. السماء لساننا، تفاخرت القبيلة أمام غيرها من قبائل التيه والضلال.

أما رجل الكلمات ذاك، ورأفة منه بجسد كلماته، جعل يجترح أجساد النساء نصوصاً أخرى للحقيقة. أخبرني أبي، أن الرجل صار يبيت كل قمر عند جسد مستأنفاً إياه لغة أخرى. صار الشاعر، قال أبي، يزاوج بين مستحيل الكلمات وأجساد النساء علّ الرجال يفهمون. لكن الرجال، رجال القبيلة، رأوا في نسائه مجازاً وصاروا يحنون أمامهن الرقاب.

كلم رجل الكلمات ناسه أن نساءه لسن حرث السماء. قال لهم: إن نساءه كتاب الدنيا وقال: إن اللغة جسد. لكن الرجال، رجال القبيلة، وكما أخبرني أبي يوم استمنائه الحادي والعشرين، لم يلتفتوا إلى رأي الرجل بنسائه، بل إنهم بنوا سلّماً شديد الضخامة يخترق بطوله قبة السماء.

أخبرني أبي أن رجال القبيلة رأوا بأم العين ونبض القلب وإجماع الرأي وحجة العقل رجلهم يصعد إلى السماء. أخبرني، وكان ذلك يوم استمنائه الثاني والعشرين، قال: أقسم رجل الكلمات إنه ليس بوارد السماء. قال أمام كل القبيلة إنه يوم الصعود المزعوم كان هناك عند أمه يستجدي نهدها بعض الغذاء.

قال أبي يوم استمنائه الثالث والعشرين إن رجل الكلمات تجرأ وقال للقبيلة أن حليب أمه جف وإن بطنها صار كبيراً، وبكى عند أطراف القبيلة وسأل ناسها الرحيل.

بكى الشاعر حليب أمه وقد لف حلقه الجفاف، وكان يتمتم أن الكلمات شأن خطير. بكى الشاعر عند أطراف القبيلة وحيداً مخافتاً الصوت في صدره كأنه يهمس بسر لنفسه أن الإله يجيد بمكر التلطي عند جذور الكلمات.

نبش ليلة الكلمات تلك كل كلمات القبيلة على ضوء القمر، وكانت به رعشة وسهو خاطر وجلبة ذهن وأصوات نواقيس. نبش الشاعر ليلتذاك كل كلمات القبيلة ممنياً النفس إحراج الإله واجتراح شاعر أو كائن من هذا القبيل.

ليلتذاك جف حليب أمه، ورأى الشاعر تلك الليلة إلى أسنانه تتساقط بذعر فوق بطن أمه الكبير.

أخبرني أبي، وكان ذلك يوم استمنائه الرابع والعشرين، قال: حملت صاحبة البطن الكبير أسنان ابنها وطفقت تجوب الأرجاء. وزعت الحبلى أسنان الشاعر على وجهاء القبيلة وتجارها وزرعت بعضها عند جنبات الطرقات.

أخبرني أبي أن الحبلى شاخت كثيراً، لكن أسنان ابنها الناصعة لم تخلص حتى الآن. حتى اليوم، قال أبي، توزع أسنان شاعر التيه على الوجهاء والتجار. أما الشاعر، ونقلاً عن أبي الخرف، يقال إنه قتل أمه بأن دسّ لها السم.

أخبرني أبي أن الشاعر بعد لغز موت الحبلى هجر القبيلة وتركها في حيرة من أمرها ممنياً النفس أن يخرج رجال القبيلة من وهم السلّم العظيم، لكن القبيلة وكما قال أبي الخرف يوم استمنائه الخامس والعشرين، ما انفكت تؤكد أنها رأت بأم العين إلى الرجل يياوم الصعود إلى السماء.

أخبرني أبي عشية قفزه عن سطح البيت أن الشاعر تاه في الصحراء وحيداً وقد فشل في أن يكون شاعراً. أخبرني أبي وكان الذباب فوق وجهه يحوم بلؤم، أن الشاعر خاف ليل الصحراء البارد وخاف شمسها التي تشبه عين مجرم خائف وجاع.

جاع الشاعر في تيهه كثيراً، ورأى إلى سراب الماء وإلى رجال أكلت الضباع أقدامهم ورأى إلى مأتم عظيم.

أخبرني أبي، وكان ذلك لحظة قفزه عن السطح، أن الشاعر وقبل أن تلتهمه القبيلة عند تخوم الصحراء، همس في أذن أمه التي كانت تندب بحزن صاحب المأتم العظيم، وقال: يوم دفن الله العظيم يختلط الأحياء بالأموات والأموات بالأحياء ويصير التمييز بينهم مستحيلاً، فقط يوم دفن الله.

أما وقد مات أبي، كفّ عن الكلام مؤقتاً، لكنه وقد لبد بعد قفزه عن السطح، قال لي: إن قصة الرجل الذي قرر أن يصير شاعراً لم تنته، وسأطالعك بها فيما بعد.

58

ماذا يريد هؤلاء مني؟!

محدقاً في عيون الملثمين و"عن فاطمة الخضراء" بين يديه، قال الكاتب لهؤلاء: هذا رأسي، اقطعوه...

- هي: أنت وعدتني أن تحييني من جديد.

- هو (متلعثماً): لا أستطيع.

- هي (بصوت خفيض وأبح): لماذا؟

- هو: لم أكن أدري أن الموت مطلق إلى هذا الحد.

- هي (صارخة): وما ذنبي أنا؟

- هو: ؟؟

- هي (بهدوء): حسناً، لا تعيد إحيائي. أوهمني على الأقل أنني ما زلت حية.

- هو: سأحاول.

- هي (بتوسل): أرجوك.

جعل يمصمص أصابع قدميها الاثنتين ممرراً لسانه فوق رجليها وفرجها وبطنها وصولاً إلى نهديها ورقبتها وكتفيها وكل وجهها، ثم جعل يتنفس بين خصلات شعرها بأنفاس حارة.

- هي (بحزن): ما زلت ميتة.

- هو (متأففاً): سأحاول من جديد.

- هي (بعد لحظة صمت): أرجوك.

حمل أحد دواوين الشعر وجعل يجوب أرجاء المسرح قارئاً أشعاراً جميلة. كان يسير الهوينا ويتنهد بعمق مع كل قصيدة يؤديها، وثمة قصائد جعلت الدمع يترقرق بخجل من مقلتيه.

- هي (بملل): ما زال الموت يرخي بظلاله عليّ.

- هو: سأقوم بمحاولة أخرى.

- هي: أرجوك عجّل، إن الموت يوجعني.

أشعل ناراً حول جثتها وأخذ يرقص كالمجنون. كان يقفز ملوحاً بيديه الاثنتين ورافعاً قدميه إلى الأعلى كأنه ساحر من زمن غابر. لم يبال بتعب أرهقه، ظل يرقص حتى طلوع الفجر لكنها لم تستفق.

- هي (بتحسر): ما زلت ميتة.

- هو: عذراً، يبدو أنني فشلت.

- هي (متوسلة): أرجوك، حاول من جديد، إن الموت يضجرني.

- هو (بحماس): ما رأيك أن أموت أيضاً؟ فلا أنا أفتقدكِ ولا أنت تضجرين.

- هي (بفرح): إذن، هيا مت بسرعة أرجوك.

أطلق رصاصة في فمه بعد أن كتب رسالة ودع فيها الأهل والأصدقاء مدوّناً اعتذارات خطرت له بغتة تتعلق بأمور كان قد ظن أنه نسيها منذ سنوات.

- هي (مع دموع الفرح): أهلاً بك، لقد أتيت سريعاً.

- هو (متلفتاً برأسه في كل الجهات): لا تبك أرجوك، سأظل معك إلى الأبد (يصمت لحظة)، إن المكان هنا بارد.

- هي: لا عليك، لحظات وتعتاد برودة الموت.

- هو: لماذا الأضواء هنا خافتة إلى هذا الحد؟!

- هي: لا عليك، لحظات وتعتاد خفوت الموت.

- هو: قومي لنسير قليلاً في هذا الفناء.

- هي (مع ضحكة خفيفة): لكنك ميت، والموتى لا يسيرون.

- هو (بتأفف): فلنحاول.

- هي (بلا مبالاة): لن ننجح.

حاول النهوض بكل قوته، لم يستطع.

- هو: إنني أشعر بضجر مقيت.

- هي: هذا ما لن تعتاده البتة.

- هو: كأن الموت هو الضجر.

- هي: نعم، إن الموت هو الضجر.

- هو (زافراً): ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- هي: لست أدري.

يصمتان لحظة.

- هو: إنني أشعر بجوع قاتل.

- هي (بعينين جاحظتين): ألم تتناول الطعام قبل أن تموت؟

- هو (باستغراب): كلا!

- هي: إنه خطأ جسيم، ستظل جائعاً إلى الأبد.

- هو (وقد صارت علامات الغضب بادية عليه): أرجوك، أخبريني ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

- هي (ببرودة): لا شيء، فقط كلمني.

- هو (متلهفاً): حول ماذا؟

- هي: اختر الموضوع الذي تشاء.

- هو: ؟؟

- هي: ليس لنا هنا إلا كلمات اللسان.

- هو: إني أشعر بضجر مقيت.

- هي: أنا أيضاً.

- هو: أنا جائع.

- هي: ألم تتناول الطعام قبل أن تموت؟

- هو: كلا.

- هي: إنه خطأ جسيم، ستظل جائعاً إلى الأبد.

- هو : ...

- هي: ...

هو..... هي.... هو... هي... هو، هي... هو، هي... هو

- الموت: اصمتا، أريد أن أنام!

لم يتوقع أي من الممثلين أن يقفز أحد المشاهدين إلى المسرح وينزع الغلالة عن مؤدي دور الموت.

فزّ الأخير كالمجنون من مكانه بين الحضور، وتسلق خشبة المسرح وأوقع الموت على الأرض بعد أن نزع الغلالة عنه. ازداد تصفيق الجمهور أكثر وقد ظنوا مشهد الأخير جزءاً من العرض المسرحي. أُسدلت الستارة بسرعة والأخير كان لا يزال جاثماً فوق صدر الموت يصفعه ويلطمه ويبصق عليه. عمل الممثلان الآخران على إبعاد الأخير عن صديقهم الموت، بينما المخرج ظل صامتاً في حين أن أشخاصاً آخرين من العاملين في الكواليس جعلوا يؤنبون هذا المعتوه ويهددونه بالشرطة وبغيرها من الكائنات.

الموت، وهو ممثل شاب في العقد الثالث من العمر، اقترب من الأخير بعد أن هدأ قليلاً وسأله أسباب ضربه له. أصر أحد الرجال، وهو منتج العمل المسرحي على الأغلب، على طلب الشرطة واعتقال هذا المعتوه، لكن ممثل الموت وبشكل خاص المخرج، عملا على إقناع الآخرين مسامحة الأخير والإعفاء عنه شرط تبرير ضربه الموت كما قال المخرج.

كم أنت قصيّ أيها الفردوس المعطر...

تذكر أن الزمن مقامر...

كل شيء سيقول لك: مُتْ أيها الجبان الهرم،

لقد فات الأوان.

شرد الأخير عن الموت وعن الممثلين الآخرين، ولكن ليس عن حدقتي المخرج اللتين كانتا تتربصان به كأنه مجرم خائف. جعل الصبي، وفي عز تحديق المخرج فيه، ينصت إلى بودلير الذي كان واقفاً في إحدى الزوايا المعتمة من المسرح.

ليس الأمر سوى هذا...

إن الستارة مرفوعة وأنا لا أزال أنتظر.

59

بالإضافة إلى مخطوطة سميكة مدوَّن على صفحتها الأولى "الإرهابي الأخير" و CD لعبد الحليم حافظ وكتاب بعنوان "بروميثيوس طليقاً"، أخذ الأخير معه من منزل الكاتب المحروق بطاقة عرض مسرحي في أحد مسارح بيروت.

- الرجل الأول: يقال أن الشرطة عثرت على جثة الكاتب داخل بيته وقد نُزع الرأس عن باقي الجسد.

- الرجل الثاني: يقال أن جثة الكاتب وُجدت متفحمة داخل بيته الذي احترق عن بكرة أبيه.

- الرجل الثالث: يقال أن الكاتب صاحب البيت، وبعد أن نُزع رأسه من فوق كتفيه، عضّ إصبع أحد الملثمين من الذين ذبحوه.

- الرجل الرابع: يقال أن الملثمين دخلوا إلى بيت الكاتب فجراً وبعد أن ذبحوه، نعم بعد أن ذبحوه، أكلوه!

بعد ساعات من العثور على أشلاء الكاتب الجميل داخل بيته المحترق، كان الأخير في منزل ذويه يجهش بالبكاء وحيداً. كانت الشمس في قرص السماء كأنها عين مجرم خائف، بينما الأخير في بيته يبكي فوق "الإرهابي الأخير" وعبد الحليم حافظ وبطاقة عرض مسرحي في يده و"بروميثيوس طليقاً" الذي كان ممزقاً إرباً على الأرض.

طرد مدير المسرح الأخير من جهة الكواليس محذراً إياه مغبة العودة إلى هذا المكان، بينما بودلير ومن تلك الزاوية إياها:

إنه الناموس... النهار يقصر والليل يطول.

تذكر!

الهاوية لا تزال عطشى.

كان قد مر يومان على مصرع الكاتب والشرطة ما زالت في حيرة من أمرها، فليس لهذا الرجل أعداء كما أجمع أهل الحي، وليس ثمة من يزوره إلا فتى يدعى الأخير.

بقيت أشلاء الرجل عدة أيام في براد أحد المستشفيات، ولم يأت أي قريب من أجل التعرف إليه واستلام بقايا الجثة. أسقط في يد محققي الشرطة ومخابراتها وقرروا في نهاية الأمر الاستعانة بذاك المدعو الأخير بغية التعرف إلى الجثة رسمياً وإن أمكن استلامها.

خاف الأخير رجال الأمن، وظن بهم اكتشاف أمر ما، فعمد وهم بعد على بعد أمتار من مدخل البيت، إلى القفز عبر إحدى النوافذ الخلفية والهرب إلى جهة المقابر حيث مخبأ الأمير والشديد. كان بودلير هناك بلا قصائد وبوجه شاحب يلفه الغيم. سأل الأمير الأخير: ما الأمر يا الأخير؟

كان الأخير يلهث وعلامات الهلع بادية عليه، فكرر الأمير السؤال بحدة: ما الأمر يا الأخير!؟ أتت دورية من الشرطة لإلقاء القبض عليّ، قال الأخير للأمير وأردف: لكنني هربت عبر نافذة المطبخ وأتيت تواً إلى هنا.

"يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر، فإذا نقر في الناقور، فذلك يومئذ يوم عسير، على الكافرين غير يسير" صدق الله العظيم، ليتوجه بعدها أمير الجماعة إلى الشديد الذي كان يلف إحدى سبابتيه بقماش مدمّى: بلّغ بقية الإخوة يا أخي الشديد وجوب رحيلنا من هنا.

- الرجل الأول: يقال إن طبيب المشرحة عثر في معدة الكاتب على إصبع يلفه خاتم من الفضة.

- الرجل الثاني: يقال إن على الخاتم فص كبير لونه أسود.

- الرجل الثالث: يقال إن كلمة الله محفورة بوضوح على هذا الفص.

- الرجل الرابع: يقال إن أحد الشرطيين دوّن في محضر التحقيق أنه شاهد الله يفر من فوق الفص ويركض نحو المقبرة.

- الرجل الأول، الرجل الثاني، الرجل الثالث والرجل الرابع (قربوا رؤوسهم من بعضهم البعض وهمسوا): هسّ، إنه شرطي مخبول!

حتى اليوم، وقد مرت على موت الكاتب شهور، لا أحد يدري من أمر الأخير شيئاً. أحد أبناء الحي قال إنه شاهد الأخير صدفة بعد يومين من موت الكاتب، في منطقة الساروla شارع الحمرا في بيروت وبحوزته ما يشبه المخطوطة أو شيئاً من هذا القبيل.

قال الشاب، وكان ذلك بعد أيام من نزع الإصبع من جوف الكاتب المسكين، إن الأخير بدا كالمخبول وهو يحاول إقناع إحداهن أخذ هذه الأوراق ونشرها في كتاب أو في صحيفة. كان الأخير، قال الشاب، يكلم المرأة يومذاك عن كاتب جميل أكل إصبع رجل ومات، وكان يبكي. كان الأخير يبكي بينما علامات الانزعاج أخذت تتمدد على وجه المرأة التي قر قرارها أخيراً على أخذ الأوراق والتخلص من هذا المعتوه، كما سمعها الشاب تتمتم وهي تصعد في سيارتها.

عندما كان الأخير في الخامسة من العمر، كان ينظر إلى السماء بإمعان، ثم يركض نحو أمه ويشدها من ذيل ثوبها أن تنحني قليلاً ليهمس في أذنها، في جرة أسراره، أن النجوم سلاحف صغيرة. كان ذلك عندما كان الأخير في الخامسة من العمر. أما اليوم، وقد كفت النجوم عن أن تكون سلاحف، فلنتابع قصة الأخير.

60

حول روح العصر وأرواح أخرى

لم يهتم الأمير بتاتاً بخبر تقدم أوباما على ماكّين في جديد الانتخابات الأميركية، فالرجل كان مأخوذاً بخبر تعرض مواقع إلكترونية تعود لتنظيم القاعدة لهجمات من أجهزة استخبارات غربية وتوقفها عن البث. جعل الأمير يلعن الغرب الكافر وهو يقرأ أن ثلاثة مواقع الكترونية هي الخلاص والبراق والفردوس توقفت إثر محاصرتها من قبل وكالات الاستخبارات وأكاديميين يدرسون تحركات القاعدة. وجاء في الخبر أيضاً أن هذه المواقع كانت تخطط لبث شرائط ؟يديو للاحتفال بهجمات 11 أيلول. أما الشديد، وقد رمى الأمير بالجريدة، تناولها عن الأرض وجعل يقرأ أن واشنطن دعت إلى قمة عالمية لمواجهة الأزمة المالية التي تعصف بالعالم. كان الشديد مع كل سطر يقرأه يدمدم الله أكبر... الله أكبر، إنه وعد الله، لينتقل بعدها إلى خبر تهجير آلاف المسيحيين العراقيين من مدينة الموصل يقرأه بصوت عالٍ. كانت المجموعة مختبئة في ركن سري بانتظار من سيخرجهم من الحي، وقد اكتشفت الشرطة ما قاموا به كما أخبرهم الأخير الذي كان، وقد وضع الشديد الجريدة جانباً، يقرأ في هذه الجريدة خبر موافقة لورا ابنة أخ لوركا على نبش قبر عمها ومحاولة استقصاء رفاته.

قرّب الأخير الجريدة من وجهه كثيراً وكأن به خجل أن يراه أي من رفاقه يقرأ أن لوركا وبعد مضيّ 72 سنة على قتله في غرناطة سيصار إلى نبش قبره. كان الأخير يشد عينيه وقد أرهقه النعاس، يقرأ أن لوركا الذي قُتل ليل 17-18 آب من العام 1936 رمياً بالرصاص سوف... لقد وصلت السيارة، قال الأمير للآخرين.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، والأخير يغالب النعاس بإجهاد لما وصلت السيارة التي ستقله هو ورفاقه لا أحد يدري إلى أين. صعد الصبي مع رفاقه إلى السيارة وهي من نوع بويك لون أبيض وقد أخذ النعاس منه مأخذاً، وكان بين المجموعة كالممسوس. لم يمض على انطلاق السيارة دقائق لما رأى إلى أمه مجثاة فوق سرير ضخم والناس من حولها يبكون. استفاق الأخير مذعوراً ليكتشف أنه لم يخرج من الحي بعد. كان سائق البويك، ويدعى جاهد، يسير بالسيارة ببطء متجنباً المرور عبر الطرق الرئيسية كما أشار عليه الشديد. جعلت السيارة تخترق أزقة الحي الداخلية وزخات المطر تستجيب لرغبة السيارة في أن لا يراها أحد. كل أبواب المنازل ونوافذها كانت مغلقة بإحكام، فالمطر كان تلك الليلة ينهمر شلالاً. أما الشرفات، فلم تستقبل ليلتذاك إلا حبال الغسيل التي تدلت منها قطعة ملابس أو قطعتان.

كانت الريح تعوي في الأرجاء فيخالط صوتها صوت مسّاحات زجاج السيارة التي كانت كمن يتلمس طريقه في هذا الدهليز المعتم. أي من لمبات البلدية لم تكن مضاءة ليلة البويك تلك. كل اللمبات كانت منطفئة إلا واحدة أو اثنتان، كان الضوء فيها خافتاً وعلى شيء من التذبذب الخجول.

لم ينطق واحد من رجال المجموعة بحرف، الكل كان صامتاً إلا الهواء والمطر ومسّاحات السيارة المنطلقة بذعر. عبر الرذاذ المرسوم فوق زجاج أحد أبواب البويك البيضاء، جعل الأخير يراقب

حيه عنوة عن كل نعاس. صار الأخير، وفي غمرة الشتاء المنهمر، يتلمس عبر عينيه نصف المغمضتين بعض حيه. أما السيارة، فكانت كأنها وحش يفترس.

لم يلحظ الأخير يوماً أن حيه جميل إلى هذا الحد. كان البرق يرعد بقصف والمطر ينهمر غزيراً وشتلات إنعام تقاوم بغباء عنف الريح والشتاء. لم يكن الدرج المؤدي إلى الحي الفوقاني يأوي أي قط ليلة البويك والمطر الغزير. إن المطر تلك الليلة جعل قطط حي الأخير تأوي إلى مخابئ سرية لا يعرف أحد مكانها، لا أحد يعلم بأمرها حتى الأخير.

الكل في السيارة كان صامتاً إلا المسّاحات وبعض طرطقات الأصابع وزفرة من هنا وأخرى من هناك. بيت الحبلى الأبدية صاحبة البطن الذي يشبه الجبل لاح أمام ناظري الأخير كأنه منزل أشباح. كان البيت، وعبر ستائر نوافذه المفتوحة، يلوح للأخير كأنه يقول أنا هنا، كأنه يقول لصبي البويك إني لك بالمرصاد. خاف الأخير بيت الحبلى فأعرض عنه بوجهه النعس وكان بين الصحوة والنوم.

لم يكن الديك فوق بطن أمه يتحرك. كان الديك جامداً بحدقتيه المتصلبتين فوق بطن الجثة الضخمة. فتح الأخير عينيه بنقزة وقد استكمل الرعد رعده بقصف أكثر والأمير في المقعد الأمامي بجانب السائق يبسمل ويسأل الله يسر السبيل. قوّم الأخير جلسته وعاد إلى رذاذ الزجاج يتأمل عبره بقية الطريق. كانت السيارة قد صارت عند آخر دروب الحي، ما حدا بالصبي الأخير أن يبرم وجهه بسرعة نحو زجاج السيارة الخلفي ويتطلع عبره إلى بعض منزل ذويه. كان منزل الأخير قد صار خلف السيارة بأمتار ثم بأمتار وبأمتار، وضوء منبعث من إحدى غرف المنزل يبشر الصبي أن إخوته في البيت.

لم يستطع الأخير، وقد غدر به النوم، أن يمنع الدمع من فوق خديه الدافئين. إن الصبي وقد غالب النعاس كثيراً، ممنياً النفس أن يشاهد للمرة الأخيرة بيت أمه وإخوته وأبيه، رأى إلى نفسه مهجوراً بعدم النظر إلى البيت، بعدم أكل هذا البيت، والعبارة الأخيرة للأخير.

إن البويك، وقد خفّ المطر قليلاً، جعلت نفسها نهب الريح، فهدهدت الأخير في غفوة منعته عن منظر البيت. صار الحي عند آخره والأمير في المقعد الأمامي يهمهم بقراءات غير مفهومة، وصوت مسّاحات السيارة البيضاء صار أوضح وقد خفت حدة المطر، وثمة بيت أسود نتيجة نار التهمته رأى إليه الأخير عن بعد. أما الشديد، ومع لحظة البيت المحروق، كان يمسّد بأحد كفيه أحد أصابع كفه الأخرى ناظراً بشزر ناح هذا البيت.

ندّت الجثة عن حجم هائل فوق السرير الكبير والناس ينتحبون بصمت. أحدهم، وهو طفل صغير، يحمل بيده قلم رصاص، كان جاثماً بين فخذي فتاة جميلة عارية بالكامل في حقل من القش وصوت بقرة تخور. خالط صوت الخوار صوت الأمير يبشر الشباب أن خطر إلقاء القبض عليهم قد زال تقريباً شاكراً الله شفاعته أنه قد يسّر السبيل.

اختلس الأخير بعض نظرة عبر الزجاج الجانبي. كان المطر أقرب إلى التوقف بالكامل إلا من بعض القطرات. أي من ناس النواح لم يستغرب أن كلباً حل محل الديك فوق بطن أم الأخير. توارى الديك فقط بشكله، والكاتب صديق الأخير يحمل بيده تاجاً من ورد. بسبب حفرة أو شيء من هذا القبيل ارتجّت السيارة بالمجموعة، فإذا بالأمير وبلهجة صارمة يأمر جاهداً بالانتباه، بينما الشديد كان متكئاً برأسه فوق كتف الأخير وقد غلبه النعاس.

تعال أضع التاج على هامتك

يا فتى الزهر والفراشات.

أيها الفتى النقي،

كأنك البدوي الطليق أبداً.

عاد الديك، بينما الصبي صاحب القلم كان لا يزال جاثماً بين فخذي الفتاة. لم يكن الأخير يعرف أياً من أولئك الذين ينوحون حول جثة أمه. لم يكن هناك ذباب، لكن كان هناك ذباب.

من أين أتت هذه الذبابة اللعينة؟! فتح الأخير عينيه على صوت الشديد يلعن ذبابة كانت تحوم وحيدة داخل السيارة، في حين أن الأمير كان غافياً في المقعد الأمامي وقد مال برأسه على الزجاج الجانبي والمطر في الخارج رذاذ.

كان الكلب لا يزال فوق بطن صاحبة الجثة يلعب، بينما الولد صاحب القلم ينكش بواسطة عصا بجثة متعفنة ومرمية بإهمال على القش. كان الأمير يتثاءب ويسأل جاهداً إذا كان يود أن يقود السيارة بدلاً عنه. لا عليك يا أخي، فأنا لم أتعب بعد... وكان يقود بسرعة كبيرة.

أزاح الأخير بيده رأس الشديد عن كتفه الخدر ليرى إلى الكلب ما زال هناك فوق بطن الجثة يلعب. كان الكلب يطارد ذنبه فوق البطن، بينما الناس ينتحبون... والديك قد رحل، وصاحب التاج ليس هنا وجثة متعفنة وأقلام رصاص وذباب يحوم حول جثة بقرة مذبوحة ومعلقة في مسلخ لبيع اللحم والكلب يعوي بالمقلوب وقد عضّ ذنبه، لما استفاق الكل مذعوراً على وقع أصوات الفرامل وقد مالت السيارة بركابها إلى جانب الطريق.

ثمة كلب في الخارج كان ينونص وقد صدمته البويك البيضاء. جعل جاهد يلعن الكلاب وساعة الكلاب، بينما الشديد والأمير يبسملان، أما الأخير وبلا وعي منه كان يصيح: شيتّو، شيتّو... إنه شيتّو. توقف يا جاهد، توقف أرجوك!! لكن جاهداً، وبأمر من أمير الجماعة، انطلق بالسيارة مسرعاً تاركاً نظرات الأخير تلهث فوق جثة الكلب شيتّو الذي كان يطلق تحت بعض المطر آخر زفرات الحياة.

قصمت البويك ظهر الكلب الذي كان، وكما همس الشديد متثائباً، يلحق بنا منذ أن صرنا قرب منزلك يا الأخير. ظل الأخير يتابع شيتّو عبر الزجاج الخلفي بصمت، بينما الأمير يدعو الصبي كي يجلس، فهو يا أخي الأخير مجرد كلب.

تعال نتحادث سوياً

الآن، حيث لا أحد يقعي بين الصخور.

نتحادث ببساطة

أنا وأنت.

ما فائدة الأشعار إن لم تكن من أجل الندى؟

لم ير الأخير إلى الجثة تتحرك. كان السرير عارياً من الجثة الضخمة، بينما الناس ما زالوا هناك ينتحبون. كان الديك على السرير يفتش عن قمح، يفتش عن أكل. أما الكاتب، فكان أصفر يضع

تاجاً فوق جمجمة الأخير.

... يا الأخير... يا الأخير.

استفاق الأخير على صوت الشديد وعلى يده تهزه بعنف، بينما الأمير يناول الشديد قنينة ماء ويأمره أن يسقي الأخير. ماذا هناك... ما الأمر؟ سأل الأخير رفاقه. لا شيء يا الأخير، لا شيء، يبدو أنك رأيت كابوساً، رد عليه الأمير الذي عاد إلى وضعية المتكئ سائلاً الله أن يمده بغفوة نوم.

كان الفجر قاب قوسين على الانبلاج والمطر قد كف نهائياً لما رأى الأخير إلى نفسه مرمياً فوق سرير ضخم هو سرير أمه. أجثة أنا؟! قال الأخير، أنا جثة؟! كان يسأل بينما الديك كان هناك عند آخر أقدام السرير يفتش عن قمح ما. لم يكن هناك أحد ليخبر أن الأخير جثة، لم يكن هناك إلا الكاتب بوجهه الجميل. كان جميلاً متورد الخدين يقرأ الشعر فوق السرير فوق جثة الأخير. لم يكن هناك ذباب أو كلب يعوي بالمقلوب. كان ذنب الديك يرقص عند آخر حافة الحلم، وصوت خوار عميق عميق يتهادى بحنان داخل مسامع الجثة الصغيرة.

رأى الأخير إلى غراب أسود كبير يحط فجأة على بطنه ويضع بيضة دافئة ويطير.

يا الأخير،

أنت ترى إلى الدنيا الآن

حيث لا شيء

إلا الفراق والأحجار والقضبان الحديدية.

كانت واقفة في المطبخ تقوم بجلي بعض الأواني لما دخل الأخير مسرعاً ووقف قربها عند المجلى، ثم سألها أن تنحني ليهمس في أذنها الواسعة أن الشجرات تبكي ماء لما تتساقط الأوراق عنها.

كان ذلك بعد أشهر على اكتشافه أن النجوم ليست إلا سلاحف صغيرة. قال لأمه قرب المجلى إن الشجرة أم أوراقها، ومنذ ذلك اليوم الخريفي صار الأخير يسرق الملاقط عن حبل غسيل أمه ويعلق بواسطتها أوراق الأشجار على أغصانها.

أما اليوم، وقد كفت الشجرة عن أن تكون أماً، وتماشياً مع روح العصر، فلنتابع قصة الأخير.

61

حول الـ GWAT أو Global War Against Terrorism

من منا، ومنذ إعلان الحرب العالمية على الإرهاب (GWAT) ، لم يسمع بوادي سوات الواقع في شمال غرب الباكستان؟

جاء في الأخبار أن السلطات الأمنية اللبنانية عثرت في مدينة طرابلس على سيارة نوع بويك بيضاء اللون كانت متوقفة بصورة مشبوهة، وبالتحريات تبين أن هذه السيارة تعود إلى السفارة الأميركية في بيروت التي بدورها كانت ومنذ حوالى الشهر قد أعلمت السلطات الأمنية في لبنان أن أحد موظفي السفارة سُرقت منه سيارة نوع بويك لون أبيض في منطقة الحازمية شرق بيروت.

أعادت القوى الأمنية السيارة إلى أصحابها في السفارة الأميركية. أما الأخير ورفاقه فكانوا وعلى الرغم من الحشود العسكرية السورية الهائلة على الحدود الشمالية مع لبنان، داخل الأراضي السورية.

كان الشيخ مروان، وهو شاب في العقد الثالث من العمر، يشكر أحد الرجال على تأمينه عبور الأخوة من إمارة لبنان للحدود اللبنانية السورية، بينما الأخير ورفاقه يحتسون الشاي في غرفة أخرى وبمعيتهم رجل ملتح أجش الصوت يدعى سراج. كان سراج يتكلم عبر جهازه الخليوي بإنكليزية ركيكة لما دخل الشيخ مروان الذي اقترب من الأمير بحماس وجعل يحتضنه ويقبل منكبيه، ثم ألقى السلام على بقية الأخوة ووعدٌ بالنصر كان الأخير يردده مع الرجال بصورة آلية.

تناقلت وسائل الإعلام خبراً بثته الـ BBC البريطانية مفاده أن جهاز مكافحة الإرهاب في فرنسا طلب من أجهزة أمنية في بعض الدول العربية تزويده بأي معلومات عن مجموعة إرهابية تنوي القيام بتفجيرات في مدن أوروبية عديدة وبشكل خاص في باريس.

مكثت خلية الإمارة اللبنانية في منزل الشيخ مروان حوالى خمسة أو ستة أيام قبل انتقالها إلى الحدود العراقية السورية في منطقة البوكمال. أما في مدينة حلب، فقد أودت عبوة ناسفة بضابط مخابرات سوري كبير انحصر نشاطه في تعقب المنظمات الإرهابية، وقد أصدرت السلطات السورية بياناً حمّلت فيه المنظمات الإرهابية مسؤولية هذا الاغتيال.

أما الأخير فقد تفاجأ لما رأى الشيخ مروان بغاية الحزن بسبب استشهاد عارف، وهو اسم ضابط المخابرات السوري الذي اغتيل منذ يومين في حلب. لم يفهم الأخير من الأمر شيئاً، لكنه استنتج على إثر محادثة بين الأمير والشيخ مروان أن المقدم عارف هو من عمل على إدخالهم بأمان إلى الأراضي السورية.

كانت القوات العسكرية الأميركية تكثف من حضورها في منطقة الحدود السورية العراقية، وذلك إثر تلقيها معلومات تؤكد نية مجموعة إرهابية خطيرة جداً دخول العراق. لم تعلق الإدارة الأميركية على هذا الخبر الذي بثته قناة الجزيرة في قطر، إنما مصدر رسمي في الـ CIA أكد حقيقة هذا الخبر معقباً أن أحد أذرع تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين وهو المعروف بذراع الـ

KSM ، يعمل جاهداً على إدخال مجموعات إرهابية إلى العراق لأهداف غير واضحة تماماً لضباط الـ CIA العاملين في العراق. لكن، المصدر عينه أعلن بعد يومين من إعلان الجزيرة أن المدعو الشيخ مروان هو وراء هذه المجموعة التي دخلت إلى سوريا عبر الحدود مع لبنان.

بدت علامات الحيرة والتلبك على الشيخ مروان أثناء اجتماعه مع خلية إمارة لبنان. فهو لم يتوقع أبداً أن تستطيع المخابرات الأميركية الوصول إلى أي اسم من أسماء هذه المجموعة. لم يمر يومان على وجود الأخير ورفاقه في البوكمال إلا والمجموعة قد صارت داخل الأراضي العراقية. لم يفهم الأخير سهولة مرورهم عبر القوات الأميركية العراقية الموجودة هناك بكثرة، وقد زاد استغرابه أكثر لما اكتشف أن سراجاً كان بانتظارهم في أحد البيوت وبرفقته رجل أشقر كان يتبادل مع سراج كلمات مهموسة باللغة الإنكليزية.

قال سراج متوجهاً بكلامه إلى الأخير بشكل خاص: إن طوني هو عميل مالي في شركة Konsojaya الماليزية، وهو هنا من أجل مساعدتنا في توفير المال اللازم لإتمام عملياتنا ضد الغرب الكافر، ثم وقد ربت فوق كتف طوني، ألحف أن الأخ طوني اعتنق الإسلام أثناء وجوده في ماليزيا وغيّر اسمه إلى سلامة.

كان الأخير ورفاقه يقرأون الفاتحة عن روح الشيخ مروان بعد أن بثت وسائل الإعلام خبر مصرعه على يد القوى الأمنية السورية نتيجة اشتباك حصل معه أثناء محاولة هذه القوى إلقاء القبض عليه في أحد أحياء دمشق قرب السفارة الجزائرية.

بعد رحيل طوني والشيخ سراج، خرج الأمير مع خليته وبحوزته حقيبة تحوي عشرة آلاف دولار وحقيبة أخرى فيها لاب توب وبضعة أقراص مدمجة وأوراق وفواتير ومستندات أخرى.

لم يتوقع الأخير أن يصار إلى إطلاق سراحهم بهذه السهولة من أحد المخافر على الحدود العراقية الإيرانية. فالضابط المحقق ويدعى شاكر كان يتكلم مع الأمير بلهجة استجوابية تنم عن رغبة عارمة بتوقيف المجموعة كلها لما قرر أخيراً إطلاق سراحهم بعد أن تلقى اتصالاً هاتفياً لم يدر الأخير ممن. ختم الضابط محضره بأن اللاب توب هو، وكما بيّن التحقيق، لاستعمالات لها علاقة بأعمال هؤلاء الرجال في البناء. أما مبلغ العشرة آلاف دولار، فإنه هبة من الـ IIRO أي هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية لبناء مساجد في بعض القرى النائية.

طمأن أمير الجماعة الأخير ورفاقه إلى أنه من المستحيل أن يدلي الأخ سراج بأي معلومات عن خططنا. كان ذلك في غمرة انفجارات ضخمة هزت مصافي النفط في عدة مناطق سعودية. حاولت شعبة التحقيق في المخابرات السعودية استجلاء هوية هذا الرجل بشتى الطرق دون طائل، إنما وبناء على معلومات وردت من الـ BKA أو الشرطة الجنائية الألمانية، تبيّن أن مخطط هذه الانفجارات هو أردني يلقب بـ"سراج النجفي"، كانت الشرطة الألمانية قد ألقت القبض عليه في العام 2003 بتهمة المتاجرة بالمخدرات.

لم تستجب منظمة أو؟ك للضغوط الأميركية بغية زيادة إنتاجها من النفط الخام بعد انفجارات السعودية، ما حدا بالـ US Patriot Act لأن تزيد من حدة إجراءاتها بحق الرعايا العرب والمسلمين القاطنين في الولايات المتحدة خوفاً على أنابيب نفطها في تكساس وأريزونا.

في غمرة انشغال العالم بهذا الموقوف الأردني المتهم بسلسلة الانفجارات النفطية، صير إلى تعاون ألماني إيراني مفاجئ في حقل التفتيش عن الغاز الطبيعي في بعض المناطق الإيرانية.

حاولت جمهورية ألمانيا الاتحادية التخفيف من أهمية هذا التعاون، إنما ومن خلال خبر بثته وكالة الأسوشييتد برس، تبين أن ثمة صفقة قامت بين أجهزة المخابرات الإيرانية والـ BND أي شعبة المخابرات الألمانية الخارجية، تضمنت تقديم إيران معلومات إلى ألمانيا حول تفجيرات النفط السعودي مقابل تقديم ألمانيا مساعدات تقنية في التفتيش عن الغاز الإيراني.

صار الخناق يضيق يوماً بعد يوم على مجموعة الأخير الموجودة منذ فترة عند الحدود العراقية الإيرانية. حاول أمير الجماعة الاتصال بأحد العملاء للتسلل إلى إيران أو للعودة إلى الداخل العراقي هرباً من الخطر المحدق بمجموعته. لكن انشغال العالم بخبر اختفاء السيد إكس وهو أهم عميل أميركي في منطقة الشرق الأوسط، حال دون أي إمكان لحرية الحركة.

صُعق الأخير لما رأى عبر قناة العربية صورة السيد إكس، فصرخ بملء الصوت إنه طوني... انظر يا الشديد، إن طوني عميل أميركي!! لم يصدق الشديد ما رأت عيناه، فقال للأخير: إن هذا فخ أميركي لا ريب في ذلك، فالشيخ سلامة مجاهد صادق، وقد أيد الأمير كلام الشديد بينما بقية المجموعة كانت مشتتة في أكثر من مكان.

ربطت بعض وسائل الإعلام، وعبر بعض المعلومات الاستخباراتية، اختفاء السيد إكس بإلقاء القبض على سراج النجفي. وما أكد هذا الربط ما تسرب من الـ GID أو دائرة المخابرات الأردنية العامة من معلومات تؤكد وجود علاقة تجارية بين إكس المدوّن في الأراضي الأردنية بإسم طوني مع سراج النجفي. لم تعلّق وكالة الـ CIA على هذا الربط كثيراً، بل أنها وكما جاء في تقرير للـ CNN ، تعمدت تجاهل هذا الربط مكتفية بشكر الـ GID لتعاونها الوثيق في محاربة الإرهاب.

62

"فمن اعتدى عليكم اعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله".

كان الأمير يملي على الأخير أن الأميركيين وحلفاؤهم من السعوديين لن يلقوا الراحة والأمان في أرض محمد، وأن ذراع المجاهد الشيخ خالد شيخ محمد سوف تقضّ مضاجعهم وتودي بهم إلى التهلكة، وإن الله على كل شيء قدير.

بمجرد بث هذا البيان عبر قناة الجزيرة القطرية، اهتزت أسعار النفط في السوق العالمي، ما حدا بـ IMF أو صندوق النقد الدولي إلى التدخل وطمأنة بعض الدول من خلال مدها بقروض طويلة الأمد بشروط أهمها على الإطلاق اعتماد الخصخصة في بعض القطاعات الإنتاجية.

لم يصل العتب الأميركي على جمهورية ألمانيا الاتحادية إلى حد الخلاف بسبب التوظيفات الألمانية في الحقول الإيرانية، وما ساهم في تهدئة الجو بين الدولتين الصناعيتين معلومات قدمتها شعبة المخابرات الألمانية الخارجية للـ CIA تتعلق بوجود مجموعة إرهابية خطيرة جداً يرأسها أمير من لبنان يعاونه شخص يدعى الشديد تنوي القيام بأعمال تخريبية في أحد المراكز الفرنسية. أبدت الحكومة الفرنسية كما جاء في الـ AFP أو وكالة الأنباء الفرنسية استياءها من تزويد ألمانيا الولايات المتحدة بمعلومات تهز أمن عاصمتها بدل تزويدها بالمعلومات مباشرة. بدورها، أبدت الحكومة الألمانية استياءها من حكومة الولايات المتحدة لأنها سربت للإدارة الفرنسية مصدر معلوماتها ولم تكتف بإعطائها هذه المعلومات.

لم يأخذ الـ MIT أو جهاز المخابرات التركي المعلومات السرية التي وصلته عن دخول مجموعة سلفية إلى إيران على مرأى من عيون المخابرات الإيرانية على محمل الجد، لكن ما عزز من صدقية هذه المعلومات تقاطعها مع معلومات أخرى وردت من الموساد الإسرائيلي المتغلغل في الداخل اللبناني تفيد أن مجموعة سلفية خطيرة الشأن غادرت الأراضي اللبنانية إلى العراق عبر سوريا. وهو ما نقلته صحيفة هآرتس مدعية أن المهمة الأساسية لهذه المجموعة تفجير نفق بحر المانش الذي يربط بين فرنسا والمملكة المتحدة.

حالة من الهلع لفّت الشارع الأوروبي والفرنسي منه بشكل خاص على ضوء هذه التسريبات الصحفية. طالبت فرنسا الحكومة الإيرانية تفسيراً حول هذه المعلومات، فجاء الرد الإيراني عبر وزير خارجيتها منوشهر متكي الذي أعلن أن بلاده مستعدة لمساعدة حتى الولايات المتحدة للتخلص من مأزق الإرهاب، نافياً وجود خلايا سلفية في الأراضي الإيرانية.

لم تأخذ الولايات المتحدة أو فرنسا الكلام الإيراني على محمل الثقة، ولا سيما أن الـ FSB أو جهاز الاستخبارات الروسية، وفي إطار تعاونه مع جهاز مكافحة المخدرات الروسي، رصد في بعض القرى الإيرانية على الحدود مع أفغانستان مجموعات يتعدى نشاطها تهريب المخدرات. وقد زودت المخابرات الروسية نظيرتها الأميركية بهذه المعلومات في إطار التعاون المخابراتي بين الدولتين لمكافحة تجارة الأفيون أولاً ثم لضبط الوضع في الشيشان ثانياً.

استغربت بعض الأوساط المخابراتية في العديد من الدول دقة هذه المجموعة وقدرتها على التواري والاختفاء، حتى أن بعض التقارير أطلقت على أعضاء هذه المجموعة لقب الأشباح.

عادت إيران، وتحت وقع الضغط الدولي تؤكد أنها لا تملك أي معلومات عن هذه المجموعة الشبحية متهمة بعض الفصائل الكردية بإخفاء هذه المجموعة وبالتستر عليها داخل الأراضي الإيرانية مشككة في الوقت نفسه أن تكون هذه المجموعة قد دخلت إلى إيران. لكن، وكما ورد في أحد التقارير السرية للـ ISI أو جهاز الاستخبارات الباكستاني، فإن بعض المجموعات السلفية في وادي سوات في الباكستان أبرزت في الآونة الأخيرة نشاطاً ملحوظاً يتعلق بتأمين سرية دخول عنصر أو أكثر إلى هذا الوادي الكبير. لم تستطع الـ ISI تعقب المعلومات أكثر، إذ إن خيط المعلومات انقطع عند معلومة تشير إلى لقاء هام حصل في وادي سوات بين ضابط مخابرات غربي مع أحد مسؤولي الـ GIA أو الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر لأسباب مجهولة.

كان ينظر إلى نفسه عبر مرآة ضخمة. إنها المرة الأولى التي يرى فيها إلى نفسه مرتدياً عباءة وحزاماً أسود عريضاً ولفافة من القماش الأسود تغطي رأسه. سأله أحد الشيوخ العرب هناك أن ينتقي امرأة ويتزوجها أو أكثر إذا شاء. بلى يا الأخير، قال له الأمير معاضداً الشيخ العربي، لم لا تتزوج إحداهن؟ فإقامتنا في سوات طويلة إلى أن يحين موعد العملية التي منّ الله علينا بالجهاد في سبيله لتنفيذها.

لم يكن الأخير قد تجاوز الحادية عشرة من العمر حين قال لأمه يوماً: إن الناس في الأصل غيوم. كان ذلك في أحد الصباحات أثناء إلباسه مريوله المدرسي. غيوم؟! نعم يا أمي، إن الناس كانوا غيوماً لكن الله ولسبب ما أنزل الغيوم إلى الأرض وحوّلها إلى ناس يمشون.

كان ذلك يوم كان الأخير في الحادية عشرة من العمر. أما اليوم، وقد كفّت الغيوم عن أن تكون ناساً، فلنتابع قصة الأخير.

63

تركز اهتمام الكثير من دوائر المخابرات في العالم على ما سربته الـ ISI الباكستانية، حتى أن وكالة رويترز أوردت في تقرير لها أن الضابط الغربي المشار إليه من قبل جهاز المخابرات الباكستاني هو السيد طوني المعروف باسم سلامة والذي تشير بعض المعلومات إلى أنه ربما يكون هو عينه السيد أكس الذي أشيع منذ فترة خبر اختفائه، والذي ادُّعي أنه عميل هام يعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية الأميركية. لم تعلق الـ CIA على ما أوردته رويترز بشأن السيد إكس. لكن الـ UCIE أو جهاز مكافحة الإرهاب الإسباني، وفي إطار تعاونه السري مع الـ DST أو جهاز المخابرات المغربي، أكد وجود معلومات بحوزته عن نية بعض المجموعات الإرهابية المرتبطة بالـ GIA التسلل إلى الأراضي الإسبانية بحراً عن طريق المغرب، وحذّر الـ UCIE بناء على ما يملك من معلومات دقيقة الـ CIA من وجود عميل مزدوج بين صفوفها.

أبدى الجانب الأميركي اهتماماً كبيراً بالمعلومات الإسبانية منوهاً بالعمل الإسباني المغربي المشترك في مكافحة الإرهاب. أما الشيخ سلامة، فكان في هذه الأثناء يشكر الله أنه شرح صدره للإسلام وأخرجه من ربقة الكفر والإلحاد ممنياً النفس أن يعم دين الله كل الكرة الأرضية كما قال أمام بعض إخوته في أحد الأماكن السرية.

لو استطعتُ في الليل وحيداً

جمع النسيان والظلال والدخان

لفعلتُ. بلى لفعلتُ.

من أجل اللبلاب الذي يغطي عظامكَ

ويبوح لك بأسرار الليالي.

كان الأخير في إحدى الغرف وحيداً يستذكر بصمت صورة الكاتب كما واتته في الحلم يقرأ فوق رأسه قصيدة نيرودا "أنشودة إلى لوركا"، لما دخل الشديد وقال له بصوت أبح: صار سعرنا خمسة ملايين يورو يا الأخير. لم يهتم الأخير بتاتاً بخبرية الشديد الذي أكمل أن دول الاتحاد الأوروبي أعلنت منذ قليل أنها ستدفع خمسة ملايين يورور لمن يدلي بمعلومات عنا. نظر الأخير إلى الشديد وابتسامة خفيفة تعلو شفتيه وقال:

- خمسة ملايين؟ ... هل سبق لك أن سمعت بفيديريكو غارسيا لوركا يا أخي الشديد؟

- هل هو عميل أميركي؟

- كلا، إنه شاعر!

- ما لك ولهذه الترهات يا الأخير.

تركز اهتمام وكالات المخابرات العالمية على إفريقيا الشمالية الغربية عند الحدود الجزائرية المغربية وصولاً إلى مضيق جبل طارق. فتقاطع المعلومات يؤكد نية المجموعة الشبحية العبور

إلى أوروبا من تلك الناحية، بيد أن الانفجارات الضخمة التي هزت مدينة اسطنبول أرعبت الجانب الأوروبي من أن دخول المجموعة إلى أوروبا عن طريق تركيا مسألة جائزة إلى حد كبير.

في هذه الأثناء، كانت وكالة سانا السورية تعلن أن المجموعة الشبحية المضطلعة بتفجيرات اسطنبول غادرت الأراضي اللبنانية بمساعدة جهاز مخابرات تابع لإحدى الدول الخليجية ملمحة إلى دور ما للمخابرات السعودية في هذا الأمر، وهو ما حدا بالمملكة العربية السعودية لأن تعلن عبر رئيس جهاز مخابراتها أن لا علاقة لها البتة بهذه المجموعة أو بغيرها من المجموعات السلفية، مدعية أن لديها معلومات تؤكد ضلوع شرطة الحدود السورية بتسهيل مرور هذه المجموعة وصولاً إلى تركيا. لكن، وفي خضم هذه المعمعة المخابراتية، تركزت الأنظار فجأة عند خبر أوردته صحيفة النهار اللبنانية مفاده أن القوى الأمنية اللبنانية وبالتعاون مع الجهاز المخابراتي لأحد الأحزاب اللبنانية العقائدية، تمكنت من تحديد هوية قتلة كاتب لبناني قُتل منذ فترة وتم إحراق جثته، وقد أرفقت النهار مع هذا الخبر صورة للجثة المتفحمة تنشر للمرة الأولى. أما صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، فقد أوردت بعد يومين من خبر النهار أن المجموعة التكفيرية التي أعدمت الكاتب اللبناني هي عينها المجموعة الملقبة بالشبحية والتي تسعى جاهدة للدخول إلى أوروبا. طبعاً، لم تأخذ السلطات اللبنانية بالمعلومات التي أوردتها الصحيفة الإسرائيلية، بيد أن إحدى شركات التأمين البلجيكية والتي غطّت تكلفة تفجير فندق اسطنبول، طالبت السلطات اللبنانية بأخذ المعلومات الصحفية الإسرائيلية بعين الاعتبار، مدعية على هذه السلطات عدم تعاونها في مكافحة الإرهاب، ما أدى إلى إرهاق الشركة البلجيكية بمبالغ طائلة. إلا أن ادعاء شركة التأمين البلجيكية لم يؤخذ على محمل الجد من قبل وزارة العدل اللبنانية، ولا سيما أن الاستقصاءات بيّنت أن غالبية أسهم هذه الشركة تعود لرساميل صهيونية. احتجت المنظمة المركزية لشركات التأمين في العالم على سلوك الدولة اللبنانية متهمة إياها بعدم المشاركة في الـ GWOT أو الحرب العالمية على الإرهاب، وهو ما حدا ببعض الأحزاب الوطنية اللبنانية إلى اعتبار هذا الاحتجاج بمثابة الضغط على لبنان من أجل التطبيع مع إسرائيل.

مما لا شك فيه أن الدوائر الأدبية في العالم كانت بمنأى عن هذه المطاردة المخابراتية، بيد أن عثور الشرطة العراقية على جثة رجل مقطوعة الرأس تحت أحد جسور بغداد أثار السخط الأدبي في العالم أجمع. فقد أوردت صحيفة الواشنطن بوست على صفحتها الأولى خبر مقتل البروفيسور نيو لورانس، وهو عالم بريطاني في فقه اللغة العربية يقيم في واشنطن منذ سنوات. وقد جاء في نشرة الواشنطن بوست أن البروفيسور نيو لورانس كان قد اختُطف من ما يعرف بمنطقة Lebanon's No- man's- land أو منطقة سهل البقاع اللبناني من قبل مجموعة أصولية لم تعلن عن نفسها. أما المآثر الأدبية للبروفيسور القتيل فقد لخصتها الصحيفة المذكورة إلى جانب صورة له، حيث ذكرت أن البروفيسور نيو لورانس قام بترجمة أساطين الشعر العربي القديم إلى معظم اللغات الأوروبية نافية هذه الصحيفة نقلاً عن مصادر أكاديمية أميركية أن يكون البروفيسور المقتول هو عينه السيد إكس كما أورد الموقع الالكتروني لصحيفة الحياة في نشرتها اللبنانية.

أما الخلية السلفية المعروفة بذراع خالد الشيخ محمد في بلاد الرافدين أو الـ KSM حسب بعض الدوائر الغربية، فقد اتهمت إحدى المجموعات الشيعية المسلحة في العراق بسفك دماء الشيخ سلامة بأمر من جهات إيرانية. وقد توعدت الـ KSM عبر بيان بثته قناة الجزيرة في قطر

الجمهورية الإسلامية في إيران برد قاسٍ بسبب تعاونها مع الجيش الصليبي الكافر الذي يحتل بلاد المسلمين.

64

تذكر، تذكر! أيها المسرف تذكر،

إن حنجرتي التي من معدن تطنّ بجميع اللغات.

لم ير الأخير إلى بودلير بعينه، فهمسه كان آتياً من جهة الخلف.

- الرجل الأول: يقال أن الأخير مرّ الليلة من هنا.

- الرجل الثاني: يقال أن خلية الشبح قامت بخطف الأخير.

- الرجل الثالث: يقال أن الأخير قام بخطف الخلية الشبح.

- الرجل الرابع: يقال أن الأخير شبح.

- الأول، الثاني والثالث والرابع (همساً): هسّ! تعالوا نقرأ الفاتحة فالمكان يعج بالشياطين.

كان الأخير في بيته جاثماً فوق وعاء زجاجي يقوم بإحصاء الأسنان. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل والكل نيام والسكون يلف بمئزره الأرجاء. لم يقم الأخير بإيقاظ أي من أشقائه، اكتفى بالنظر إليهم نياماً وقام بوضع أسنان أخرى في وعاء الزجاج، وخرج. خرج من البيت كما دخل كالشبح. كان يهرول مذعوراً وخلفه بودلير يتمتم بتهدج:

يا شاعر! يا شاعر!

أعار هذا اللقب أم ثناء؟

أنا حيالك أشبه بعاشق

قبالة شبح.

كان ذلك بعد يومين من العثور على جثة البروفيسور عالم اللغات تحت أحد جسور بغداد. أما في الباكستان، فكانت السلطات هناك تعلن أنها ومن خلال تعاون مخابراتي دولي عريض، عثرت على جثتين يشتبه في أنهما تعودان للعقلين المدبرين للخلية الشبح. وقد أشارت إحدى محطات التلفزة الباكستانية أن جهاز المخابرات الباكستاني وبالتعاون مع أجهزة غربية عديدة يحاول معرفة أسباب قلع أسنان كل من الجثتين ولا سيما أن طريقة هذا القلع متطابقة كلياً مع طريقة قلع أسنان البروفيسور نيو لورانس، مشيرة إلى أن إحدى جثتي الإرهابيين كانت مبتورة الإصبع بطريقة العض وهو ما أثار لدى هذه الأجهزة الكثير من علامات الاستفهام.

كان الأخير في أحد مكاتب الـ HCR التابعة لهيئة الأمم المتحدة في بيروت يوقّع على إجراءات إخراجه من لبنان بعد تعرضه للتهديد من قبل مجموعات إرهابية كما ادعى أمام المكتب الأخير. نعم، كلم الأخير المسؤولة في مكتب الحماية القانونية للاجئين (HCR) عن تعرضه لتهديدات كثيرة بعد مقتل صديقه الكاتب. وقال لها إنه اضطر إلى التواري لفترة طويلة خوفاً من الذبح أو من الحرق، مقدماً الدلائل التي تشير إلى حقيقة هذه التهديدات. ثمة مغلف ذو لون أصفر فاقع بجوفه

ورقة مرسوم عليها سيف مطعوج وعبارات تهديد وتكفير ساعدت الأخير على نيله صفة اللاجئ في فرنسا. أما في باريس وغيرها من العواصم الأوروبية، فإن السلطات هناك طمأنت سكان المدن أنه بعد كشف النقاب عن الخلية الشبح صار من شبه المستحيل بل من المستحيل تعرض عواصمهم لأذى الإرهاب. حتى أن قائد شرطة العاصمة الفرنسية صرّح أن دخول الإرهابيين إلى باريس غير ممكن إلا من باب المجاز.

لم يصدق ناس الحي همس الرجال الأربعة الذين كانوا يتوشوشون أنهم رأوا إلى الحبلى الأبدية تعدو في أزقة الحي ويعدو أمامها الأخير بذعر. لم يصدق أي أحد من ناس حي الأخير قول الرجال الأربعة أن الحبلى رفرفت بجناحين أسودين وحطت فوق كتف الأخير.

65

أهلاً وسهلاً بكم على متن "بروست". نتمنى لركابنا الكرام رحلة سعيدة على متن خطوطنا البحرية.

استفاق الأخير مذعوراً على صوت ميكروفون يرحب وصفارة الباخرة المسماة بروست التي انطلقت لتوها من مرفأ مدينة بيروت. جعل الصبي يتلفت يمنة ويسرة متوقعاً رؤية بومة سوداء أو رؤية لست أدري ماذا، وجه امرأة له جناحان. كان الأخير يتلفت وملؤه الثقة أن ثمة بومة كبيرة تحمل وجه الحبلى الأبدية حطت فوق كتفه ونعقت.

كان قد عاد من البحر لتوّه لما أخبرها أن البحر قلعة حواس. كانت تنزع الملابس عنه من أجل تحميمه لما قال الأخير لأمه إن البحر قلعة حواس. عبست عبسة تنم عن بعض المرح، وقالت كمن يكلم نفسه: قلعة حواس؟! نعم نعم يا أمي، أنا شممت البحر اليوم. إن البحر قلعة حواس.

كان ذلك عندما كان الأخير في العاشرة من العمر. أما اليوم، وقد كف البحر عن أن يكون أنفاً، فلنتابع قصة الأخير.

أيها الموت... أيها القبطان العتيق

حان الوقت فلنبحر.

هذه البلاد تضجرنا،

أيها الموت فلنقلع!

لست أدري إذا كان يجوز لي من الآن فصاعداً أن أقول الصبي الأخير، كما أنني لست أدري إذا كان يجوز لي أن أقول الإرهابي الأخير. بوصلة الكلمات لدي تعطلت وأنا أرى إلى هذا الأخير يلاعب فتاتين صغيرتين عند مقدمة السفينة كأنه طفل ثالث بينهما. إنهما لارا وكلاريتا، ابنتا دبلوماسي نروجي يقيم في بيروت وهو الآن بصدد إجازة ترفيهية مع زوجته وابنتيه الصغيرتين. تناولت السيدة كلارنس وهي زوجة الدبلوماسي النروجي مع الأخير بضعة كلمات بالإنكليزية حول الطقس والشمس والبحر، بينما الأخير كان منهمكاً بكلاريتا المتأبطة رأسه وقد اعتلت كتفيه، وبلارا التي كانت تتأبط قدم الأخير وتعمل على عضه عند فخذه بما أمكنها من أسنان. كانت الطفلتان تلعبان مع الأخير وتصيحان، بل قل إن الأخير هو من كان يلعب ويصيح. السيد كلارنس بمنتهى اللطف والتواضع مثل زوجته تماماً، وقد عرفهما الأخير عن نفسه كدارس لتأثير الأدب العربي الكلاسيكي في أدب عصر النهضة الأوروبي، وهو متوجه إلى باريس لاستكمال دراسته هناك. أبدت السيدة كلارنس الكثير من الاهتمام بالميول الأدبية لدى الأخير، وحثته على قراءة أبحاث البروفيسور نيو لورانس الذي قُتل منذ أيام في بغداد للأسف الشديد على حد قول السيدة النروجية التي أردفت أنها تعرفت إلى البروفيسور نيو لورانس في إحدى جامعات نيويورك حيث كانت تدرس هناك. كانت لارا قد احتلت مكان كلاريتا عند كتفي الأخير لما قال للسيدة كلارنس إنه هو أيضاً قابل البروفيسور نيولورانس تحت أحد جسور بغداد في يوم من الأيام.

أمران يملآن قلبي بالإعجاب والإجلال: السماء المرصعة بالنجوم من فوقي والقانون الأخلاقي في داخلي.

كان الأخير ممدداً على ظهره ينظر إلى السماء بإمعان مستقصياً ذاكرته لمعرفة اسم الشاعر الذي نطق بهذه العبارة في يوم من الأيام. كان الأخير شارداً في السماء يتأمل النجوم المتدلية، معيداً في ذهنه نبرة صديقه الكاتب وهو يقرأ هذا الشعر. كانت نبرته مع هذا الشعر تنم عما هو متعالٍ، وكان كلما قرأ هذه العبارة يقول: عظيم كانط، عظيم كانط.

آه، حسناً، إن اسم الشاعر كانط... لقد تذكره الأخير.

كان الصبي يردد العبارة بصورة آلية مقلباً بين يديه وروداً سوداء كانت لارا وكلاريتا قد أعطتهما للأخير بالسر. استغرب وهو محترف الورد منذ أن كان صغيراً، أن هذه الورود سوداء. لم تنبس أي من الفتاتين ببنت شفة. اكتفيتا بأن قبلتا الأخير وقدمتا له الورد قبل أن تغادرا السفينة مع والديهما في أحد موانئ اليونان. تمنت السيدة كلارنس أن تجمع الصدفة الأخير مع عائلتها في يوم من الأيام وقبلته بدورها وكانت بغاية اللطف والفرح.

Ok, Mr. Akhir, I wish to see you soon ، قال له السيد كلارنس مودعاً وداعياً إياه لزيارتهم عندما يعود إلى بيروت. كان ذلك يوم أمس، أما اليوم...

66

- هو: بسّ... بسّ... هل أنتِ مستيقظة؟

- هي: نعم، نعم، أنا مستيقظة.

- هو (همساً): يبدو أن الموت نام.

كانت تتناهى إلى الأخير حيث كان يرقد ساهياً أصوات تأدية برو؟ا مسرحية أو شيء من هذا القبيل. زاغ بصره بعض الشيء مع نجمة متلألئة هنا وأخرى متلألئة هناك، بينما أولئك أصحاب المسرحية يتخللون صمت الليل ويتخللون رقاد الأخير.

- هي: نعم نعم، إنه نائم.

- هو: دعينا نتبادل... أنا بغاية... دعينا نتبادل الحديث، أنا بغاية الضجر.

إن البحر بغاية اللطف، كان يفكر الأخير. نعم، كان البحر يهدهد السفينة كأنها سرير طفل نائم، بينما الورد الأسود يتنزه بين يدي الأخير كأنه نتعة خوف في هذا الليل الهادئ.

- هي (متنهدة): أنا أيضاً بغاية الضجر.

- هو (بانفعال): هل تظنين أن نوم الموت طويل؟

فكر الأخير والورد عند أنفه من أين أتت الفتاتان بهذا الورد الأسود؟ لم يكن للورد من رائحة أو طعم. كان هذا الورد أشبه بالذكرى، كان عند أنف الأخير ولسانه أقرب إلى المجاز.

- هي (بغاية الهمس): انتبه لصوتك، إبقِ صوتك خفيضاً أرجوك.

- هو: آه... عفواً، لقد شردت. لقد، لقد نسيت.

لم يكن في بال الأخير باريس، لم يكن في باله شيء، فقط الورد الأسود وهذا الليل البديع وذكرى صديقه مع دمعتين وذاك الشاعر... ما اسمه؟ ما اسمه؟ حسناً، يدعى كانط. أمران يملآن قلبي الخ...

- هي: لا تنس، لا... حسناً أريد أن أخبرك بأمر. إياك أن تزعج الموت، فإذا انزعج الموت منك سوف يميتك من جديد.

- هو (مرتعباً): يميتني من جديد؟!

- هي: أجل أجل، يميتك من جديد. فالأمر يشبه الماتريوشكا، تلك اللعبة الروسية التي تضم في جوفها لعبة أخرى ثم لعبة أخرى وهكذا دواليك.

بالكاد كان الأخير يسمع الهمس الآتي من جهة الفرقة المسرحية التي شاهد أحد عروضها في يوم من الأيام. فصوت الموج وزفيف الريح وذاك التلؤلؤ الباهر حالت كلها دون أن يكون الأخير

محض جمهور الفرقة الوحيد. لكن، من أين أتت لارا وكلاريتا بهذا الورد الأسود؟ عاد يسأل نفسه هذا السؤال.

- هو (فاغراً فمه إلى أقصاه): ماذا تقصدين باللعبة الروسية؟

- هي (بلهجة توبيخية): قلت لك أن تخفض صوتك وإلا... ماذا دهاك؟؟

سمع الأخير الحوار الأخير بكل وضوح، وكان ينظر إلى السماء ويبتسم. ثمة شهب وشهب آخر فثالث فرابع، لمعت فجأة أمام ناظري الأخير الذي وشوش نفسه مبتسماً: لم أكن أعلم أن النجوم تلعب اللقّيطة. أما الورد الأسود، فكان مرمياً فوق صدر الأخير كأنه أطفال داشرة.

- هو: هسّ... هسّ... تكلمي بصوت خفيض أرجوكِ.

- هي (بعينين منفرجتين): ...

لم يكن يدري كم مرّ من الوقت مستلقياً يتأمل النجوم ويردد عبارة الشاعر كانط. كان عند مقدمة السفينة منبسطاً فوق مقعد وثير حاضناً بكلتا يديه الليل وسارقاً صوت البحر عن بكرة أبيه. حاول الأخير أن ينام في هذا السرير الضخم، لكن النوم في هذا الجو إهانة للبحر، فكر الصبي، ومع هذا رأى إلى نفسه مذعوراً إذ ثمة بومة بوجه امرأة رفرفت فوقه... إنه وهم، إنه منام مزعج، كان الأخير على يقين من ذلك. جلّس انبساطه فوق المقعد وجعل يشم نسيم الموج كأنه يعتذر من البحر بسبب ما اعتراه من لحظة نوم.

- هو: ما الأمر، ماذا هناك؟

- هي: قلبي ينبئني أن لعبة الموت انفتحت، وسيخطف أنفاسنا من جديد.

عندما كان الأخير صبياً، كان الأجرأ على سرقة الورد. كان ينط من فوق أسوار الحدائق ويقطف الورد الأحمر والأبيض والأصفر وكل أنواع الورد، لكن ولا مرة كان لون الورد أسود. الورد الأسود قال لنفسه موضة كئيبة، فمن أين لكلاريتا ولارا أن تأتيا بهذه الموضة؟ ليس الذنب ذنب الفتاتين، فكر الأخير. لا بد أن ثمة من هو مذنب بحق الورد على متن هذه السفينة الفرنسية. كان الأخير يكلم نفسه حول الورد بتؤدة وبصوت خفيض، بينما أولئك أصحاب المسرحية:

- هو (محاولاً بلع رعبه): سيخطف أنفاسنا من جديد؟!

- هي: أجل أجل يا عزيزي، فنحن الآن في الدمية الأولى. انظر، انظر، إن الموت يتحرك.

- هو (شاخصاً بعينيه نحو الموت ومتمتماً): ...

- هي (مطبقة الأنفاس): ...

أشاح الأخير بوجهه عن البحر والسماء، والتفت صوب ناس المسرحية حيث كانوا يؤدون البرو؟! تحت لمبة يتناهبها النور والظلمة. أحدهم، وهو شاب في الثلاثينيات من العمر، عرفه الأخير من فوره أنه الموت. كان جالساً على مؤخرته باسطاً يديه إلى الأمام بالتوازي مع انبساط ساقيه. كان منظره مريعاً جعل دقات قلب الأخير تنبض أسرع. كان الموت أشبه بالمتخشب تنم عيناه عن نظرات زائغة بحدقتين تكادان أن تقفزا من وجهه البشع. يميل لونه إلى لون الرماد البارد مع رأس أقرع وأنامل طويلة وكفين ضخمين ورقبة غليظة وكتفين غريبين كأنهما مقاطع خشبية. قبالة

الموت، وعلى مسافة لا تتعدى المترين تقريباً، ثمة شاب وفتاة منبسطين على ظهريهما توحي ملامح وجهيهما بأقصى إمارات الخوف والرعب. كان الشاب الممدد بجانب الفتاة جاحظاً شاخصاً ببصره في الموت، فاغراً فاه، بينما الفتاة ترتج وقد شدّت شفتيها الصفراوين على آخرهما كأنهما مقطبتان بخيط من الفولاذ وأكثر.

استحوذ مشهد الموت على الأخير، وشعر بالانشداد لمعرفة ردة فعل الممثلين الآخرين وقد استفاق الموت منزعجاً. جعل يرهف السمع محاولاً لقط كل حرف ينطق به أي من الممثلين الثلاثة عاملاً في الآن نفسه على لي رقبته عن آخرها كي لا تهرب منه أي لمحة من المشهد.

ازداد شخوص الموت، بينما تلك المرتجة أخذ جسدها بالارتجاج أكثر وكأن صعقة كهربائية تخللت مفاصل جسدها الرقيق. تهيأ الموت المتخشب للوقوف على قدميه والدنو من الشاب والفتاة عندما صرخ أحدهم من خارج المشهد: stop stop ، توقفوا جميعاً، توقفوا الآن. إنه مخرج المسرحية، عرفه الأخير ما إن رآه، فهذا الرجل رأف بالأخير في يوم من الأيام. انبثق فجأة داخل متون المشهد وكأني به ساحر أو شيطان وتوجه للشاب والفتاة الميتين بعبارات لوم وتوبيخ، بل يمكن القول أن بعض عبارات المخرج وصلت حد التقريع. توجه إلى الموت بالقول لا بأس بأدائك، أداؤك تحسن كثيراً عن التمرين السابق، أما أنتما، فإن أداءكما بغاية الركاكة واللامسؤولية. طلبت منكما مراراً أن تكونا كائنين ميتافيزيقيين في حضرة الموت المريع، لكن طريقتكما في التعبير لا تمت بصلة إلا إلى عالم الأحياء المادي والأخرق. أين الميتافيزيقا؟ بربكما، أين الميتافيزيقا في حركاتكما وهمسكما وفي دبيب كلامكما وخوفكما؟ لقد شرحت لكما مراراً أن الميت كائن ميتافيزيقي، إنه شبح. وأنتما لستما في مسرحيتي إلا ميتين... أين الميتافيزيقا، بربكما أين الميتافيزيقا؟ فأنا لم ألمح أي ميتافيزيقا في خلجات قلبيكما، ولم ألمسها في فغر أو انقباض شفاهكما.

كان الأخير يتطلع برقبته الواربة إلى المخرج الطويل الذي كان يحمل بيده دستة من الأوراق ودفتر ملاحظات وكتاب "توما... توماس... تونام..تونار... "، لم يكن الاسم واضحاً بالنسبة للأخير. كان المخرج يتكلم بصوت مرتفع وعلامات الغضب والنرفزة متجلية في قسمات وجهه وفي حركات يديه وقدميه.

لم ينبس أي من الميتين بحرف. وافقا المخرج أن أداءهما ليس بالمستوى المطلوب، ووعداه أن يحسنا أداءهما في البرو؟ا المقبلة.

أريد الميتافيزيقا، قال المخرج متوجهاً بكلامه صوب البحر، أين الميتافيزيقا؟ مسرح بلا ميتافيزيقا هراء!! نعم يا أصدقائي، متوجهاً إلى ممثليه الثلاثة، مسرح بلا ميتافيزيقا هراء. مسرح بلا ميتافيزيقا ناس، بشر، أما نحن فلسنا من الناس، نحن لسنا من البشر. أرجوكم عدم الاهتمام بالجمهور، لا تهتموا بالمال الوفير الذي سيدره عليكم هذا العمل، اهتموا فقط بالميتافيزيقا في أدائكم وانظروا إلى السماء، قال المخرج لممثليه، انظروا إلى النجوم. هل يعتقد أي منكم أن هذه النجمات تدرك بأنها تؤدي دوراً في مسرح السماء؟ طبعاً لا. ومع هذا انظروا إلى النجوم هناك، انظروا إليها، هل ثمة أروع من أدائها، هل ثمة أروع من طقوسها؟ أريد منكم أن تكونوا فوق خشبة مسرحي مثل النجوم بالتمام. أنا لا أسألكم المستحيل، فقط كونوا كالنجوم، فقط كالنجوم. العبوا فوق المسرح لا تخافوا مني كأني ربكم الأعلى. لا تخافوا من الناس، الناس هراء! فقط ضعوا في أذهانكم أنكم كائنات ميتافيزيقية، أنكم أموات، وعندها سترون إلى ذواتكم نجوماً، سيصير كل منكم

نجماً. النجمة هي ميتافيزيقا السماء، قال المخرج، نعم إن النجمة ميتافيزيقا السماء. كونوا فقط أوفياء لمنظر النجوم في السماء ولدوركم المرسوم في صدوركم وستتحولون تواً إلى أروع ممثلين إلى أروع ميتافيزيقيين.

رحل المخرج مع أوراقه ودفتره وسمائه ونجومه، وبشكل خاص مع ميتافيزيقاه، بينما الممثلون الثلاثة ظلوا في أماكنهم تحت اللمبة المتذبذبة الضوء، متكئين على بعضهم البعض يرمقهم الأخير ويحاول عبثاً سماع تعليقاتهم على المحاضرة التي ألقاها المخرج الغريب كما قال الصبي وقد جلّس رقبته وعاود التمدد فوق الأريكة يحدق ويكرر مع صديق صديقه: أمران يملآن قلبي بالإعجاب والإجلال، السماء المرصعة بالنجوم من فوقي والقانون الأخلاقي في داخي... أمران يملآن قلبي بالإعجاب الخ... أمران يملآن... أمران... أمران... بينما بروست تمخر عباب البحر كأنها سرير طفل صغير يتأمل بصمت نجوم السماء.

67

أجهش الأخير بالبكاء لما تذكر صديقه الكاتب. حاول لقط أنفاسه المتهدجة وحبس الدمع، لكن، وبلحظة سريعة لم ير الأخير إلى نفسه إلا وشهقة قوية تباغت صدره ودمع كثير.

ترك الصبي مشاعره تمضي في أعنتها، فإذا به يبكي ويبكي ويتمتم بكلمات لن أدوّن منها إلا: أمران يملآن قلبي بالإعجاب الخ... ينطق بها الأخير ويبتسم ويمسح دمعه بكفيه.

"أبو دمعة يا أبو دمعة، أنت يا الأخير يا أبو دمعة". أجهش الأخير أكثر وقد مار في صدره صوت أمه التي كانت تلقبه بأبي دمعة. صار الصبي يضحك ويبكي وثمة ما يشبه شريطاً سريعاً من الصور يخالط مشهد نجوم السماء أمام ناظري الأخير.

"أبو دمعة يا أبو دمعة، أنت يا الأخير يا أبو دمعة"، وديك يصيح ورائحة طبيخ وشتاء ورغوة صابون ثم النجوم. كتب كثيرة، نوافذ بمغاليق خشبية، درج اسمنتي، أمه تعشّب، صوت يناديه ثم النجوم. شاعر أول، شاعر ثانٍ، شاعر ثالث وكنبة زرقاء. شاي أسود، منضدة عليها ورق كثير، أقلام حبر، أقلام رصاص، كتاب على الأرض وآخر هناك.

احتشد خاطر الأخير بوابل من الصور التي واتته على حين فجأة كأنها إبر تخز جسده فوق هذا السرير الضخم. غالب الأخير نفسه من هنا ومن هناك وعاد إلى بعض هدوئه وثمة نجوم جعلت تتوارى خلف شقشقات الفجر الذي بدأ بالانبلاج.

الموت وجثتاه كانوا قد غادروا مكانهم تحت اللمبة المترددة، أما البحر فكان يمتد في الأفق كأنه هلاك. نعم، طالع الفجر الأخير ببحر هلاك، ومع وضوح البحر أكثر صار يوحي للأخير بأنه هلاك ما بعده هلاك. لم يكن يدري الوقت عندما أفحمه النعاس، فانسحب إلى إغفاءة حنونة كحيوان صغير فضّل الانسحاب إلى وجاره.

نام الأخير عن بكرة أبيه فوق هذا المتن الضخم، وكان في نومه الهادئ أشبه بقط منكمش الأعضاء يخرخر أمام مدفأة يطقطق فيها صوت الحطب. من يرى إلى الأخير يظن بالصبي جثة هانئة، جثة لا تشوبها شائبة أو وكما قال المخرج الغريب، كان هذا الصبي في نومه الفسيح كأنه جثة بغاية الميتافيزيق.

انظروا... انظروا إلى هذا الولد الراقد هناك فوق تلك الأريكة عند مقدمة السفينة. انظروا إليه جيداً، هل رأيتموه؟ حسناً، قال المخرج متوجهاً بكلامه إلى جثتي مسرحيته، أريد منكما ألا تكفا عن تأمله إلى أن يستفيق حتى لو ظل طوال الرحلة نائماً. فهذا الولد الراقد هناك يجسد بعمق ما قلته لكما بالأمس. أرجوكما أن تتأملاه بروّية وتتعلما منه ما المقصود بالجثة الميتافيزيقية. غريب أمر هذا الولد- قال المخرج بحماس- يبدو في موته، أقصد في نومه، وكأنه يدرك بالسليقة كأنه يدرك بالفطرة ما المقصود بالجثة الميتافيزيقية. أحسبه- قال المخرج ممازحاً ممثليه- كان موجوداً عندما أبديت ملاحظاتي بالأمس. لعله بالفعل- قال المخرج بضحكة جهورية- كان بيننا بجسده الميتافيزيقي!

ران على الجميع الصمت ولم يعلق أي من الموجودين بحرف على ملاحظات المخرج الغريب كما أطلق عليه الأخير. جعل الرجل يتمتم، وقد استبدل النظارة التي فوق وجهه بأخرى كانت داخل سترته، جعل يتمتم بكلمات بالكاد اخترقت أسماع ممثليه. شرع يغمغم بكلماته، يخنقها في صدره كأنه يخاف أن يطلع أحد غيره على ما اكتشف من سر خطير.

يا لهذا الشيطان البريء، قال المخرج... يا له من قط جهنمي. ثم، وقد وضع يديه على درابزبن الشرفة حيث كان يقف مع الممثلين، أردف: إنه شيطان حقيقي هذا الولد، يا له من قط بريء. هذا الولد مليء بالأشباح، قال المخرج متوجهاً بكلامه إلى الموت، ثم، وقد التفت إلى الشاب والفتاة، همس وكان في بحة صوته ما يثير الارتياب، I am sure this creature is possessed ، انظرا إليه بربكما، إن لهذا الكائن خصال... أحسب أن لهذا الكائن خصال التذرر والتجمع في آن. لا تشيحوا بنظريكما عنه، إياكما أنتما الاثنين بالذات أن تزيحا بصريكما عن جثته المنطوية على نفسها كأنها العالم في ذاته كما يقول الفيلسوف الألماني. سحقاً، سحقاً، يبدو أني بدأت أشتُّ. على كل حال، ابقيا نظراتكما مشدودة إليه. يا لهذه القدرة على الميتافيزيقا، يا لهذه القدرة على الشياطين، قال المخرج لنفسه تاركاً ممثليه على الشرفة التي تطل على مكان رقاد الأخير. ثم، وقبل أن يغيب عن أنظار الثلاثة، سأل: هل يعرف أي منكم اسم هذا الولد؟ وقبل أن ينتظر الجواب توارى داخل حجرة لا تطالها عيون الممثلين.

أعتقد أنه يدعى الأخير، تمتم الموت دون أن يلحظه أحد.

تمنى الممثلون الثلاثة ألاّ يقوم هذا العامل في السفينة بإيقاظ الأخير. كان العامل، وكما تبدى للممثلين الثلاثة من مكانهم على الشرفة، يهرول باتجاه أريكة الأخير وعلامات التلبّك بادية عليه. لم يقم بإيقاظ الصبي أو حتى النظر إليه، فهو وما إن وصل إلى حيث كان الأخير نائماً حتى جثا عند الأريكة مقرفصاً وطفق يجمع الورد المشرشر حول هذا النائم بعمق. كان العامل يتمتم بعبارات استُدل من نبرة صوته أنها شتائم وسباب ولعنات.

68

إن الموهبة يا سادتي وسيداتي هناك في الأسفل، في الطبقات الدنيا.

استهل المخرج عرضه المسرحي بعبارة من الكتاب الذي كان بين يديه. كل ركاب السفينة وطاقمها كانوا هناك داخل إحدى القاعات الكبرى في جوف السفينة بروست ينتظرون العرض الأصلي والكامل لهذه المسرحية كما قال المخرج منشرحاً. نعم، العرض الأصلي والكامل، قال المخرج الذي تابع أن هذا العرض هو بمثابة هدية لرفاق هذه الرحلة الجميلة.

كل الركاب وأعضاء الطاقم كانوا ملتزمين بتلابيب الصمت في حضرة المخرج المنفعل والواثق من نفسه إلى حد الفظاظة. ليست الموهبة- أكمل المخرج وفريق ممثليه واقفين خلفه كأنهم أصنام- شيئاً سهلاً ولا عبثاً. إنها ليست مجرد قدرة أو استطاعة، بل هي في جذورها حاجة وضرورة يا أصدقائي المسافرين، والعبارة الأخيرة ليست من الكتاب بل من عنديات المخرج الذي أكمل: أرجو ألاّ أكون قد أطلت عليكم الكلام. لكن، لا بد قبل عرضي المسرحي الأول من القول (عاد إلى الكتاب): إن الموهبة هي علم نقد المثاليات. إنها طموح لا يتحقق إلا بالعذاب، وإن موهبة العظماء من أصحاب الطموحات الكبرى هي -وقد ندت عن شفتيه ابتسامة أرعدت قلوب الحضور- أشد أنواع التنكيل بالبشر. أهلاً وسهلاً بالحضور الكريم. أتمنى أن يعجبكم العرض، قال المخرج، ليغادر بعدها مساحة العرض بحركة تشبه حركة القطط كما وشوش أحد الشبان من الحضور صديقه وهما مثليان، أحدهما من دير الزور والثاني من مدينة بيروت.

- هو ... هي... هو... هي الخ...

- هي... هو... هي... هو الخ...

استقام الموت على قائمتيه ويداه منسدلتان على جانبيه وكان لا يزال جاحظاً.

- هو (بصوت مرتجف): انظري إلى الموت، إنه يدنو منكِ. إنه...

- هي (ببرودة شاحبة): يبدو أن الموت قرر أن يميتني من جديد.

- هو (متلعثماً): ماذا عني؟ ماذا عني؟ ثم متوجهاً إلى الموت: أرجوك أن تعفو عني، أرجوك أن تسامحني، لم أقصد إز...

- هي (بازدراء): هسّ، لا تحاول مخاطبة الموت ولا تسأله السماح. إن الموت لا يعاقب وهو أيضاً لا يثيب.

كان الموت بهيئته المتخشبة قد صار قاب قوسين أو أدنى من الفتاة عندما تناهى إلى مسامع الحضور هسهسة من كل الجهات. بعض الحضور ميّز في هذه الهسهسة صوت مخرج المسرحية أو القط كما قال المثليان، والبعض الآخر وهم الغالبية العظمى، لم يميزوا في هذه الهسهسة صوت أحد، فالرعب لف القاعة التي ومع السير البطيء للموت، شرقطت في سمائها عدة لمبات في آن معاً.

- هو (وقد أغمض عينيه على آخرهما جعل يتمتم): أرجوك يا الله أن تنقذني من الموت. أرجوك يا ربي أن تمد يد العون. أرجوك يا رب العالمين أن... وكانت دقات قلبه المتسارعة مسموعة من قبل الحضور.

نظر الموت إلى الشاب، وكانت يده قد صارت عند أحد كتفي الفتاة، وجعل يرقبه بنظرات حادة، ودون أن ينطق بحرف ندّت عن سحنته ابتسامة توجه بها إلى الشاب الذي فتح عينيه المرعوبتين، وتلقى الابتسامة الخشبية كأنها سهم أو كأنها موجة ممغنطة.

- هي (بتهكم حزين): سيستجيب لك الموت تواً. نعم، إن الموت... هه...

- هو (وقد ابيض شعره فجأة): تقصدين أن الموت هو...؟

- هي: نعم، هو الموت! ونحن الآن بصدد الدخول إلى الماتريوشكا الأخيرة. نحن الآن بصدد المكوث الأبدي في الدمية الأصغر، في...

لم يتأتَ للفتاة أن تكمل بقية كلامها. غصّت القاعة بالصراخ والضجيج، وعلامات الرعب لفّت وجوه كل الحاضرين وقد توارت الفتاة فجأة من فوق مساحة العرض. لم تذهب إلى أي مكان، لم تدخل أي ركن، فما إن وضع الموت يده الأخرى عليها حتى اختفت هكذا فجأة، اندثرت، انمحقت أو كما صاح أحد المثليين في وجه صديقه: لقد لف العدم الفتاة.

الشاب الميت، ذاك الذي ابيض شعره منذ لحظات، وفي عز عجقة الرعب التي أناخت بكلكلها الثقيل فوق رؤوس المشاهدين، أما ذاك الشاب، فقد هب من انبساطه كالعفريت وسار صوب جسد الموت المتخشب بأقدام مكتومة الوقع وسأله بتوسل المكوث هناك في قلب الدمية الصغيرة... أرجوك، اقضِ علي بسرعة!!

بلغ تدافش الحضور أوجه مع قيام هذا الميت وتوجهه إلى حيث الموت الثلاثيني. تولت الجمهور نوبة هستيريا جماعية وقد اكتسى هذا العرض الطابع الشيطاني. نعم، ثمة بين ركاب السفينة بروست من رأى في هذه المسرحية الشيطان مجسداً بهيئة الموت. ثمة من... لست أدري.

المثلي الآخر ولحظة خروجه من الباب، لمح بطرف عينه الشاب صاحب الشعر الأبيض يذوي داخل جسد الموت.

عم الهرج والمرج كل أرجاء السفينة، وبلغ الهذيان حداً أن إحداهن وهي ملكة جمال سابقة تحمل بيدها باقة من الورد الأسود، رمت بنفسها في البحر الأبيض المتوسط. أطلق قبطان السفينة كل إشارات الاستغاثة وقد فلتت الأمور من بين يديه. صارت السفينة في عرض البحر كأنها مدينة ملعونة وثمة بين ركاب السفينة من أقسم أنه رأى بومة بوجه امرأة شمطاء تخرج مرفرفة من داخل قاعة العرض.

استبدت بناس السفينة الرغبة بمغادرة هذه الشيطانة كما قال أحدهم، وتجمهروا أمام قمرة القبطان مزمجرين ومولولين.

استفاق الأخير مذعوراً على وقع ضجة تملأ الأرجاء. سأل النوتي الذي كان يلم الورد الأسود من حوله عن الأمر، فأجابه أن إحدى الفتيات رمت بنفسها في البحر بعد أن اكتشفت جثة المخرج المسرحي متدلية عبر حبل مشدود داخل غرفة الطعام... يقال إن الرجل انتحر!!

رفّت عينا الأخير بألم بسبب انتحار المخرج الغريب، وسرت في جسده قشعريرة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. انتحر؟! همهم الأخير مستغرباً، أما النوتي فكان وقبل ولوجه أحد العنابر يدندن أن القرش توفق اليوم بوليمة من الجمال الصارخ. دلف النوتي على مرأى من الأخير عبر باب حديدي تآكله الصدأ، وبيده باقة الورد الأسود التي قدمتها الفتاتان للأخير.

كانت الجثة لا تزال متدلية داخل غرفة الطعام عندما قام الأخير من فوق أريكته. أما الممثلين الثلاثة، فكانوا ينتحبون عند إحدى الشرفات وفاة مخرج مسرحيتهم، بينما قبطان السفينة كان مع بعض معاونيه يعمل على تهدئة الركاب.

حالة من البلبلة كانت تسود السفينة الملعونة على حد قول أحد اللوطيين، وأحدهم يبدو أنه صديق الفتاة التي رمت بنفسها في البحر أو شيئاً من هذا القبيل كان يهدد بالمحاكم والقانون بسبب ما جرى لحبيبته كما قال مجهشاً بالبكاء.

أصاخ الأخير السمع إلى كل ملاحظة أو نأمة كان يأتي بها أي من الركاب عله يلتقط حرفاً واحداً يتعلق ببومة لها وجه امرأة شمطاء. لم يكن ثمة بومة ولم يكن ثمة وجه امرأة يطير. تسلل وقد ثاب إلى رشده بين عجقة المتجمهرين وولج بخفة غرفة الطعام. لم يكن منظر المنتحر منفراً كما تبدى للأخير. كان وجه المخرج المعلق شاحباً، ما استدعى في رأس الأخير، وجه من؟ ... وجه من؟؟

لم يكن وجه المنتحر غريباً. كان مألوفاً إلى أقصى حدود الألفة بالنسبة للأخير. وجه من؟... وجه من؟ حشد الأخير صور الناس في ذهنه وهو يتأمل وجه الجثة المتدلية. وجه من؟ ... وجه من؟ حسناً، وجهه يشبه وجه... كاد الأخير أن يلتقط شبيه المنتحر في ذهنه عندما دنا منه أحدهم سائلاً إياه أسباب وجوده هنا. كان السائل أحد معاوني قبطان السفينة ممن يتولون التحقيقات في هكذا مسائل. أقنعه الأخير أنه خبير جنائي خضع للعديد من الدورات التدريبية، وهو على استعداد لتقديم العون إذا لزم الأمر. لم يأخذ مساعد القبطان كلام هذا الصبي بعين الاعتبار، وظن به أخرقاً أو مجرد فضولي أو... على كل حال، لم يوله من الاهتمام أكثر من "ماذا تفعل هنا؟" سأله إياها بلامبالاة.

كان مساعد القبطان يحمل بيده ورداً أسود قال إنه لملمها من تحت جثة المنتحر. كانت عبارة عن خمسة أو ستة وردات قال الرجل أنه يجهل أسباب نشرها تحت الحبل بشكل طقوسي كما قال متهكماً. إن هؤلاء الفنانين مجانين، قال المحقق البحري للأخير الذي لم يرد على الرجل بحرف.

صير إلى إنزال الجثة بواسطة بعض الرجال وبحضور القبطان والأخير. وجه من؟... وجه من؟

سأل المحقق البحري الأخير عن أسباب شروده، فرد بابتسامة أن وجه هذا الرجل ينم عن... لم يحدد الأخير اللفظ، لكنه أشار إلى أنه كائن يموء. نعم، إنه قط ضخم، قال المحقق ضاحكاً، إنه قط كثير المني مشيراً بإحدى الوردات السوداء إلى جهة قضيب المنتحر حيث بقعة واسعة تعكس اللون الغامق للقماش.

لُفّت جثة الرجل ببطانية سوداء اللون بعد أن صير إلى تنظيم محضر رسمي دوّنَت فيه شهادة قبطان السفينة بالإضافة إلى شهادات أخرى تفيد أن الرجل مات منتحراً لأسباب مجهولة. فالرجل، ولأسباب مسرحية كما قال المحقق البحري ممازحاً، لم يترك رسالة يوضح فيها أسباب إقدامه على شنق نفسه في غرفة الأكل، كما أنه لم يترك وقد بلغ مزاح هذا المحقق مداه، رسالة اعتذار.

وجه من؟ ... وجه من؟

69

- هو (متخذاً شكل الجنين): إن المكان هنا ضيق.

- هي (متخذة شكل الجنين): نعم يا عزيزي، فنحن الآن في جوف الدمية الأصغر، في جوف الموت الأخير.

- هو: هل سيطول مكوثنا هنا؟

- هي: ربما إلى الأبد ويوم.

- هو: إنها قصيدة جميلة.

- هي: قرأتها في كتاب لبورخيس.

- هو: تقصدين ذلك الشاعر الأعمى.

- هي: نعم، نعم، الأعمى مثلنا الآن.

- هو (بانشراح): هل تحبين الشعر؟

- هي (تمضغ إصبعها في فمها): س...م... ع....و الخ

- هو: ماذا تقولين؟ فأنا لم أسمعك بوضوح.

- هي: أنا أقول... أريد أن أخبرك بأننا نحن الشعر الآن.

- هو: إن المكان هنا ضيق (يصمت لحظة). بالمناسبة، أين الموت؟

- هي: أنا وأنت أضحينا الموت منذ الآن فصاعداً.

- هو (بلامبالاة): نحن الموت؟

- هي: أجل، نحن الموت والشعر.

- هو: إن الأمر يشبه الشعر.

- هي: إنه شعر بالفعل، قرأته في كتاب لبودلير.

انثال العرق البادر على ظهر الأخير عندما قرأ كلمة بودلير. إنه وجه بودلير إذن. وجه المنتحر يشبه وجه بودلير.

احمرت حدقتا الأخير وجعل يتدارى خلف الأوراق التي انتزعها المحقق البحري من جيب معطف المخرج المنتحر.

فبالإضافة إلى أوراقه الثبوتية وإجازة السفر، لم يكن في جيبه إلا بقية النص المسرحي الذي كان يقرأه الأخير في إحدى زوايا الغرفة أثناء رفع الجثة ونقلها إلى مكان آخر.

70

لم يستشر الأخير أي من أشباح أجداده في تحديد مصيره المقبل. غطى وجهه بكلتا يديه وصار كأنه نون النسوة في عالم رجال قبيلته. كل الناس أحبت الأخير إلا الأخير. كان زاهراً في قلبه كأن قلبه هاوية ليس لها قرار. تطلع إلى يديه الاثنتين وجعل يطيل النظر مرة بعد مرة. وجهه منقوش على كفيه حتى لون لسانه وعينيه. جرجر أصابعه إلى مساحة الكفين تحت منطقة المعصم بالتحديد، وجعل يحف علامات وجهه كي تختفي. لم ير إلى وجهه جميلاً فوق كفيه المفصدين بالعرق.

جثة صاحب المسرح كانت لا تزال قيد تداول بعض الرجال ممن كُلفوا بنقلها من غرفة الطعام، وباقي نصوص المسرحية كانت عند أقدام الأخير كأنها مجسات نبض أو معالم يقاس عبرها ارتخاء العضلات وانحلال المفاصل. الرجل المتهكم المولج بإجراء التحقيق، كان لا يزال يلولح بالورد الأسود عند قضيب صاحب المشنقة. أما القبطان ومعه رجل دين مسيحي، فقد كانا يرسمان علامة الصليب بصورة آلية حتى أن الأخير توسم أنهما روبوتان مؤمنان أو شيء من هذا القبيل.

احتج الأخير في دخيلته كيف أن الموت حر وكيف أنه يزدرد الناس كأنهم حطب وكأنه نار. لم يكن الأخير حاداً تجاه الموت في يوم من الأيام. الموت حق، كما علمته أمه، وهو نعمة من رب العالمين كما كان يقول أبوه كلما كان يحتسي الشاي. ولا مرة كان الموت عند الأخير ورداً أسود أو عقاراً ضد الحياة. الموت نعمة كان يردد والده قبل مرحلة المخاط والاستمناء. لكن الآن، وفي هذه البروست الشيطانة كما اتفق معظم الركاب، إن الموت جريرة النهش.

لم يلب الأخير طلب القبطان والمحقق البحري مساعدة الرجال على نقل صاحب المسرح إلى غير غرفة الطعام، بل تراه كاد أن يتفوه بجملة لو قالها لولدت الانطباع لدى الجميع أن الصبي مجنون. "ابتعدوا عن الرجل المشنوق واتركوه لجمع شؤونه بنفسه". نعم، كاد الأخير أن يقول للرجال إن هذا المشنوق الغريب يملك القدرة على السير وحيداً على الرغم من بقعة المني ومن هذا اللسان المتدلي ومن هذا الجحوظ البريء للعينين. لم يتقدم خطوة واحدة لمساعدة الرجال ولم يأنس إلا إلى موقف المتأمل الذي حدا بي أنا الكاتب إلى إيراد هذا النص.

غطى نحيب الممثلين الثلاثة خارج غرفة الطعام على كل الأصوات الأخرى. والموت، رجل الموت، صار في حضرة الجثة كأنه يتيم أو قل كأنه ترسانة هلع. لم يكن حزن الشاب الميت وحزن تلك الفتاة ينم عن أن الميت هو مجرد مخرج مسرحي لما كانا ينويان أن يقدما من عرض. بدا للعيان أن حزن الممثلين الثلاثة على هذا الملفوف بالبطانية السوداء، بدا للعيان أن هذا الحزن يواري خلفه شأناً يتعلق بما هو مصيري وأكثر، بما هو رهن الحياة ورهن الموت.

تشعبت الأشياء داخل ذهن الأخير. فالكاتب الجميل لم يخبر الأخير يوماً ان الموت يشبه النحس. أخبره أن الله مات أو شيئاً من هذا القبيل، لكنه لم ينطق يوماً بأن الموت نحس يصيب الناس على مضض كأنه يأخذ بثأر قديم.

أمي، تلك التي عجز الحفار عن حفر قبرها، استهوتها الدجاجات إلى حد أن الموت عندها كان يشبه الخلود. دجاجات أمي وديكها الكبير لا تموت بعد الموت، كان يفكر الأخير. لم يتوقع الأخير حتى لحظة المشنقة هذه، أن صوت الديك يندثر عندما يُذبح بالسكين أو يوضع تحت التراب. في بيته، وقبل لحظة موت الله والكاتب الجميل، ثم قبل لحظة رجل المسرحية هذا، كان الموت في بيته مزحة أو ما يشبه الخدر اللذيذ. كان الموت قبل الشديد والأمير والشعر والباكستان يشبه النشوة التي طالما ابتغاها الأخير مع كل استمناء.

وضع الأخير يده، ورجل البطانية صار الآن فوق أكتاف الرجال، وضع يده فوق عضوه وجعل الموت مطية الانتصاب. خجل الأخير بسبب ما اعتراه من انتصاب في حضرة هذا الموكب الجنائزي المهلهل وفكر- والقبطان كان لا يزال يصلّب- أن الموت لحظة قذف داخل عدم يشبه قناً للدجاج لا يحوي لمبة صغيرة. نعم، كانت أمي- وقد رفع يده من فوق عضوه- تحرص دوماً على أن تترك اللمبة مضاءة داخل قن الدجاج، وفي أيام التقنين الكهربائي كانت توقد لوكس الغاز داخل قن دجاجاتها وتترك البيت تحت رحمة الشمع وقنديل الكاز.

صار موكب المشيعين خارج غرفة الطعام إلا الأخير الذي كان لا يزال في مكانه فوق النص المسرحي الأخير يفكر أو لست أدري ماذا... يستدعيني لأكتب هذا النص!!

مع وصول الموكب المهلهل إلى الباحة الخارجية لغرفة الطعام، شرع بعض الركاب بالأفأفة وكانوا كمن مسهم شيء شيطاني، شيء خبيث. صاح القبطان بلكنته الفرنسية الرشيقة والمعقدة في آن في وجه أحد الركاب بعد أن قام هذا الأخير بالبصق لحظة مرور البطانية السوداء. قال القبطان بنبرة تنم عن الإفراط في الديكارتية إن الرجل انتحر وما علينا إلا احترام رغبته في اختياره هذه الميتة والتدلي عبر الحبل المشدود. فمما لا شك فيه، كما أردف القبطان بوقار أن للرجل أسبابه التي أدت به إلى هذا المصير.

كان الأخير يرمق الناس عبر إحدى النوافذ يكشرون وبعضهم ينتع رقبته ويمطها كي لا يفر مشهد البطانية السوداء منه أو منها، وذلك حسب صوته أو صوتها وما تملك أو يملك من أعضاء. أجهش الموت الثلاثيني بالبكاء لما صارت البطانية قدامه، وتحول بين الميتين إلى ما يشبه العصفور الحزين.

بيتنا جميل جداً. أحبه بشكل خاص عندما تشطف أمي السطيحة وتكون الشمس عند أول الغياب. أحب البيت عندما يكون المطر غزيراً ورائحة الطبيخ تفوح في أرجاء البيت. لم يكن الموت آنذاك بطانية سوداء تسير بتهلهل. كان الموت وذلك قبل موت الله بشهور، لعبة ينقّب بها الأخير بواسطة عصا غليظة يدحشها في أحشاء هيكل عظمي لامرأة متوفاة. ثم لسع بالنبريش فوق جسده الغض.

كان الموت... لست أدري!! منذ البدايات الأولى لهذه الرواية قررتُ أنا الذي أشاهد ما يحدث في غزة مع بداية الـ 2009، قررتُ ألاّ أجاري رغبتي في تزحيط الكلمات وصفها بهذا الشكل. لكن، وبسبب ما يملك هذا الكائن الذي يدعى الأخير من سطوة عليّ رأيتني أنزع الرغبات عني فأُسقط نفسي في فجوة النظر إلى الأخير وقراءة ما يمور في صدره وفي عقله.

توارى الموكب الجنائزي المتحيز إلى الاستهتار داخل عنبر ذي باب صدئ. لم يدر الأخير إلى أين يؤدي هذا الصدأ، لكنه تتبع بعينيه اللتين جئنا على ذكرهما في هذا الكتاب كثيراً، تتبَّع زمرة المشيعين ولفَتَه كيف رمى المحقق البحري الورد الأسود في البحر كأنها نفايات. مع اختفاء

البطانية السوداء وإغلاق الباب الصدئ، تحوّل المشهد في السفينة، فعادت الحياة البحرية في هذه الباخرة السياحية إلى بعض عاديتها وصارت وجوه الركاب كما نظر إليها الأخير أقرب إلى وجوه المسافرين العاديين. لم يكن ثمة حزين بين الركاب إلا ذاك الذي قفزت حبيبته في البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى الموت والميتيْن.

توقفت إشارات التصليب فوق الصدور مع ولوج الجثة الباب الصدئ، ومن هنا وهناك توقفت الـ "لا حول ولا قوة إلا بالله" وما شاكل من عبارات وهي قليلة جداً على ما لاحظ الأخير.

توارى انتصاب عضو الأخير مع تواري الجثة المسرحية، وبعض هدوء عاد إلى ذهن الأخير... لكن أبي لم يرغب في عمره أن يكون موضوع سخرية أو احتقار. تباً لأمي... لست أدري، همس الأخير. لكن أبي تمادى كثيراً في الحزن وفي الاستمناء. لماذا يجب على الموت أن يكون محني الظهر وشاباً يافعاً في آن؟ ليس العدم إلا قناً بلا لمبة أو لوكس غاز... العدم بيضة لم تنتبه لها أمي في يوم من الأيام. العدم- وناس السفينة عادوا لتوهم إلى أمورهم العادية- ليس إلا بيضاً مشتتاً في قن بلا ضوء.

أحد العاملين في مطعم السفينة دنا من الأخير بتؤدة وسأله بخجل الخروج من غرفة الطعام كما أمر القبطان. جارى الأخير رغبة القبطان فغادر مكانه بعد أن فرغ ذهنه من البيض والعدم، ثم، ولما صار عند باب غرفة الطعام، سأل الموظف أن يرمي تلك الأوراق على الأرض في سلة المهملات.

لم يعر موظف المطعم إشارة الأخير إلى الأوراق أدنى اهتمام. أما الأخير، وهو الآن خارج غرفة المشنقة والطعام، شعر بالانشداد لمعرفة الدهليز الذي يؤدي إليه ذلك الباب الصدئ الذي بلع رجل المسرح منذ لحظات. ماذا يوجد داخل هذا الباب المائل لونه إلى الأصفر؟ أي لغز يحمل داخل هذا الصدئ؟ استبدت بالأخير رغبة الولوج إلى ذاك الداخل المجهول والوقوف على مستتراته الفظة كما خمّن الأخير. شعر بمسيس الحاجة لفتح هذا الباب ومعرفة ماذا يوجد خلفه.

بماذا كان يشعر صديقي الجميل على وقع الطرق القوي فوق باب بيته المليء بالكتب؟ سها الأخير عن جو السفينة. آه، لا بد أن الرعب قد أخذ بتلابيب حبيبي الكاتب مع هذا الطرق المدوي. أرى إليه- كان الأخير ينظر إلى المدى الأزرق اللامتناهي- أرى إليه فأبصر الخوف والعزلة، أسمع دقات قلبه، أستشيط غيظاً بسبب رعونة هؤلاء الطارقين... تباً لي، يقول الأخير، سحقاً!!

أنس في نفسه القدرة على فتح الباب والدخول إلى هناك كأنه يدخل إلى بيته (؟). لا يدري الأخير، لم يعد يدري من أمر بيته شيئاً بعد مقولة موت الله. بيتنا، بيت أمي... ماذا عن تلك البومة، تلك المرأة الحبلى التي بطنها يشبه الجبل؟

تردد في أجواء السفينة أن أحدهم ويدعى عبد الله صفع أحدهم لا يدعى عبد الله بسبب تهكمه أن غزة غاصت في العتمة الكاملة. لفّت العتمة غزة بالكامل. صارت غزة كما رسم الأخير في ذهنه تشبه قن دجاجات أمي الخالي من الضوء.

لم يكن البيض في غزة وعلى وقع الأخبار الآتية من هناك، محل تفقيس أو اقتناء. البيض في غزة كما قرر رأس الأخير عدم... وغالبية القتلى من الأطفال والنساء. كلم عبد الله الرجل المصفوع أن

إسرائيل وصمة عار فوق جبين بلدك النبيل وما جاورها من بلدان. أنتم الإرها... وليس أطفال غـ....!

كان عبد الله يصيح على مسامع الأخير الذي صار على بعد فشختين من الباب أو ما دون. لم يعرف الأخير بقية ما دار من أمور مع عبد الله بعد أن هاجمه قبطان السفينة الذي كان يلعن هذه الرحلة وما زخرت به من مصائب وويلات. لا يحق لكَ- قال القبطان لعبد الله- صفع الرجل أو لكمه لأنه ضد الإر...

كان الأخير يعمل على إغلاق الباب الصدئ خلفه لما تناهى إلى مسامعه تهديد القبطان لعبد الله بتوقيفه لأنه يدافع عن الـ... هاب.

ندت ملامح الأخير عما لا يمكن سبر غوره بعد أن صار داخل غرفة رجل البطانية، وأول ما طالعه داخل هذه الغرفة الشمطاء ورد أسود و... نعش، نعشان، ثلاثة، أربع، خمسة، ستة نعوش ونعوش ونعوش بغاية اللطف والانشراح.

71

من قال إن ذكريات الموتى تزول؟ ذكريات الموتى لا تزول. ذكرياتهم أسنان ناصعة البياض تعض لحم واقعنا الحي لتذكرنا أننا ما زلنا هنا، أننا ما زلنا أحياء.

لم تكن هيئة أي من الموجودين هنا تنمّ عن أنّة حياة. وجوه حالكة تتآلف مع الموت كأنها بقايا جثث أو فضلات موت قديم. كان المكان موغل في صمت كئيب إلا من قعقعة ماكينة طباعة ضخمة كان صوتها يلبي حاجة ناس الغرفة لبعض حركة وجيئة وذهاب. كانت الغرفة مقفلة بالكامل إلا من نافذة دائرية تطل على البحر. شدّت النافذة انتباه الأخير، فانصرف عن هؤلاء يقلب بعينيه موج البحر. كان خارج النافذة يشبه وجه رجل ميت لا يبالي بموته، كان هذا الخارج يشبه وجه رجل ميت هو على يقين من أنه سوف يعود. توسّم الأخير في البحر شبحاً، كان البحر عبر دائرة النافذة كأنه شبح لا يخلص. البحر لا يخلص أبداً وكذلك وجه من لا يموت. أي من أشخاص الغرفة لم يكلم الأخير بنبس حرف، فقط المطبعة القديمة الضخمة هي من كانت تكلم الجميع. لحظة دخول الأخير الغرفة، فاضت نفسه رعباً وخوفاً، لكن انشغال ناس الغرفة وانهماكهم في أمور تخصهم حدّ من خوف الأخير، فتحوّل عن هذا الخوف وصار إلى من هو زائر متحف أو شيء من هذا القبيل أقرب. نعم، اكتسى المكان في وعي الأخير طابع متحف أو-إذا أردنا الولوج إلى رأس الأخير أكثر- طابع قبر قديم. انزاح الخوف عن قلب الأخير إلا من نتف كآبة وشعر بالانشداد لمعرفة ما الذي يجري هنا. ساورت الأخير الشكوك وتولته الحيرة بين أن يكون مستيقظاً أو أنه في غمرة النوم. أأنا في حلم أو ما أراه حقيقياً؟ سأل الأخير نفسه والبحر عبر النافذة الدائرية كان لا يزال وجه رجل ميت لا يبالي بموته لأنه... "كلا، أنت لست في حلم، إنه العالم الأصلي. أنت في العالم الحقيقي". امتقع وجه الأخير وأشاح بوجهه عن كل شيء إلا عن البطانية السوداء من حيث انطلق الصوت. أجج فتور الصوت الآتي من تحت البطانية كل مشاعر الرهبة مجدداً في قلب الأخير، فعاد إلى التساؤل مفأفئاً: أي كابوس هذا؟! نطقها بلهجة خنّاء. عنّ للأخير أن يفشخ بضعة فشخات ويشيل البطانية عن صاحب الصوت، لكن الصوت أوعز للأخير كي يبقى في محله... "أنا سوف آتي إليك". مع انزياح البطانية عن وجه الرجل ثم عن باقي جسده وضع الأخير يده على أسنانه متحسساً هذه الأسنان بأصابعه، ثم وقد صار الرجل قاب قوسين من الأخير، تناهبت قلبه دقات كأنها زعيق الشياطين. كان الرجل يتقدم من الأخير بتؤدة وبأقدام مكتومة الوقع، وعلامات الانتحار بادية عليه. العجقة الصامتة للرجال الآخرين كانت مواظبة على حالها وثمة ورق كثير وورد أسود تتناولها أيدي هؤلاء المتحركين. فكر الأخير أن يتناءى بضع خطوات إلى الوراء، لكن المخرج المنتحر طمأن الأخير ألاّ يفزع وأن لا... إلى آخره من هسهسات ومن غمغمات.

كانت التعابير تتمدد على وجه رجل المسرح كأنها ديدان صفراء تزحف ببطء فوق جثة امرأة نكشها أحدهم بعصا غليظة في يوم من الأيام. ملك المتقدم من الأخير على الأخير نفسه وكان مع كل خطوة يهسهس بـ "لا تفزع" وكان يمرر بين يديه ما يشبه الدمى، بل هي دمى حقيقية كما لاحظ الأخير.

عاد الأخير يتلمس أسنانه بأصابعه تارة وتارة بلسانه، بينما رجل المسرح ذاك يزيد من وتيرة الدمى بين كفيه. ثمة من أخبر أن رجل المسرح المنتحر تكلم أمام الأخير أنه تم تنصيب رجل أسود رئيساً للولايات المتحدة الأميركية اليوم، وأردف مع تثاؤب بطيء أن القرن الحادي والعشرين ربما يكون قد ابتدأ منذ اليوم.

لم يبال الأخير بجقجقات رجل الدمى المتقدم منه ببطء، فالعرق البارد كان ينثال على ظهره كأنه بحر، وصار هذا البحر بحراً أكثر على وقع ملامسة وجه رجل المسرح وجه الأخير. نعم، أكمل رجل البطانية وقد قام من تحت بطانيته بغتة أن القرن... لم يسمع الأخير بقية كلام الرجل، فهو تقهقهر إلى الوراء بضع خطوات عاملاً على نأي نفسه عن الرجل وعن الدمى التي تطقطق بين يديه. لم يتأت للأخير أن يسأل الرجل سؤالاً، فالرهبة أعمته وألزمته الصمت كأنه ليس أكثر من عرق بارد ودقات قلب.

كانت الدمى بين يدي الرجل تطقطق فيزداد عددها تارة وتارة يقل. عمل الأخير على جماع نفسه وحوّل عينيه عن وجه الرجل مركزاً بصره على ما بين يديه. أولئك الذين في غرفة الورد كانوا مواظبين على ما يقومون به من طبع وصف وتوضيب لأوراق كثيرة وباقات من الورد الأسود. كانوا في بعض حركاتهم كأنهم رهن إشارة أحدهم كما لاحظ الأخير.

ازدادت طرطقة الدمى بين يدي رجل المسرح الذي لاحظ أنها شدّت انتباه الأخير. ندت شفتا المخرج المنتحر عن ابتسامة رجل انتحر بالحبل منذ قليل، فنظر إلى الدمى ثم قدمها للأخير. أنس الأخير في نفسه القدرة على تحريك يديه. تناول الدمى من الرجل...

... والنافذة الدائرية كانت لا تزال تطالع الصبي بوجه رجل ميت لا يبالي بموته البتة لأنه يعلم علم اليقين بأنه سوف يعود.

تحير الأخير من استعمال هذه الدمى الكثيرة في هذا المكان المقفر إلا من رجال يتحركون وقعقعة آلة طباعة ضخمة وموت كثير. ولى رجل البطانية ظهره للأخير بعد أن ناوله الدمى وعاد بتثاقل إلى بطانيته يتلحفها كأنها بيت حنون.

"نعم، البطانية السوداء بيتي الأبدي يا من تلقَّب بالأخير".

اصطفقت ركبتا الأخير ما إن نطق رجل البطانية باسمه، وكانت الدمى بين يديه لا تزال بين يديه. لم يفكر الأخير البتة أن الوقت في هذا المكان سائل إلى هذا الحد. فما إن ولاه رجل المسرح ظهره حتى لاحظ أن المساء قد ضرب أطنابه خارج النافذة الدائرية التي طالعت الأخير بوجه رجل ميت لا يبالي... هه، بموته! نعم، كان المساء قد غطى البحر بلونه الكحلي الكئيب، وثمة طيور بحرية لمح الأخير ظلالها فوق انبساط الموج. يبدو أن رحلة بروست قد شارفت على الانتهاء. يبدو أن وجهتي الفرنسية قد صارت قاب قوسين، خافت الأخير الصوت في صدره بينما أولئك أصحاب الطباعة والورق وباقات الورد الأسود مندفعون في عملهم كأنهم منذورون لهذا العمل منذ ما يقارب الـ... منذ ما يقارب... حاول الأخير مداورة العبارة في ذهنه لكنه فشل.

اغلولق الصبي على نفسه في هذا اللج المنعزل ساهياً عن عالم السفينة مركزاً بصره على هؤلاء الذين يتجولون بين التوابيت ويطبعون الورق بكميات وكميات.

لم تؤات الأخير فكرة مغادرة غرفة هؤلاء الناس. فهو وقد ثاب إلى بعض رشده شعر بأنه وكما يقال عادة، جزء لا يتجزأ من هذا المكان. شخص في هؤلاء المتحركين بثبات، ولتزجية الوقت أخذ يداور الدمى الخشبية بين يديه فيخرج الدمية من الدمية، ثم الدمية من الدمية، ويعود ليضعها من جديد في قلب الدمية الأكبر وهكذا دواليك.

... أما نافذة الغرفة المطلة على البحر، فكانت لا تزال تمد الأخير بوابل رجل لا يبالي بموته لأنه يعلم علم اليقين أنه سيعود من جديد.

غلب النعاس الأخير على وقع القعقعة المعدنية المنتظمة للآلة الميكانيكية التي تطبع الأوراق، وكاد أن يغفو على وقع الأقدام المكتومة لهؤلاء المتحركين. لم يدر الأخير، وفي عز النافذة وهذا المكان الغريب، إذا ما كان قد غفا أو ظل صحبة الاستيقاظ. ارتعش وقد طالعته النافذة بوجه رجل لصق الزجاج. اعترى الضيق الأخير وأخذت بمجامعه نوبة ذعر... إنه الكاتب الجميل "صديقي" يحاول تلمس الطريق للدخول إلى غرفة... للدخول إلى هذا المكان.

كان وجه الكاتب جميلاً كما عهده الأخير إلا من آثار ذبح فوق عنقه المخضب بالدم.

من قال إن ذكريات الموتى تزول؟

كان الكاتب فوق البحر يحكي ويحاول إفهام الأخير بجمل لم يلقط الأخير منها شيئاً. إن صوت الموج الهادر وقعقعة الآلة الميكانيكية حالا دون لقط عبارات الكاتب الجميل. كان الكاتب يشير للأخير كي ينقذه أو لست أدري ماذا. كانت ملامحه تلح على الأخير بوابل من الدمع. لم يكن الأخير على ثقة أنه مغبة كابوس حقير. كان أقرب إلى الثقة أنه يرى إلى صاحب الوجه الجميل. تلمس الأخير الطريق بين توابيت كثيرة وورد أسود وأشباح تسير وشخص في وجه الكاتب الذي كان يتراوح بين الاستغاثة والابتسام. كان رأس الكاتب رجراجاً فوق كتفيه، وكانت تمتد وراءه كمية هائلة من الكتب تعوم على موج البحر.

انتفض الأخير وكأن ثمة من... حاول فتح النافذة أو كسر زجاجها الدائري. حاول الأخير لمس الكاتب بكل ما أوتيه من جهد وعزم، لكن محاولاته باءت بالفشل على وقع أحد رجال عجقة الورق والورد الأسود والمطبعة القديمة يربت على كتفه برفق ويدعوه إلى لزوم الصمت و..."من أخبرك أن ذكريات الموتى تزول؟ ذكريات الموتى تبقى معنا يا الأخير"، قالها الرجل بهمس.

أزاح الأخير وجهه عن الزجاج الدائري والتفت صوب الرجل الذي أردف بلطف رمادي "اترك الرجل وشأنه. لن يجديك إنقاذه نفعاً. لقد فات الأوان يا الأخير. الكاتب مات، أنا متُّ وأنت في طريقك إلى ما يسمى الموت". تفرس الأخير في وجه الرجل ملياً. وجهه يشبه وجه الدمية التي تطقطق بين يديه. وجه هذا الرجل هو عينه وجه الدمية المبللة بالعرق التي تجوب كفي الأخير.

72

كانت معالم الميناء الفرنسي قد أخذت تلوح بالتدريج لما خرج الأخير من غرفة الصدأ. فبروست كانت قد صارت على مقربة من بر الأمان بعد هذه الرحلة المتعبة على حد قول القبطان.

عبد الله، ذاك الذي كان "يدافع عن الإرهاب"، كان محجوزاً في أحد عنابر السفينة. أما باقي الركاب، فكان البر يطالعهم كأنه جنة موعودة بعد رحلة الشؤم هذه كما أجمع معظمهم. الكل كان منصرفاً إلى ترتيب حاجياته مع وشوك وصول بروست إلى الميناء إلا ذاك المحجوز في العنبر والأخير.

من أنا؟

يقال، وكما ورد في تقرير لقبطان السفينة، إن الأخير وبعدما خرج من عنبر الباب الصدئ، أوغل في صمت عميق ولم ينطق إلا بكلمتين: "من أنا؟". حسب بعض الشهود ممن شاركوا الأخير الرحلة، أن الصبي (؟) بعد خروجه من الغرفة كان كالممسوس وكان وجهه كمن خرج لتوه من نعش أو قام من قبر عتيق.

تنوعت حكايا ركاب بروست حول الأخير وكل راكب أدلى بشهادة تتناقض في بعض تفاصيلها مع الشهادة الأخرى، بيد أن الكل كانوا مجمعين أن ثمة ما أخذ بمجامع الأخير بعد خروجه من غرفة الصدأ تلك. لم يؤذ الولد أحداً. لم يجرح أحداً بسكين أو بحرف، وكان طوال الوقت المتبقي من الرحلة ساهياً. كان في بعض حركاته كمن يتحرى الابتعاد عن ذكرى أليمة أو شيء من هذا القبيل وكان على شحوب شديد. من أنا؟ هو كل ما نطق به الأخير للمحقق البحري عندما حاول هذا الأخير الوقوف على حالة الأخير. بعضهم قال إن الأخير التزم غرفته في السفينة وآخرون أفادوا أن الأخير بعد خروجه من غرفة الرجل المنتحر كان متأبطاً ما يشبه مسودة كتاب أو ما شاكل؛ مطبوع عليها عنوان عريض. بعض الركاب قالوا إن العنوان كان "الأخير". بعضهم قال "الإرهابي"، وآخرون قالوا: إن المسودة كانت بعنوان "الإرهابي الأخير" وكانت مبللة بالماء كما جاء في إحدى الإفادات التي لم يؤخذ بها على أي حال.

من بين الإفادات التي لم يؤخذ بها أيضاً إفادة الممثل الثلاثيني الذي لعب دور الموت، إذ قال هذا الرجل إنه رأى إلى الأخير، وكان ذلك بعد خروجه من غرفة المخرج المنتحر بساعات، ساهياً يتمتم بكلمات لم يفهم منها إلا القليل القليل. حاول المحققون شحذ ذاكرة ممثل الموت علّه يفيهم بمعلومة ما عن تلك التمتمات، لكن الموت ورغم الإلحاح، أقسم أنه لم تلم بمسامعه من كل ما قاله الأخير إلا كلمات مشتتة عن كاتب جميل ورأس مقطوع وبيت محروق وشديد وإصبع ورواية وشعر ونافذة وكلمات أخرى، وكان يبكي. نعم، قال ممثل الموت أنه رأى إلى الأخير يبكي... ولست أدري. بالإجمال، قال الممثل، تبدى الأخير لناظريّ كشاب، كولد، لست أدري. تبدّى لناظري كأنه صبي بغاية الحزن، حتى أنني شاركته البكاء، ثم أجهش أمام زمرة المحققين.

ضاق المحققون ذرعاً بإفادة هذا الممثل المعتوه، ولم يأخذوا بهذه الإفادة المهلهلة ولا سيما أن ممثل الموت أكد أن أوراقاً كثيرة كانت بين يدي الأخير، وكانت تشرشر الماء المالح كما زعق هذا

الممثل في وجه أحد المحققين.

73

من أنا؟

- الرجل الأول: يقال أن ثمة مجاز، وهو مجاز حقيقي بالتأكيد، ربت فوق كتف الأخير وقال له الكاتب مات، أنا مت، وأنت في طريقك إلى ما يسمى الموت.

- الرجل الثاني: يقال أن الكاتب الجميل، وبعد أن ذُبح بساعات، دوّن أن ثمة نافذة أردفته بوجه رجل المجاز يعانق وجه الأخير.

- الرجل الثالث: بعد احتراق جثته المقطعة، يقال أن الكاتب الجميل دون عبر نافذة بيته أن رجل المجاز المنتحر كان يدخل النعش في قلب النعش، ثم يخرجها من بعضها ليعود فيدخلها داخل بعضها من جديد.

- الرجل الرابع: قبل اكتشاف جثة الكاتب المتفحمة والمقطعة الأوصال، يقال أنه دوّن أن سفينة تدعى بروست تحمل في جوفها العميق آلة تدعى غوتنبرغ تطبع في اللحظة الواحدة مليون نعوة وأكثر تحت إشراف بضعة رجال.

كان الرجال الأربعة، وهم ممن لا يؤخذ بكلامهم عادة، قد صاروا خارج الحي عند تخوم المقبرة القديمة حيث أشجار الحور الضخمة والورق اليابس الذي يطقطق مع أبسط خطو والشمس كانت قد صارت إلى بعض غياب. كان الأربعة ماضين في ثرثرتهم يتكئون على عصيّهم بخرقهم وهلاهيلهم ويمضغون لعابهم ويتهامسون أنه قد تناهى إلى مسامعهم أن الكاتب صديق الأخير لم يدوّن أسماء أولئك الذين يشرفون على ماكينة غوتنبرغ.

- الرجل الأول: يقال أن الكاتب الجميل، وأثناء تشريح جثته المسكينة وصف شكل الرجال دون أن يأتي على ذكر أسمائهم.

- الرجل الثاني: بعد نزع إصبع ضخم من جوف الكاتب المحروق، يقال أنه دون أن أحد رجال ماكينة الطباعة ينم شكله عن الكابوسية، والآخر كان يشبه الانتظار. أما الثالث فكان كالعبث، بينما الرابع كأنه العدم، والخامس كان كأنه الفرار.

كان الأربعة قد تجاوزوا مقبرة الحي وصاروا عند شاطئ البحر الذي كان يبلع الشمس عندما سأل الثالث الرابع: ألم يكن ثمة سادس؟ هل وصف صديق الأخير شكل السادس في كتابه الذي لم يكمله بعد؟

- الرجل الرابع: بعد رفض مولانا الإمام دفن جثة صديق الأخير في مقبرة الحي، قررت الشرطة رمي الجثة في البحر. ويقال أن الكاتب الجميل دوّن بعد أن بلعه البحر أن وجه الرجل السادس هو أقرب إلى وجه الممسوس.

الأول والثاني والثالث: الممسوس؟!

قضى الرجال الأربعة سحابة ليلهم يتأملون البحر ويزدردون ريقهم وقد اقتعدوا رمل الشاطئ. كان الأربعة يتناوبون الموج علّه يسر إليهم بخبر ما. فهؤلاء الأربعة، ومنذ صحبتهم الأولى التي تتجاوز عشرات السنين، درجوا على أن يروا في الموج لسان. فهم، ومنذ سنين طوال، تطلعوا إلى الموج أنيساً، تطلعوا إليه كلمات تتدحرج. كان الأربعة شاخصين في البحر الأسود، وقد آلت الشمس إلى مدد الغياب، يرهفون السمع ويلوكون أحناكهم التي لا تني تتحرك عنوة عن كل عجز. لم يغالب النعاس أيّاً منهم. لم يتهيأ الشاطئ لهؤلاء الأربعة سريراً واسعاً. كان البحر أمامهم صندوق أسرار يمد لسانه عبر الموج الذي شهق مع أول شقائق الفجر "هسّ...".

- الرجل الرابع: هسّ، أرجوكم أن لا تعلوا الصوت؛ يقال أن الكاتب الجميل تحول في قاع البحر إلى مجاز ممسوس يتحرى السؤال عن نفسه.

- الأول والثاني والثالث: عن نفسه!!

- الرجل الرابع: أرجوكم أن لا تعلوا الصوت، فلننصت معاً إلى ما يدون الكاتب في القاع العميق.

- الأول والثاني والثالث والرابع وقد قربوا رؤوسهم من بعضهم البعض، همس كل منهم في أذن رفيقه: هل سمعت ما سمعتُ؟

كان البحر قد صار إلى بعض زرقة والأربعة كانوا قد صاروا عند أول الحي من جهة المقابر عندما دنا منهم صبي يحمل كتباً مدرسية وأقلام رصاص وسألهم: بم أسرّ لكم الموج في الليلة الفائتة؟ عجل الرجال الخطى على وقع هذا السؤال المفاجئ وعنّ لهم أن يعودوا إلى البحر ليُسكتوه، لكنهم عدلوا عن هذه الفكرة، ولما صاروا في قلب الحي قرب منزل الأخير، تناهبهم الهم والضيق وألمت بهم موجة من العرق البارد. لم يتبادل أي منهم الكلام مع الآخر، لكنهم، وعلى وقع صياح ديك مبحوح منبعث من الجهة الخلفية من المنزل، راحوا يرجرجون الكلمات في حلوقهم، إن الكاتب صديق الأخير دوّن في قاع البحر "من أنا؟" ورمى القلم من يده ومات.

كان الأربعة يصيحون في قلب الحي قرب منزل الأخير: إن الكاتب دوّن، إن الكاتب كتب، أن الكاتب أنهى، إن الكاتب ذُبح، إن الكاتب أُحرق، أن "من أنا؟" ومات.

كانت هي المرة الأخيرة التي رأى فيها أهل الحي إلى هؤلاء الأربعة المساكين الذين دبّ فيهم الخوَت من كل حدب وصوب. كُبّلوا بواسطة رجال أشداء ورُمي بهم في عربة لنقل المجانين. تحول الأربعة إلى ذكرى لدى أبناء الحي الذين عادوا لينشغلوا بتأمين قوتهم اليومي بغية البقاء على قيد الحياة. نسي الناس الرجال الأربعة وحلقتهم الدائرية و "من أنا؟" يدّعون أنها آخر كلمات الكاتب الجميل.

منذ صياحهم الأخرق قرب منزل الأخير، كف الموج عن أن يكون لساناً، وصار الشاطئ مع غيابهم كأنه يتيم.

74

من أنا؟

يقال أنني ولدتُ في النصف الثاني من القرن العشرين، في بقعة سُمّيت الشرق الأوسط. البعض يقول أن أهلي يتحدرون من سلالات البدو والبعض يقول إنني معدوم الأصل. لا أمتّ إلى أصل واضح بصلة، أنتمي إلى شعوب كثيرة تسمى شعوب العالم الثالث. أرضي حروب غبّ الطلب، وناسي أشباح لعهد قديم. أحياناً أرى إلى نفسي ناقة، وأحياناً أرى إليها نخيلاً. أحبذ الركون إلى "هنا" صريح، لكن الصراحة في بقاعي امرأة حبلى تنجب في الغالب الإهانات. لست أدري متى ولدتُ، لكنني على يقين تام أن ولادتي صنو الإهانة. منذ بداياتي الأولى في صفيح الأرض الساخن، عرفتُ أن الدبدبة قدري. عز على أهلي السكوت، فأكلوا الفتائل والبارود وبجّوا. أنار أهلي العالم الأخير بأنوار أخرى تقابل تلك الأنوار. منذ أن صرت هنا وأنا أترقب الكلمات، علّ كلمة واحدة تعينني في لقط العالم والسير بمشواره الطويل. لكن الفشل ما انفك يؤكد لي أنه رفيق دربي الوحيد. الكلمات بين يدي صدأ وضرب طبول وحوافر خيل وزعيق وصهاليل. تسمرت ذات صباح أمام بيت أهلي وجعلت أصيح كأنني ديك. نبهتني أمي إلى أنني "الأخير" ولا يجوز لي الصياح، لا يجوز استعارة الديك. جاريت أمي اللاديك فيّ وأوهمتها أنني محض ولد يدعى الأخير. لكن، من يكون الأخير؟

لطالما سررت بـ "الـ التعريف" في اسمي الغريب، وتمنيت هذه الـ "الـ" حتى قبل الفعل المضارع. لكن أستاذ اللغة العربية كان يؤنبني مع كل "اليـ" أستعملها. لا ألوم أستاذي العفيف، فهو بدوره قد تعلم: أكل الولد التفاحة وليس اليأكل من قريب أو بعيد. تاه عن ذهن أساتذة أستاذي أن اليأكل هي الأصل. سها عن بال هؤلاء الأساتذة أن العالم يجيء كل لحظة، العالم يصير. سقط هؤلاء الأساتذة البلهاء في فجوة أن العالم جاء، ونأوا بأنفسهم عن روعة أنه اليجيء باستمرار.

أحسبني تهتُ عن السؤال: من أنا؟ من يكون الأخير؟ ها هي البروست الفرنسية تتاخم شواطئ الشمال بتهاد مريب وأنا فيها محض الغريب. من أنا هنا الآن؟ كيف لـ "اليكون" خاصتي أن يستجيب لهذا الشاطئ المتين؟ أمي حبق، أبي طيون وجدي خيط شمس تغيب. ها هي البروست تعلن عبر صفارة تصل بنعيقها إلى السماء أننا دخلنا حرم المرفأ الفرنسي الفسيح.

لست أدري من أنا. أنظر إلى نفسي فأراني نمطاً كارثياً من البحث عن الزمن المفقود. لست أدري من أبي. مرة هو صياد حقير ومرة إسكافي بسيط. أبي تارة لص مسكين وأحياناً عاطل من العمل.

كان الأخير ماعساً أنفه عند زجاج إحدى النوافذ يتأمل وصول الباخرة بروست شارداً في أفكاره لما تناهى إلى مسامعه صوت ميكروفون يشكر الركاب لاختيارهم هذه السفينة لرحلتهم ويعتذر بسبب ما اعتور هذه الرحلة من مشاكل بسيطة.

رفع الأخير أنفه عن الزجاج على وقع صوت الميكروفون يعلن أن باستطاعة الركاب مغادرة السفينة في غضون خمس عشرة دقيقة مع الاعتذار مجدداً بسبب إلى آخره...

75

أنتَ أيها الإنسان المحيّر

المحاط بالأسرار،

من تؤثر بحبك؟

أباك، أمك، أختك أم أخاك؟

لم يتأت للأخير أن يلقط مشهد بودلير في الجهة الأخرى من السفينة. كان الركاب يتمازجون، يجيئون ويروحون فوق هذا المتن المعدني في لحظاته الأخيرة. مط الأخير رقبته وقد خرج من قمرته محاولاً لقط بودلير في هذه العجقة السائبة. لم يكن بودلير هناك حيث لمحه منذ لحظات، يبدو أنه قد اندثر في هذا المدّ المندفع من الناس المغادرين.

لم يكن بحوزة الأخير أي أمتعة أو حوائج ما خلا دمية تطقطق داخل دمية تطقطق بالإضافة إلى أوراق كثيرة. استعجل القبطان نزول الركاب بأن جعل ينادي عبر الميكروفون كي يسرع الناس بالمغادرة، وكان في ندائه بغاية اللطف والذوق الفرنسيين. لفت الأخير في غمرة هذا الجمع المتدفق رحيلاً وجود شاحنة عليها ونش كانت مركونة عند الحوض حيث رست السفينة بروست. كان الأخير لا يزال على متن السفينة شارداً لما لكزه أحد الرجال كي يلتحق بحبل طويل من الناس الذي يتهيؤون للنزول.

دعيني أستنشق طويلاً طويلاً رائحة شعرك، دعيني أغرق فيه وجهي كإنسان ظمآن إلى ماء النبع. دعيني ألوّح بشعركِ كمنديل يفوح منه عبق العطر، دعيني أنثر عبر شعرك ذكرياتي العميقة في الهواء.

اصطفقت ركبتا الأخير على وقع صوت بودلير يأتيه من جهة الخلف. تابع سيره بين الحشد متلفتاً علّه يرى إلى بودلير عيناً بعين. كان بودلير هناك عند مقدمة السفينة متكئاً على عمود ضخم. لم يلوّح الشاعر للأخير ولم يتجاسر هذا الأخير على أن يلوح للشاعر. بدا بودلير في مكانه هناك كأنه الكلمة الأخيرة للهرب وللاضطراب. ندت شفتا بودلير عن ابتسامة زرقاء، وهمس من مكانه: من تؤثر بحبك؟

آه يا أمي العزيزة، أثمة وقت بعد للسعادة؟ لا أجرؤ على تصديق هذا الأمر.

تلاشى بودلير من أمام ناظري الأخير كأنه سحابة، كأنه دخان. تلاشى إلا من ورقة صغيرة تهاوت من بين يديه.

أريد أن أخبركِ بأمر أنت تجهلينه من دون ريب: حناني إليكِ تضاعف وتضاعف حتى أفقدني قدرة العيش!!

بدون أن ينتبه أحد، تنحى الأخير بعض الشيء ممرراً بودلير كأنه طيف. اقشعر بدن المسافر الشاب وقد تناهى إلى مسامعه صوت بودلير يقرأ رسالة إلى أمه: إن روحي لتزداد صدأ، وأود أن

أعرف الأمان.

اقشعر بدن الأخير وشحب وجهه على وقع المرور الطيفي لبودلير من أمامه كأنه غيم: أمي العزيزة، إذا كنت تملكين حقاً العبقرية الأمومية وإذا لم تكوني قد تعبت بعد، تعالي إليّ... تعالي إلي. تعالي لتريني، لتبحثي عني، أنا أود رؤياك الآن.

كاد الأخير أن يشهق وقد صار قاب قوسين أو أدنى على ترك السفينة بروست. تحرى السماء من فوقه، فهو على يقين تام أنه سمع صياح ديك. حبس الشهقة التي استبدت بخناقه، وصار يرتج كأنه مصاب بنوبة صرع، صار الأخير كمن ركب مؤخرته شيطان كما قال أحد الركاب.

ابتعد البعض عن الأخير وثمة من عمل على تهدئته وإشرابه الماء. سأل الأخير: أين الديك؟ أين الديك؟ وكان ممدداً على الأرض يزبد.

في محيط شعرك ألمح مرفأ مزدحماً بأناشيد الحنين وبرجال أشداء من شتى الأمم. ألمح سفناً من كافة الأشكال تبحر في فضاء رحيب حيث تتهادى الحرارة الأبدية.

أين الديك؟ أين الديك؟ كان الأخير يصيح بصوته الأجش سائلاً الناس أن يزيحوا من فوقه كي يرى إلى الديك.

كل مرة أمسك القلم بين يدي يتملكني الخوف. كل مرة أمسك القلم أود قتلكِ... أود تدمير جسدك الضعيف... أنا موجود أبداً على حافة الانتحار.

أين الديك؟ سأل الأخير مخافتاً، والناس من حوله قد تحولوا عنه بعد أن شد من أزر نفسه ووقف على قائمتيه. كانت رسالة بودلير إلى أمه تلوح أمام الأخير فتتطاير من هذه الجهة في السفينة إلى تلك. طلب القبطان من الأخير أن يهدئ من روعه وسأله أن يطمئن، مؤكداً له أن بروست لا تحوي أي ديك. ثاب الأخير إلى بعض من رشده، وجعل يفأفئ باعتذارات كثيرة يتوجه بها إلى القبطان وغيره.

تجنب الصبي صوت الديك للحظات. تجنب أن الديك هنا ووافق القبطان أن الأمر لا يتعدى أن يكون أزمة بسيطة ولن تلبث أن تزول. شاق على الركاب منظر الأخير وما يلم بهذا الشاب من اضطراب، فعمل بعضهم على مواساته وآخرون أخفوا تندراتهم إن بهذا الشاب مسًّا أو شيئاً من هذا القبيل.

أشاح الأخير بوجهه عن كل أحد وقد لفه الخجل، وعمل على مزاحمة بعضهم كي يعجل بالرحيل. لكن الديك...

أعتقد أنك تحبينني بجنون بقلب أعمى. آه يا أمي العزيزة الصغيرة! مقدّر لنا أن نحب بعضنا بعضاً، أن نعيش الواحد للآخر... أن ننهي حياتنا على أشرف صورة وأعذب صورة.

كان بودلير هذه المرة بغاية الجدية وبغاية الحنان. كان جميلاً جداً، توسم فيه الأخير خلاصاً وابتدره خلسة كراحة بال.

في ملاطفات شعركِ أستعيد تباريح الساعات الطوال التي قضيتها على أريكة في قمرة سفينة جميلة وقد هدهدها التأرجح الرهيف.

تفصّد جبين الأخير بالعرق وكان قد صار خارج السفينة عندما رأى إلى قفص متدل بواسطة ونش وبداخله ذلك الذي يدعى عبد الله. كان عبد الله داخل القفص تدل ملامحه على ما يشبه الرغبة بالموت. كان يصيح داخل القفص أنا لست إرهابياً. كان الرجل في القفص كأنه حيوان في طور التدجين... كان كأنه! بينما بودلير...

شخص الأخير من مكانه على رصيف المرفأ في القفص المعلق للحظات، وكان صياح الديك لا يزال يطن في أذنيه.

دعيني أشد بنواجذي على خصلات شعرك السوداء. عندما أعضعض شعرك المتموج الهائج يخيل إلي أنتي ألتهم الذكريات.

غادر الأخير المرفأ إلى جهة مجهولة، وكان آخر ما شد بصره في هذا المكان الجديد عبد الله في القفص وقفصاً آخر يحوي عدداً من التوابيت الأنيقة وبودلير... سنقتل بعضنا في نهاية المطاف.

على الجانب الآخر من السياج بين العليق ونباتات الوبر الشائك، ثمة طفل قذر هزيل داكن منبوذ.
على الجانب الآخر من السياج بين العليق ونباتات الوبر الشائك، ثمة طفل جميل.

76

استفاق الأخير من الغيبوبة التي ألمت به، ورأى إلى نفسه محاطاً برجال شرطة وممرضين وممرضات. أخبره أحد الشرطيين أنه وُجد فاقداً الوعي في إحدى زوايا المرفأ، فتم نقله إلى هذا المركز الصحي، وبالمعاينة الطبية تبين أن الإغماء حصل نتيجة الإرهاق المتأتي عن ركوب البحر. لكنك الآن بخير وتستطيع المغادرة ساعة تشاء كما قال له شرطي آخر.

أعادوا للأخير أوراقه الرسمية بعد التأكد من صحتها بالإضافة إلى أوراق أخرى، وثمة شرطي ناول الأخير الدمى الخشبية المتداخلة في بعضها البعض وكان في قسماته ما ينمّ عن استغراب يتاخم حدود الاستهبال. شكر الأخير بعبارات متلعثمة اهتمام هؤلاء الناس به وهمّ بالانصراف، بيد أن أحد الشرطيين استوقف الأخير عند مدخل المركز الصحي وناوله قصاصة ورق قائلاً له إن الرجل السقيم الذي أرشدنا إلى مكان سقوطك مغشياً قال إن هذه الورقة تعود إليك.

أمي العزيزة، ترانا سنرى بعضنا بعضاً في يوم من الأيام؟!

كان الأخير يسير على رصيف عريض محاولاً كبت كلمات بودلير المتسللة عنوة إلى أذنيه.

أقدم عمري لقاء بضعة أيام بقربكِ...

صار يحث الخطى بخطى أسرع وقد زُيّن له أن السير بسرعة سينقذه مما يلم به من بودلير مجرم.

أنتِ الكائن الوحيد الذي تعلقت به حياتي...

أسلم الأخير نفسه لصوت بودلير كما يترامى إليه هذا الصوت عبر قصاصة الورق. لكنه كان في سيره على عجلة كمن يستقصي في تسارع خطاه سرعة التخلص من هذا الصوت.

ثمانية أيام، ثلاثة أيام، بضع ساعات يا أمي.

كان الأخير يقرأ القصاصة بعد خروجه من المركز الطبي متوجهاً لا يدري إلى أين.

أنتِ تعتقدين أنني أكذب أو أبالغ عندما أتحدث عن يأسي وعن هلعي من الحياة.

لم يكن الأخير يدري أين صار في جريه لما همس بودلير بكلام حول اليأس والهلع. تمثل الأخير بودلير في جريه المبعثر كجرس إنذار. كان بودلير عبر قصاصة الورق بين يدي الأخير كأنه ديك مذبوح يصيح.

لن أقول لك وداعاً لأنني آمل أن أراك من جديد يا أمي.

جعلك الأخير الرسالة ودسها في جيبه، وذرع الرصيف بخطى سريعة لا يدري إلى أين. صار يسير ويسير مغضاً الطرف عما يتناهبه من ضجيج. كان الأخير في الشارع كأنه ظل، وثمة همس من الخلف كان يخترق أذنيه. صار الهمس يلح على الأخير أكثر، فيندفع بساقيه يسابق الريح كأنه يتحرى التخلص من هذا الهمس المذبوح.

أنا أعلم يا أمي أن رسالتي ستودي بكِ إلى الآلام...

كان الأخير ينظر إلى كفيه الخاليين من رسالة بودلير ويركض.

آه يا أمي الحزينة، جربي أن تقرأيني بانتباه، جربي أن تفهميني كثيراً...

جعل الأخير يضرب الهواء خبط عشواء بيديه الاثنتين المكبلتين بدمى وأوراق كثيرة، بحيث تبدى لبعض المارة أنهم بحضرة فنان أدائي يؤدي دوره بامتياز، وآخرون رأوا في الأخير أبلهاً. ثمة من صفق للأخير إعجاباً وثمة من هزئ منه وضحك عليه.

أنا أحبك يا أمي. بودلير.

تسمر الأخير في مكانه وجعل يصرخ في وجه الفراغ: ماذا تريد مني؟ ماذا تريد مني؟! ثم نزع قصاصة الورق من جيبه وجعل يمزقها كالمجنون.

عربات موتى غابرة

تتقاطر الهوينا في روحكَ.

فليغرس القلق في جمجمتك المطأطأة بذل

رايته السوداء.

ركض الأخير صوب بودلير وجعل يهشه كأنه ذباب. تناثر بودلير بين يدي الأخير والفراغ. تلاشى عن ناظري الصبي وهو يتمتم: الأخير، الأخير... الأخير، الأخير...

فزع الأخير من نظرات الناس المحدقة فيه، تفاجأ أن الكل شاخص ينظر إليه نظرات فاغرة وثمة وشوشات. جعل يتناءى عن الناس ببطء أصفر، ثم ولاهم الظهر وطفق يعدو، الأخير... الأخير.

77

قصة الرجل الذي فشل في أن يكون شاعراً

أخبرني أبي من تحت التراب أن القبيلة تقيأت الشاعر بعد أن التهمته بأيام. أخبرني أبي الميت أبداً أن جوف القبيلة احمرّ، وذرفت الدم بدل الدمع وانزوت في بقعة سوداء. لم يحدد أبي في قبره الحالك فترة انزواء القبيلة تتقيأ. كلمني فقط أن رجال القبيلة شعروا بنار تلتهم الأحشاء وبدمع أحمر أغشاهم الأبصار. قال أبي: إن الرجال انزووا لأيام كأنهم ليسوا رجالاً أشداء، إنما رجال تقيؤ ودموع. راح أبي يقص عليّ أخبار القبيلة كأنه شاهد عيان لمصائب هذه القبيلة الملعونة ولما وقع عليها من لعنات جراء التهام الشاعر الحزين. كان متيقناً في قبره من كل حرف ينبسه حتى إنه سألني تدوين هذه الذكريات. فكرتُ يوم الديدان الأول أن بأبي مس جنون جراء ما يعبث بجسده من دود أبيض، لكن إلحاح أبي عليّ حثني على الإصغاء إليه بصمت وتدوين قوله حول الرجل الذي قرر أن يكون شاعراً ففشل.

أخبرني أبي، وكان قد مرت على موته شهور، أن رجال القبيلة ونساءها اقتعدوا الأرض بظل شجرة ضخمة جداً تسمى ذات أنواط ينتدبون حظهم العاثر أن الرجل في أجوافهم تحول إلى هياج نار. أخبرني أبي أن الناس يومذاك كانوا في لجلجة السؤال كأنهم سرب من الذباب الطنان لا أحد يعي سؤال الآخر ولا أحد يعين أحداً بنعمة جواب. قال أبي من تحت التراب إن ناس القبيلة جنوا وصاروا كأنهم متون ضياع.

لم أجرؤ، وقد همّ بي أبي من كل حدب وصوب، على الاستفسار يوماً أو طلب المزيد. قال لي: انصت بصمت، ودوّنْ أن ناس الالتهام عافوا نار أحشائهم لأن الشاعر كان يقضّ بكل لحظة تجاويف هذه الأحشاء. تقول المرويات نقلاً عن أبي الميت إن بعض أشداء القبيلة ممن لم تغشاهم الأبصار وعدوا الآخرين بالخلاص، فركبوا رياح الجنوب خيولاً وراحوا يجوبون فيافي الصحراء علّهم يتطرقون إلى قول جن حكيم يكون به خلاص الناس. لكن الريح، قال أبي، أرخت أعنّتها وبدت كالسائبة لا تدري من جهة الصحراء أمراً.

أخبرني أبي الميت أبداً أن الشاعر في جوف القبيلة تحول يوماً إلى قيظ شديد، ما دفع بشيوخ القبيلة إلى سؤال السماء المطر. لكن السماء يومذاك تبدّت كأنها صحراء زرقاء. تلاشى أمل الناس بما يلهم الشاعر في أجوافهم السكون، وغاصوا بصمت في لجة الشؤم.

أخبرني أبي في قبره الحالك أن الناس وقد استبد بهم الهلاك، سألوا الغراب سرعة السواد، لكن الغراب، قال أبي، باين خيام القبيلة إلا من تقمم هنا وتقمم هناك. ابتدر الغراب نفسه سيد ساحات القبيلة وفلواتها، وكان كأنه في سمائها أبد الخراب. كان الغراب في سماء قبيلة الشاعر موتاً متدرجاً، موتاً مؤجلاً آناً بعد آن. كان الغراب في سماء هؤلاء الناس كأنه سراب الموت المستحيل.

أخبرني أبي، وكان التراب فوق قبره قد صار إلى صخر أصم، أن القبيلة استقبلت يوماً شيخاً ضريراً يقال إنه يدعى الوكر. لم يكن هذا الوكر يدري من أمر الشاعر خبراً. لم يكن أدرى بحال القبيلة من أي رجل مجهول. شاق على الوكر أن البلايا قد همّت بناس هذه الخيام وإبلها، وشاق

عليه كيف صار الأسياد هنا إلى خرق تتأبط الفيء. عاب الوكر على الرجال أنهم لم يستطيلوا ظل النخل فيقاطعون الشمس بالظلال، وعاب عليهم قعودهم عن احتفار بئر. ظل النخيل بيت البرد، قال الوكر للأسياد، وماء البئر قبر الظمأ، كلمهم الضرير بلهجة الحكيم.

استرشد الناس في كلام الوكر الخلاص، وابتنوا في أذهانهم أن أرواح الأسلاف أرشدت الوكر إلى هنا كي ينجدنا من جمر الشاعر المحموم. ذات فجر، خرج الوكر من خيمته وكان يدمدم بسحر قديم. كان الوكر، كما أخبرني أبي في قبره الحالك، يسير وحيداً وفي يده عصاه ومع كل خطو يلهج بزفرات كأنها فحيح. ابتعد الوكر عن متون القبيلة أشواطاً، وصار يدق الأرض بعصاه ويتمتم كأنه يوشوش الماء. دق الوكر حتى انتصبت الشمس في قبة السماء وكل ناس القبيلة حوله يتلون صلاة الأسلاف. دق الوكر ثم دق، وكان يوشوش قعر بئر كي يهبه سيل الماء.

أخبرني أبي بصوته المتهدج، وكان الحور حول قبره قد صار إلى قامات، أن بئر الوكر تدفق ليس بماء يبرد القلوب، إنما تدفق بماء يغلي ثم بدماء. رجمت نساء القبيلة الوكر، وجرجره الأولاد في الفلوات، ويقال إن غلمان القبيلة رموا به في بئر الدماء.

طار صواب ناس القبيلة، واستعْدوا بعضهم البعض، وثمة من وُجد مقتولاً أو مرجوماً وثمة من تدثر الرحيل وغاب. انقطع ناس القبيلة كل عن الآخر شهوراً ومن بعدها شهور، حتى ملّ واحدهم الصمت. نعم، أخبرني أبي الميت أبداً أن الصمت ران شهوراً في سماء القبيلة وفلواتها إلا من نعيق البوم ونباح الكلاب.

أخبرني أبي، وكان الدود ينهش آخر قطعة من كبده الحزين، أن أحد الرجال الأعزاء من ناس القبيلة المحمومة دعا الناس إلى التعقل وجمع أسباب التخلص من النار التي تلتهم أجوافنا، ولمّ شمل رغباتنا في العيش بأمان. نصت الناس إلى كلام العزيز، وقد وُفق في تهدئة الخواطر على الرغم من النار.

قال العزيز وقد جن الليل عليه أنه رأى إلى أحدهم يخاطبه سراً في الفلوات. قال العزيز كما أخبرني أبي الدود، إن ثمة من ناداه كي يتبعه إلى مكان مندثر حيث أفشى له هناك بسر الخلاص من لعنة النار. تنفست القبيلة الصعداء على وقع كلام العزيز، حتى الأطفال رأوا في العزيز خلاصاً.

قال العزيز لجمهرة الناس: لم يكن من تبعته من جنس البشر، إنما كان جناً بهيئة تتراوح بين الذكور والإناث. كلمني أو كلمتني، قال العزيز نقلاً عن الجن الغريب، إن خلاص القبيلة من لعنة الشاعر يكون بأن نضحي بامرأة تحمل في جوفها جنيناً في شهره الأخير. فغرت أفواه القبيلة وأطلقت آهاً واحدة رددت أصداءها الصحراء. نعم نعم، قال العزيز، نحن بحاجة لأن نضحي بإحدى حبالى القبيلة عند أول انبلاج فجر كما أخبرني أو أخبرتني تلك الجن.

تشاور ناس القبيلة فيما جاد به العزيز من أضحية ومن خلاص. ساورت بعض الناس الشكوك، وبعضهم رأى أن نلبي نصيحة الجن. امتقعت وجوه الحبالى بمد من الخوف الجارف، وصارت كل واحدة تكذب في عمر جنينها المسكين. صارت حبالى القبيلة كأنهن عذراوات الهياكل المقدسة إلا واحدة ألزمت نفسها بصمت مريب بانتظار صدور القرار.

قر قرار القبيلة أخيراً على أن تلك الحبلى التي بطنها يشبه الجبل هي في الشهر الأخير من عمر الحبل. أقنعت مسنات القبيلة الرجال أن هذه الحبلى هي مبتغى جن العزيز، وثمة مسنات أقسمن أنهن يرين إلى بطنها الجبل منذ أن كن يافعات. استجاب الأسياد إلى ذكريات مسنات القبيلة وفكوا رباط خيمة الحبلى صاحبة البطن الكبير وأعلموها أنه عند الفجر سيصار إلى ذبحها أمام كل ناس القبيلة للتخلص من شر الشاعر الذي يحفر فيهم النار.

لم تنبس حبلى الشهر الأخير بنأمة حرف. لم تعترض، لم تخبر أسياد القبيلة أن حكم المسنات كذب. نأت بنفسها عن أي حجاج وارتضت الوثاق الذي شدها إلى عمود في قلب القبيلة بانتظار أول انبلاج الفجر.

اجتمع ناس القبيلة على مرأى من صاحبة القيد، وكان بينهم ما يشبه العيد. استيقظت القبائل الأخرى على أصوات زغاريد نساء قبيلة النار وعلى أصوات الرجال يتهللون. عمّ أجواء القبيلة الفرح بالخلاص الآتي مع الفجر القريب.

لم تبك الحبلى المقيدة، لم تحاول فك القيد. كانت أشبه بالعمود الذي قد شُدت إليه وكانت نظراتها جامدة في حدقتيها بانتظار الخلاص.

أخبرني أبي سيد الدود من تحت قبره الصغير أن ناس القبيلة تاهوا غلواء انتظار الفجر. قال أبي، وكان الدود قد أخذ ينهش قلبه الفقير، إن الفجر ضاع تلك الليلة ولم يتأت له أن يكون في سماء قبيلة القيء.

أخبرني أبي، وكان مصراً أن أدوّن، أن الفجر ضلّ طريق القبيلة التي ظلت تنتظر الفجر وتسأل النجوم رأفة المغيب.

أسقط في يد ناس القبيلة وقد خان الفجر ليلهم واستكان إلى جورة الليل. أين كان الفجر ليلة الاحتفال تلك؟ سألت أبي. لكن أبي، وقد تهيأ أن لا يلهمني الجواب، أردف قائلاً: تحرى سحرة القبيلة الفجر في بقاع من القبيلة لا تقطنها إلا الضباع. تحرى الجميع الفجر هناك في فلوات لا تمت إلى القبيلة بصلة. لكن الفجر، قال أبي، تاه تلك الليلة عن وثاق الحبلى المشدود، وانبرى داشراً لا أحد يعلم أين.

جن الليل في مطارح القبيلة جهاراً، مستمتعاً أن الشمس غياب. أخبرني أبي، وكان ذلك يوم صفعتني معلمة التاريخ، أن أحد شيوخ القبيلة اقترح ذبح حبلى العمود بالرغم من فرار الفجر. لكن أحدهم أكثر حكمة سأل الجميع التوجه إلى منزل العزيز واستفساره أمر بلع الليل لفجر الانتظار.

انطلق موكب القبيلة ساخطاً إلى مطرح العزيز الذي لم يلب نداء القبيلة بالخروج.

يا العزيز، يا العزيز... يا العزيز يا العزيز!! لكن العزيز ومن داخل مسكنه الفسيح أبى إلا الستار.

أخبرني أبي والدود صار في جوفه الجوف، أن القبيلة نزعت خيمة العزيز عنوة، لكن العزيز ما كان هناك. بهتت وجوه القوم وامتقعت وقد طالعها العزيز تمثالاً. نعم، قال أبي، كان العزيز في داخل ركنه تمثالاً منتصباً على قائمتيه فاغراً فاه كالمرعوب.

اسودت وجوه الرجال واشتد القيظ في أحشائهم وقد رأوا إلى العزيز تمثال رخام.

أخبرني أبي صاحب الموت أن رخام العزيز لم يكن رخاماً. قال، وكان في قوله صريحاً، إن أحد الأولاد قفز من حضن أمه وركض صوب التمثال وجعل يلحسه كأنه ماء.

جارت المرأة لحس ابنها، فهرعت تلحس العزيز بدورها متوسلة فيه رغبة الارتواء. لحقتها أخرى ثم أخرى وبعدها الرجال، كل الرجال، ليكتشف الناس أن في حلوقهم حاجة ماسة إلى الماء.

أخبرني أبي صاحب التراب أن تمثال العزيز الذي تبدى للقبيلة رخاماً يقطر الماء لم يكن في الحقيقة إلا هيكلاً من الملح. قال أبي من تحت التراب مقهقهاً إن القوم الأشقياء التهموا العزيز عن بكرة أبيه ظناً منهم أنه ماء. لكن الملح، أردف أبي من تحت التراب باكياً، كان هو قامة التمثال.

78

ضقت ذرعاً بما قصه أبي عليّ بشأن مصير قبيلة الرجل الذي قرر أن يكون شاعراً ففشل. ضقت ذرعاً بأن يكون الماء ملح وأن يكون بغراب الموت خبث تأجيل الموت مرات بعد مرات.

قلت لأبي وقد تاه عن لسانه لحظة إن الموت كان أجدى بهؤلاء القوم، لكن أبي وقد تحلل إلى بقية من جثة اهتراء، تولته الدهشة أنني اقترحت هذا الاقتراح. أحسبه من تحت التراب فغر فاه منددا بفكرتي أو سعيداً لست أدري، فملامح الموتى لا تند إلا عن نفس القسمات.

جاريت أبي في صمته إلى حين من الوقت، لكن الصمت ألزمني اللجاجة وأودى بي إلى موج الافتراضات. فكرت كثيراً في حال ناس قبيلة الشاعر وقد مكر بهم الفجر. رسمت في ذهني قسماتهم التي تبدت أمام بصيرتي كأنها آخر صلاة.

ضقت ذرعاً بأبي الصامت، وناس القبيلة في ذهني خطة وكر وبؤس عزيز. عقدت العزم ذات يوم أن أنزع أبي من تحت التراب وأقوم بفضحه على مرأى من الدود. لكن الشاعر، شاعر القبيلة، طالعني فجأة على لسان أبي يقول: لن تسمع صوت أبيك من اليوم فصاعداً، لقد صار إلى تراب.

تراب أبي المجبول أبداً برقع الذكريات خلص إلى أن يصير طيناً حُفرت فيه عبارة واحدة هي أقرب إلى الاستجداء: أرجوكَ يا ابن صلبي، قصّ عليّ خبر الشاعر وقد تقيأته قبيلة الملح.

نعم، حفر أبي وصيته الأخيرة في طينه المهلهل منتظراً مني الجواب. ألح طين أبي عليّ أن أقص خبر الشاعر وقد انتزعه ملح العزيز من أحشاء السادة والفقراء. تشرذمت عند طين أبي وتكاثفت عليّ حظوظ الحيرة والاضطراب. تولتني رغبة فتّ الطين، لكنني حدستُ أن الطين معجون ذاكرتي، فمن أين لي بفت الذاكرة حتى لو طحنت الطين وذررته كأنه محض غبار؟!

نعم، كلمت نفسي أن لطين أبي الحق أن يَقرأ الشاعر بعيوني. قلت لنفسي ذات ليل إن طين أبي المتفسخ سيكون مساحة قصي الصريح. عقدت العزم على أن أتلو كل يوم سطور شاعر القبيلة الحزين على مسامع طين أبي.

نعم، عاهدت نفسي على أن لا أُسلم خبر الشاعر للنسيان ووطنت مشاعري رغبة القول في الشاعر كل يوم. كان ذلك يوم تسلقي لأحد الجدران لما أخبرت رجل الطين أن الشاعر بعد أن تقيأته القبيلة تحول إلى سارق ورود.

كان الشاعر، قلت لأبي، يسرق الورد كل يوم ويودعه مخابئ سرية ويودع بعضه الفتيات الجميلات. أخبرت رجل الطين المتفسخ أن الشاعر وبعد أن لفظته القبيلة، اتخذ البقر خلاناً له وصار ينادي إحدى البقرات يا أمي. نعم، قلت لأبي أنني شاهدت بأم العين الشاعر يبكي عند أفياء البقر ويتنهنه ويحتضن بعضها كأنها مراسه الأخير.

صدق أبي الطين كلامي، وصار يحفر كل يوم في طينه الصلد أن أخبرني يا ولدي بالمزيد. فزعت صراحتي في حضرة الطين، وعنّ لي ذات فجر أن أتوارى عن خبر الشاعر. لكن أبي ضاق

بفزعي وحفر في جثته العتيقة إن خبر شاعر القبيلة هو سلواه الوحيد في عجقة الطين. أخذتني الشفقة على الطين الذي أحسب أن فسوخه آذان تصيخ وصرت أقص من جديد.

قصصت على أبي أن إحداهن صفعتْ الشاعر ورفضت أن تأخذ ورده. قصصت عليه في ليل طينه أن إحداهن صفعت الشاعر بخبر جند أتوا من مكان بعيد وامبراطور ضخم قوي الشكيمة أهان الكبار والصغار. أخبرت أبي أن الشاعر ومنذ تلك الصفعة المدوية، صار يكره كل معلمات التاريخ ويرى فيهن مرايا حزينة.

لا ينام أبي البتة، وأنا مثله لا أنام. الطين عين الذكريات الجاحظة تحدق بي كي أدون أن الشاعر كذا وكذا. نعم، قلت لأبي إن الشاعر صار يستكين كل يوم إلى وحشة مقفرة فلا يرى إلا إلى أسنان تتساقط فوق أسنان. استحوذ خبر تساقط أسنان الشاعر على فسوخ أبي، فمضى يستحثني كل يوم على تزويده بخبر الأسنان.

قلت لأبي: لم تكن أسنان الشاعر أضغاث أحلام أو كوابيس. قلت له إن أسنانه كانت تتهاوى في الليل فيعود ليزرعها في فمه مع أول طلوع الشمس. نعم، كلمت رجل الطين كثيراً على أسنان شاعر القبيلة وأخبرته عنها مرويات ومرويات.

ولا يوم انفرك أبي عن همسي الكثير، بل أحسبه توسم فيّ كتاباً يقرأه كل يوم قبل أن ينام. نعم، صرت كتاب أبي المفتوح يقلّب صفحاته كل يوم ويقرأ فيه أن الشاعر لعق يوماً انفراج فخذي إحدى الفتيات فوق كومة من التبن والشعير. أنا كتاب أبي الفضفاض أقرأ عليه بهمس الصوت أن الشاعر قفز يوماً عن السطح ظناً منه أنه يطير. أخبرتُ أبي في طينه أن ناس الشاعر صاروا يتندرون عليه ويرون في قوله وسلوكه تارة رعونة وتارة جنوناً.

تهيّبت يوماً شقوق أبي في قبره العفن، وانصرفت عنه إلى حين. لكن أبي، وعبر الغبار خاطرني ألاّ أكف عن خبر الرجل الذي قرر أن يكون شاعراً ففشل. نعم، حضني الطين على قول الشاعر كل يوم بكل يوم. أقنعني أن رسم الشاعر ليس ترفاً، إنه مصير. حفر أبي في طينه وحفر في سمائي الزرقاء أن الكف عن قص الشاعر يعني نهاية الطريق. لم أفهم حفريات أبي فوق جسده الميت أبداً، لم أع من أمر قوله بنهاية الطريق شيئاً. لكنني، وقد كابدت شقوقه، رأيتني ذات فجر أعود إليه أخبره أن الشاعر صار محل شرود وهلَس.

خافتّ الصوت مودِعاً أبي سر سماع الشاعر لأصوات ليس لها بالحقيقة وجود. ظننتني عصياً على البوح بأمر هلس الشاعر وما يلم بمسامعه من قيل وقال. ظننتني محل ثقة الشاعر أن لا أُطلع أحداً على ما يعتوره من قول غريب. لكن أبي، أبي الطين، حال دون حفظ السر، حال دون الكتم الشديد.

ذات نهار، الشمس فيه قد اندحشت بين قطن الغيم الداكن كأنها قط عجوز يموء، قلت لأبي أن صوتاً تناهى إلى مسامع الشاعر يخبره أن البكاء كلب ويخبره أن البكاء ملاك. قلت لرجل الطين الماكث هناك عند القبور إن شاعر القبيلة المسكين ألمت به القشعريرة على وقع صوت يناديه أن إحداهن عارية جداً كأنها أحد كفيها، عارية جداً مثل القمح!!

فلشتُ الشاعر أمام أبي وصرت في حضرة طينه كأنني بوق أسرار الشاعر، كأنني صدى حكاياه، حتى إنني وفي غمرة قصي المنهنه، أخبرت أبي أن الشاعر قرر يوماً أن يصير إلى قط يموء. نعم، قلت لأبي بعد تردد إن الشاعر نهض ذات مساء من تحت لحافه وجعل يجاري المطر بركضه

الرشيق فوق الصفيح. أخبرته أن الشاعر صار يموء تحت لمبات البلدية المتذبذبة الضوء، وسردتُ له مواء الشاعر بعد منتصف الليل وخربشة أظافره مع أول طلوع الفجر.

لم يعلق الطين يوماً على أخبار الشاعر الأخير، لم يحاول اقتفاء أثر أو علامة تعجب أو علامة استفهام. كان تحت شفاهي المتمتمة كأنه على يقين أنني أقص الخبر بلا زيادة أو نقصان. لطالما ساءلت نفسي المجعلكة كيف تأتت لهذا الطين هذه القدرة على السماع؟ نعم، كيف تأتت لأبي الميت هذه القدرة على الإصغاء، على محض الأذن؟ فأنا كنتُ أقص وأقصُّ ولا أكتفي من القص، بينما هو راقد هناك عند شقوق الطين يرهف فلا يتعب ولا يقع في لجة الضجر.

أخبرني يوماً بلغة الشقوق أن السرد حاجة الموتى. قال لي احك واحك، إن حكيك يا ابن صلبي هو نَفَسي الأخير. مازحت أبي ذات يوم بقولي له إني قررت الرحيل، فنقش في طينه تواً أن غباره فوق رأسي ولا أستطيع عنه انفكاكاً أنى توجهت وأنى ارتحلت.

أرخى خبر الشاعر بظلاله عليّ ذات ليل، فاستودعت نفسي فسحة الطين أخبر أبي كيف أن الشاعر تاه يوماً عن أهله على وقع صوت يناديه بكلمات الضبع وكلمات الشيطان. قلت للطين إن الشاعر حاول الفرار لكن الصوت ما انفك يخترق أذنيه بخبريات عن الشيطان الذي يتوج رؤوس الناس بأزهار الخشخاش الجميلة. تلمست في أبي الحسرة على الشاعر الذي ضاق ذرعاً بأشباحه، وقد زادت حسرة أبي يوم أخبرته كيف تمكن أحد الأشباح من تخلل نوم الشاعر وكيف حاك كوابيس الساحرات والعفاريت.

رأفة بأبي، وقد تجعلكت الشقوق في طينه كأنها جبين مقطّب، توقفت عن القص. لكن الطين استغل صمتي وحفر في جبينه العريض أن أتمتم شيئاً ما عن الفرح. لكن الفرح يا أبي مجّ عالم الشاعر الصغير الذي أوقفه أحدهم بغتة وسأله أن يهيئ لنفسه منصة الإعدام على جدار الغرفة. نعم يا أبي، فالأشباح ارتقت في أيام الشاعر ولياليه لتصير الصحبة الوحيدة. سامرته الأشباح كل يوم وبعضها أخبرته أن أشلاءه سوف تتطاير في الهواء كأنها براعم صغيرة.

لم يقنط أبي من خبر أشباح الشاعر الأخير، ولم يعرض عن همسي له. توجست أن به رغبة أن يشارك الشاعر في الأشباح والشياطين، لكنني رجوته أن يكف عن سؤال الأشباح الحضور. قلت لأبي إنني أخاف الأشباح. حذرت أبي كي يترك الشاعر وحيداً مع شبح آخر يقرأ عليه أخبار السماء التي ابيضت من الغضب.

أرجوك يا أبي الطين، ألا تفتح قمقم الأشباح. رجوت أبي فرقة الشبح، ولتزجيته عن أشباح الشاعر جعلتُ أسرد للطين أسماء الشاعر الكثيرة.

قلت لأبي، وكان لون الغياب أحمر، إن الناس تحيرت أسماء الشاعر الكثيرة. تارة الزرع والحصاد، وتارة الخبز والطحين أو طائرات ورقية. قلت له إن أسماء الشاعر تلونت مرة بلون حرب ضروس ومرة بهر نطق باسم الشاعر فجأة، ومرة بخرِف قال إن الشاعر الأخير أطلق اسمه على نفسه يوم كان في القماط.

نغّص أبي سردي الرقراق حول أسماء الشاعر إذ عاد فنقش في طينه سؤال أخبار الأشباح. حشدتُ في خاطري الذكريات وزحتُ بأبي عن قص الأشباح وكلمته يوماً على صابون أم الشاعر وعلى بيض دجاجاتها وعلى ديكها وأشياء من هذ القبيل.

احمرّت حدقات شقوق الطين... فرأيتني أربت فوق أبي أن للشاعر أيضاً أماً. نعم يا أبي الميت، الشعراء أيضاً يملكون الأمهات. لم أتوقف كثيراً عند أم الشاعر الأخير، فالطين صار عصي الطاعة أمام القدرة على الحفر، لكنني استلهمتُ أن أبي يسألني رحلة الشاعر التالية مع عالم الأشباح.

صارت النقوش على جثة أبي إشارات تحتاج إلى تمحيص كي يمكن الوقوف عليها. تحولت نقوشه إلى جداريات من الرموز. سألت أبي الانصراف عنه ليوم أو ربما يومين بغية فكفكة ما يطرح من أسئلة حول الشاعر الأخير. سألته الانصراف بكل أدب فجاراني بزوبعة غبار صغيرة أن لا تطيل الرحيل.

مرت شمس ثم شمس، وبعدها شمس لما رجعتُ إلى قبر أبي الحالك. كان لا يزال هناك يخربش فوق جثته علامات السؤال عن الشاعر. قلت لأبي إن أحد الأشباح الأشقياء أدى بالشاعر إلى القلق بعد أن هتف له إن الأرض زرقاء كالبرتقالة.

أشباح كثيرة ألمت بالشاعر يا أبي الطين، وأحد هذه الأشباح الضخمة حوّل حياة شاعرك الأخير إلى نأمة مديدة جداً من الصمت المدوي. تحرك الطين، تزتزح من هنا ومن هناك وكأني به يتحرى خبر هذا الشبح الذي جرّ الشاعر المسكين إلى ديوان السكون الصاخب. لن أسمي هذا الشبح يا أبي، فأنا لا أعرف اسمه، لكنه شبح شديد السطوة يعلم الأسرار التي إذا تفشت يوماً سترهق الأحياء على الطرقات وترهق الأموات في القبور.

تزحزح الطين أكثر وأكثر وكاد أن ينطق بحروف، لكنه عاد فتفسخ أن أخبرني المزيد، أخبرني المزيد! فسوخ أبي الطين اتسعت، وصارت كأنها جرار أشباح. أخبرته أن ثمة شبحاً شديد الصرامة بشّر الشاعر بجثث تورِق وبأرض يباب.

أخبرت أبي أن شبح اليباب هذا أدى بالشاعر إلى مساحات من الجرذان التي تجرجر بطونها على العشب الموحل، وجعله يرى إلى خفافيش بوجوه أطفال تطير. وخوفاً من أن يعمل النسيان يده فيّ رحتُ أقص على أبي أخبار هذا الشبح القوي الذي نكّل بالشاعر المسكين.

نعم يا أبي الطين، عمل هذا الشبح الفخم بشاعرك الحزين تنكيلاً وقد أخذه من يده وجعله يرى بأم العين كيف أضاع الموتى عظامهم.

تاه الشاعر يا أبي عن يومياته مع هذا الشبح الجبار الذي أدى بشاعر العزلة إلى أن يرى الرعب في حفنة من تراب. نيسان يا أقسى الشهور، هكذا همس هذا الشبح في رأس الشاعر يوماً، فقفز مذعوراً ومازال يقفز حتى الآن.

لم أصدق أن النوم أخذ بمجامع أبي الطين أثناء حديثي عن شبح اليباب. نعم، فأنا رأيت إلى أبي بلا شقوق في طينه المسود. رأيت إليه أملس بلا خرائط أو رموز. أين رموزك يا أبي الميت أبداً؟ سألت أبي وطفقت أحثه أن يجيب، لكن الطين تحول في قاع القبر إلى ما يشبه الكف المنبسط الأملس المفصّد بالعرق. يا لعرق هذا الطين! غبت عن أبي شهوراً كنت إبانها أتنبأ بالآتي من شقوق. فأنا أدرى بأبي منه. أنا أعلم بسر أبي الذي مات ولن يستفيق. ما لبثت الشهور القليلة أن مرّتْ حتى طالعني غبار أبي في أحد شوارع المدينة يسألني التوجه إلى القبر. شلتُ نفسي من بين الشوارع وتوجهت إلى قبر أبي. كان أبي على عهدي به راقداً بطينه وقد مسح عنه العرق. كان

راقداً هناك يلهث كما بيّنت بعض الشقوق. جعلت أدير العبارة عند شقوق أبي الكثيرة ممنياً النفس أن يفيض شق ما بما يخالج أبي الميت من استفسارات حول الشاعر. أربكتني شقوق أبي المتداخلة والملتفة على بعضها البعض كأنها دهليز. حزرت أن بأبي انقباض قلب أو به انشغال بال. مكثت عند الطين المنقبض سحابة ليل علني أهتدي إلى ما يشغل بال هذا الطين، لكنني فشلت.

قررت الرحيل عن القبر، لكنني أمسكت عن هذا القرار ورأيتني أراعي جانب هذا الطين المهموم. رأيتني أستفسر شقوق الطين وأفضّ رسائله المتشابكة. شاقت عليّ خربشات أبي وشاق عليّ نسيم القبور، لكن خربشات أبي الأخيرة ألهمتني نصّ هذا الطين.

لا يا أبي، لا. لم يمض الشبح الأخير بشاعرك الحزين إلى الموت.

حسناً، أما وقد أنست في نفسي القدرة على قراءة أبي، ها أنذا أخبره أن الشاعر ما زال حياً يسعى وما زال عرضة للأشباح. أخبرت أبي وقد فهمت شقوقه الأخيرة كأنني أحد هذه الشقوق، أن الشاعر تجاوز صاحب اليباب وتابع خطاه في صحراء هؤلاء الأشباح. انفرجت أسارير أبي كما بينت بعض الخطوط، ونقش أن أكمل الحديث. اقتعدت أرض القبر الحالك أقص عليه أن مدينة الأشباح تشعبت داخل متون الشاعر الأخير. صار الشاعر يا أبي شرط الأشباح الأول. صارت الأشباح مرهونة فيه. كلمت أبي أن الشاعر كان يخوض معركة الأشباح فوق بقعة من الصفيح الملتهب. قلت له إن الصفيح كان أحمر والأشباح فوقه كانت تتقافز كأنها ترقص من شدة اللهب. كل الأشباح يا أبي كانت طائشة اللب تحيك في رأس شاعرك أن يفجر لهب الصفيح. نعم، وشوشت أبي خلسة أن أشباح الشاعر الشاب سألته سبل الموت السريع وقد أرهقها تقافزها المهلك. سكتُ هنيهة عند حضن الطين مستعيداً بعض الأنفاس، لكن الطين أنبني أن لا أركن إلى أي صمت إلى حين انتهائي من أخبار الرجل الذي قرر أن يكون شاعراً ففشل، ومع هذا، أراني أسميه الشاعر الأخير.

سلكت مسالك أبي الوعرة وقصصت عليه أن شبحاً شاحباً بارداً مغطى بالثلج والصقيع كلم الشاعر عن مكان كله ليل وعن عيون وكلام منمّق وعن سجون وقلاع وفئران اتشحت رداء الليل البهيم. أخبرت أبي أن شبحاً ينز الكلام نزاً هاتف الشاعر أنه رأى إلى موتى يرقدون في قبورهم بذعر. أخبرته عن شبح تخرج الحروف عبر اصطكاك أسنانه يقول للشاعر أن الملائكة رقدت، الرب رقد، الشتائم، الجبن، والآثام. أولاني أبي الظهر وقد استفضت في الكلام عن شبح الصقيع. لم يولني الظهر انزعاجاً أو ضعفاً أو شعوراً منه بالملل. كلا، إن أبي، وفي غمرة حديثي الحزين عن شبح القلاع المعتمة، شهق، نعم شهق أبي!! فأنا رأيت إلى شقوق الشهق ترتسم بوضوح عبر ملامح الطين.

زجرت نفسي وقد أوردت أبي الطين موارد الشهق والدمع المكبوت. عاقبت نفسي بأن عضضت لساني وحاولت قلع إحدى عيني. لكن أبي استمهل بحنان بقية بأس في خاطري وحفر في جثته الملساء أن لا ذنب لك يا ابن صلبي فيما يتناهبني من شقوق الشهق ودمع مكبوت.

سألت أبي سبل الدمع في عيون سكان القبور. كيف يتأتى للدمع المالح أن يسكن خدود الموتى، ويتسلل عبر شقوق الطين؟ نعم، حاولت استقصاء دروب الدمع لدى من تآكلهم الدود. لكن أبي رجل الطين الراقد هناك منذ حين أبى أن يمد ابنه بنقش صريح حول الدمع. نعم، حاولت صياغة

جواب الدمع لكني فشلت. وقعت في بحر من شواش النقوش التي أراد أبي عبرها إفهامي شأن الموتى وشأن الدموع. لم أفلح إلا قليلاً في فك طلاسم نقوش الدمع والموتى. لم أفلح...

رأيتني أشيح بوجهي عن مسام أبي المتعرجة وقد تخللتني قشعريرة رعب لها علاقة بدمع الأحياء. هببت من قرفصائي مذعوراً، واستجديت خارج قبر أبي أركض كالمجنون وقد ألمح عبر نقش ينم عن وضوح كثير... نعم، نعم، ألمح أبي عبر نقش مخيف أن دمع الموتى الرقراق... لست أدري، ألمح أبي عبر شقوق طينه القديم إلى أمور تتعلق بشفقة الموتى على الأحياء. ألمح إلى... كان الأمر بغاية الرعب**!!**

حاول أبي شدي وإعادتي إلى مكانه الطريح، لكن الرعب وقد أخذ بجماع نفسي حثني الهرب لست أدري إلى أين. عند آخر حدود المقبرة، بين الشواهد الرخامية المتفسخة، صحتُ بملء الصوت أن شبح الصقيع الشاحب بشّر الشاعر يا أبي إن الموت ليس هيكلاً محني القامة، إن الموت هو حيث نقف جميعاً. هكذا كلم شبح الصقيع الشاعر الفاشل يا أبي. هكذا كلمه قلت لأبي وأنا أطوي المسافات ركضاً بسروالي المخزوق عند الركبتين.

مالت الشمس إلى غياب، ومالت إلى غياب آخر وآخر وآخر وأنا بعد في نأي عن قبر أبي الفسيح. فمنذ حديث الدمع رأيتني حبيس بيتي أرقب عبر نافذة ضيقة انهمار المطر وتثاؤب القطط وعيون الناس. شغلني دمع الموتى الغزير وأجج فيّ رغبة هجر طين أبي وعدم الرجوع إلى هناك. لكن أبي عزيز عليّ، فمن أين لي بهجره وهو المسؤول عن قذفي في عالم الأحياء**؟!** من أين لي بهجره وهو صاحب الحظوة الكبرى بكوني واحد من الأحياء؟

تحازرت بشأن أبي الوحيد في قبره وقد طال غيابي عنه عدة شهور. وفي ليلة عمّني فيها الحنو على أبي الحزين رأيتني أسرق باقة من الورد الجميل وأستودع نفسي في قبره من جديد. كان لون الورد أبيض وأحمر وثمة ريحان كثير غرسته بين متون الورد. كان القمر في السماء عيناً سهرانة ونجوم كثيرة كانت هناك في السماء. لم يكن أبي غافياً لحظة وصول الورد إليه. كان وكما تبدى عبر الشقوق كأن به شوق إليّ. كان طينه متسامحاً معي، كان طيناً أبوياً إلى أقصى الحدود. ألقيت السلام على الطين ووزعت الورد من حوله حتى ليظنه المرء عريساً. أبي عريس القبر الأنيق، هكذا تخيلته وأنا أقبل طينه بصمت.

أخبرت أبي أنني سرقت له الورد، فارتسمت فوق شقوقه شفاه تنمّ عن نأمة ابتسام، ثم سألني عن أخبار الشاعر الأخير. لم تكن بي رغبة الكلام على الشاعر في هذه الليلة المقمرة، لكن أبي وعلى عهدي به منذ أن صار طيناً، ما كفّ عن استجلاء أخبار الشاعر كلما أتيت إلى هنا.

حسناً يا أبي الطين قلت له، وقد فشلت في الحيلولة دون أخبار الشاعر، سأكلمك في الشاعر كثيراً، سأقص عليك تفاصيله التي تشبه أخبار الغيم. زاغ بصر الطين عني كما أنبأتني بعض الشقوق وصار الطين تحت صدري يلهج عبر أحافيره الضيقة: المزيد... المزيد.

أخبرت أبي أن شاعر القبيلة الرجراج وقع في مكيدة شبح يجيد التكلم مع الرياح. أخبرت أبي أن شاعره المسكين اعترته الريبة وقد رأى إلى شبح يرفع إصبعه بوجه الموت إذا تجرأ هذا الأخير أن يمسّ بأنامله الباردة الذكريات المعلقة على الحائط. كنت أكلم أبي بهدوء أن ثمة شبحاً لطيفاً اعترى ليل الشاعر ونهاره، ودفع به إلى التعري والنوم تحت ضوء القمر. كان الشبح لطيفاً جداً يا أبي إلا من بعض الخبريات التي أرهقت الشاعر الحزين. نعم يا أبي، أرّق الشبح اللطيف الشاعر

بأحزان كثيرة زرعها في قلبه، بموت آخر يُثقل عليه. لم أسرد على مسامع أبي الطائش اللب تفاصيل الموت الثقيل كما أراه الشبح اللطيف للشاعر. لم أتوسع في رسم الموت كما لونه هذا الشبح أمام ناظري الأخير. اكتفيت بأن قلت له إن هذا الشبح اللطيف كان يملك من السحر ما يكفي لأن يرشد شاعرك يا أبي إلى راعي الهواء. نعم يا أبي الطين، فإلى حين تسلل هذا الشبح إلى أيام الشاعر ولياليه، لم يكن هذا الشاعر يعلم أن للهواء راعياً يملك القدرة على استدعاء أو كفّ الموت.

سرتْ في جسد الطين قشعريرة شقوق وأخاديد صغيرة وأنا أقص أخبار هذا الشبح اللطيف كما توالت على الأخير، أقصد على الشاعر الأخير.

79

من المحتمل تماماً أن شخصاً مثل بودلير كان يرى إلى الانتحار على أنه الفعل البطولي الأبرز الذي تتوخاه الجماهير البائسة في أزمنة المدن، لأن الانتحار حسب بودلير هو إنجاز الحداثة الوحيد في مجال العواطف. (؟التر بنيامين)

أجساد ممغنطة، أجساد زرقاء، أجساد دائرية، أجساد صفراء. أجساد بغاية البحر، أجساد متعددة الأبعاد، أجساد صفر اليدين، أجساد بغاية العراء وأجساد تموء. أجساد ديجيتالية، أجساد تشبه القباب، أجساد منزوعة الشعر، أجساد بشعر برتقالي. أجساد صوف، أجساد سجاد، أجساد لولبية، أجساد مستطيلة، أجساد مربعة وأجساد تموء. أجساد ورق، أجساد ميتافيزيقية، أجساد رمل، أجساد أنوف، أجساد هلع، أجساد اغتصاب، أجساد لحم، أجساد حديد محمى وأجساد تموء. أجساد صقيع، أجساد هلام، أجساد صمغ، أجساد ثفل، أجساد سماء، أجساد ماء وأجساد تموء. أجساد أسرّة، أجساد حوافٍ، أجساد مساحات، أجساد ضوء، أجساد عتمة، أجساد مستهل قرن، أجساد نهاية قرن وأجساد تموء. أجساد عابرة للقارات، أجساد شركات عملاقة، أجساد مستأجرة، أجساد مباعة، أجساد مرهونة وأجساد تموء. أجساد أساور، أجساد نفط، أجساد حرير، أجساد عرق وأجساد تموء. أجساد مشاع، أجساد حصر، أجساد أحرف، أجساد كلمات، أجساد خرق، أجساد خزف، أجساد صدأ وأجساد تموء. أجساد نعال، أجساد هزء، أجساد تسلية، أجساد مضغ، أجساد لمس، أجساد عض، أجساد أجساد وأجساد تموء. أجساد لواط، أجساد سحاق، أجساد تقزز، أجساد خيول، أجساد جنادب، أجساد ملوك وأجساد تموء. أجساد عبيد، أجساد دول، أجساد قضبان، أجساد هوليوود، أجساد صومال، أجساد حواسيب، أجساد أرقام عادية، أجساد ملونة، أجساد بالأبيض والأسود وأجساد تموء. أجساد أخيرة، أجساد أولى، أجساد مجاز، أجساد تاريخ وأجساد تموء. أجساد تعالٍ، أجساد هبوط، أجساد رقص، أجساد غناء، أجساد أسلاك وأجساد تموء. أجساد ريموت كونترول، أجساد قصب سكر، أجساد كلاب، أجساد أفاع، أجساد قربان مقدس، أجساد يمين، أجساد يسار وأجساد تموء. أجساد قطب واحد، أجساد قطبين أو أكثر وأجساد تموء. أجساد أميركا، أجساد متعددة الجنسيات، أجساد بلا جنسيات وأجساد تموء. أجساد توشيبا، أجساد هيتاشي، أجساد دول العالم الثالث وأجساد تموء. أجساد أيديولوجية، أجساد براغماتية، أجساد الطريق الثالث، أجساد النضال الوطني، أجساد قريدس، أجساد ولائم، أجساد أجنّة وأجساد تموء. أجساد أصفاد، أجساد كبت، أجساد سوق حرة، أجساد صحائف، أجساد أقلام رصاص، أجساد تبن أصفر، أجساد لسان أحمر وأجساد تموء. أجساد رد واين، أجساد ما بعد كولونيالية، أجساد ذات بعد واحد، أجساد أينشتاينية وأجساد تموء. أجساد شر، أجساد خير، أجساد سلالم خشبية، أجساد سلالم معدنية وأجساد تموء. أجساد استوائية، أجساد موز، أجساد مئة عام من العزلة، أجساد موسم الهجرة إلى الشمال، أجساد الطبل الصفيح وأجساد تموء. أجساد حضارة، أجساد تخلف، أجساد ثقوب، أجساد شفاه وأجساد تموء. أجساد ليبرالية، أجساد شيوعية، أجساد رأسمالية، أجساد سجن، أجساد طائرات نفاثة، أجساد أنفاق وأجساد تموء. أجساد أرداف، أجساد ترانسندنتالية، أجساد أمبيرية، أجساد أنثروبولوجية، أجساد تجارب وأجساد تموء. أجساد تشبه برج إيفيل، أجساد تشبه برج بابل، أجساد تشبه برج بيزا، أجساد تشبه برجاً محطماً، أجساد تشبه برج الثور، أجساد تشبه برج العقرب

وأجساد تموء. أجساد لا تشبه البرج، أجساد قائمة، أجساد منبسطة، أجساد خرائب وأجساد تموء. أجساد هوية، أجساد عبور، أجساد فلتان، أجساد ترحُّل، أجساد بدو وأجساد تموء. أجساد غابات، أجساد مدن، أجساد صحراء، أجساد نخيل، أجساد إبل، أجساد نبوية وأجساد تموء. أجساد تكساس، أجساد هيب هوب، أجساد تصلي وأجساد تموء. أجساد إغريقية، أجساد هوائية، أجساد آلهة، أجساد حداثة، أجساد ما بعد حداثة، أجساد فاشن تي ؟ـي وأجساد تموء. أجساد شعر، أجساد نثر، أجساد قصائد، أجساد مغلولة، أجساد طليقة وأجساد تموء. أجساد امبراطورية، أجساد زوايا، أجساد انقراض، أجساد لم تتكوّن بعد وأجساد تموء.

80

حتى نحن حسبناك مجنوناً يا الأخير!!

كان كفها كأنه سرب من الطيور يهبط من السماء بسرعة، يسبح فوق سهل فسيح ثم يستأنف السماء بفرح. كان الأخير في العاشرة من العمر يوم رأى إلى أمه ترش الماء على مصطبة من النعناع الفواح، ثم تمرر كفها الطري فوق هذا النعناع الغزير وتستنشقه كأن كف النعناع مدى شاسعاً من الحياة. كان الأخير في العاشرة من العمر يوم دنا من أمه وسألها بغتة عن رائحة الله. "رائحة الله؟!" استنكرت أم الأخير السؤال ونهرت ابنها بخفة وبكركرة ضحك عن هكذا سؤال. "رائحة الله!!"

كان ذلك يوم كان الأخير في العاشرة من العمر، أما اليوم، وقد كف الله عن أن يكون نعناعاً، فلنتابع قصة الأخير.

نعم نعم يا الأخير، فحتى نحن حسبناك مجنوناً.

كان الشيخ الوحيد يفرك عبر كفه العريض ثؤللاً ضخماً عند أنفه ويكلم الأخير كيف أن أحد الإخوان من الذين تولوا مراقبتك منذ نزولك من السفينة حتى وصولك إلى هنا قد ظن بك الجنون يا الأخير. كان الشيخ الوحيد يتكلم فتكر منه ضحكة يحاول كتمها بينما الأخير مطأطئ يحدق في جريدة بين يديه دون أن ينبس بحرف. نعم نعم يا الأخير، أردف الشيخ الوحيد: يبدو أن الله حباك موهبة عظيمة في التحايل والتواري والتلون بألوان العقل والجنون، حتى أن.... حتى أن (عاد إلى كركرته المكتومة)، حتى أن الأخ مراد توجه إليّ بالعتاب لأنني عهدت إليه بمهمة مراقبة فتى مجنون! فلتت الضحكة من الشيخ وحيد مع هذه الكلمة الأخيرة، وجعل يردد تارة بالهمس وتارة بصوت مسموع لا حول ولا قوة إلا بالله... لا حول ولا قوة إلا بالله، وهو يتفكه أن مراداً قد ظن بالأخير الجنون.

كان الأخير لا يزال يحدق بالجريدة بين يديه لما سأله مراد إعادة الجريدة إلى الشيخ الوحيد سائلاً الشيخ بلهجته الجزائرية أن يعاود تأمل الأخير كما تبدى في هذه الصورة: "ألا تطالعك هذه الصورة بمشهد إنسان مجنون؟! عذراً عذراً يا أخي الأخير، قال مراد، لكنك في حركاتك وفي أدائك أمام الناس وفي ركضك على الشارع ونظراتك المشتتة إلى الخلف بدوت كالمجنون يا الأخير." ثم وقد توجه مراد بكلامه إلى الشيخ الوحيد: "كان الأخير يلطم الهواء ويصفعه ويقوم بركله كأن ثمة بشراً حقيقياً كان قدّام الأخير. صدقني يا مولانا الوحيد، كان الأخير كأنه يتعارك مع شبح من لحم ودم، حتى إنه كان يبكي. أنا رأيت إلى بكائه بأم العين يا سيدي الوحيد."

لم يعلق الشيخ الوحيد على ما جاء على لسان مراد من كلام حول الأخير. كان يحدق في الجريدة بوجهه الذي قد تسللت إليه علامات التجهم والوجوم وهو يفرك بيده الأخرى الثؤلول الضخم المستلقي بكآبة على أنفه الأحمر الكبير.

"ما هي هذه الأوراق المتطايرة بحدة من حولك يا الأخير؟ وما هذه... دمى؟! ما هي هذه الدمى المرمية هناك على الأرض؟!"

طبعاً هي ليست بدمى، همس الوحيد في سر نفسه، ثم وقد جعل يحدق بالأخير من تحت حاجبيه الكثيفين، خافت الصوت في صدره: دمى؟ وما حاجة هذا العفريت الخطير إلى الدمى؟!

أتودّ المزيد من الشاي يا الأخير؟

ضمن نشاطات اليوم العالمي للمسرح، نوّهت الفيغارو في صفحتها الثقافية بالأداء المسرحي الغريب الذي أداه صاحب الصورة الملتقطة عفواً في أحد شوارع مرسيليا. لم تأت الفيغارو على ذكر اسم صاحب الصورة أو الممثل المجهول كما جاء في أحد التعليقات، لكنها اكتفت بأن أرفقت الخبر عنه بهذه الصورة الغريبة التي التُقطت من الخلف لهذا الشاب وهو يركض وقد تطايرت منه أوراق كثيرة وثمة دمى من حوله كأنها جثث كما جاء في تعليق الفيغارو.

بيّنت الصورة الأخير كواحد قد أسلم روحه إلى رعب شديد ينظر إلى الوراء بذعر فاغراً فاه ورافعاً يديه كأنه يحاول لقط الأوراق. لم يعلق الأخير على صورته المنشورة عرضاً في هذه الجريدة ولا على كلام مراد أو كلام الشيخ الوحيد. هز رأسه بأنه يريد المزيد من الشاي على أن يُغلى أكثر ليتحول إلى شاي أسود كما قال الأخير.

اقشعر بدن الأخير على وقع الشاي الأسود وقد نطق به عفواً، ثم انسحب شأن الجميع إلى غرفة أخرى كان قد سبقهم إليها الشيخ الوحيد.

81

اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد...

أما وقد نغص علينا المكوث في أرضنا الطيبة بعد سرقة خيراتها واستباحتها، يريد هذا الغرب الفاجر محق أخلاقنا الحميدة وقيمنا الرشيدة بما ينشر من عبث وفجور.

بهذا توجه الشيخ الوحيد إلى الأخير وصحبه بعد أن فلش أمامهم خارطة ضخمة لمدينة باريس. لا يريد الغرب لنا إلا الإهانة وسوء المصير وإعمال الفساد في عقول أجيالنا الطالعة. كان الوحيد مع كل جملة يتفوه بها يعلّم بقلم أحمر على مكان ما في الخارطة. لا يجب أن نستكين إلى هجمة الغرب الغاشم وإلى بربريته وجاهليته الظالمة، إنما يجب علينا الجهاد ونقل المعركة إلى أرضه ورد الصاع صاعين. نعم، أردف الوحيد. أما وقد أعمتنا الرهبة عن كل جهاد لفترة من الزمن مديدة، آن لنا أن نحوّل دار الغرب إلى دار حرب، وقد لوث هذا الغرب بجيشه الجرار وثقافته الفاحشة وإعلامه الفاضح ديارنا وعقر دارنا. نعم يا إخوتي، آن لنا أن نلحّ عليهم ببأسنا وجهادنا واستخفافنا بالموت في سبيل الله ونصرة نبيه.

كان الجمع مأخوذاً بكلام الوحيد إلا الأخير الذي لاحظ أن كل أنفاق العاصمة الفرنسية ومحطات قطاراتها قد تلوثت بأحمر الوحيد. لا يجب يا إخوة الإيمان أن نأخذ بكلام الغرب الكاذب حول حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية ومجتمع الرفاه. فالإنسان المقصود في كلامهم هو إنسانهم، والديمقراطية المقصودة في هذا الكلام هي ديمقراطية حكامهم في فرض الحكام الفاسقين علينا من الذين لم يأخذوا من دين الله إلا اسمه. أما الرفاه الذي يحكون عنه فهو رفاه أطفالهم على حساب أطفالنا المنزوعي الأحشاء والمنقبضي الصدور.

ثمة بين أعضاء المجموعة من فاضت عيناه بالدموع، وبعضهم جعل يتوعد أن الغرب إلى اندثار إن شاء الله إلا الأخير الذي توجه إلى الوحيد يسأله: ما هذا القصر هناك؟ إنه متحفهم الكبير يا الأخير، قال الوحيد وأكمل: حيث بقايا مقتنياتهم البالية مما يطلقون عليه اسم الحضارة.

"اللو؟ر!!" خافت الأخير الصوت في صدره على وقع المعمعة التي سادت الأجواء. يريد منا الله مقاتلة هؤلاء الفاسدين كما قاتل أسلافنا الطيبون فسقاء زمانهم بغية نشر دين الله والاحتكام إلى محض شريعته، قال الوحيد ليتلو بعدها: المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون.

"اللو؟ر!!" كرر الأخير مخافتة الصوت وقد مال ببصره إلى كوب الشاي الأسود.

يجب أن نفي ديننا حقه في الانتقام من أعداء الله والذود عن مقدساتنا وما تزخر به حضارتنا من قيم سامية، قال الوحيد ليشخص بعدها في عيون الشبان المتحلقين من حوله حاضاً إياهم على الفوز الكبير. أنا أعلم أن كل واحد منكم يتحرّق لملاقاة أسلافنا الطاهرين في جنة الخلد. أنا أعلم أنه صار أثيراً لدى كل منكم التضحية بجسده من أجل الفوز بجنة رب العالمين. نعم، قال الوحيد. أنا أدرى بشؤون خلجاتكم وبما يتناهب أفئدتكم من شوق لملاقاة ربكم الأعلى والتضحية بكل رخيص ونفيس

جهاداً في سبيل الله. أنا أعلم يا إخوتي أنكم على قناعة تامة أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة أبقى وأنقى. هلموا يا صحبة الدين، هيا هلموا...

لم يتأت للأخير أن يسمع بقية الكلام، فهو كان مغموراً بالخارطة أمامه صارفاً الاهتمام إلا عن القصر الكبير، اللو؟ر كما كان يتمتم من خلف شايه الأسود.

جعل الوحيد وهو طبيب مغربي يقيم في باريس منذ سنوات طوال، يشرح للمجموعة المؤمنة أهمية إحداث الصدمة المطلوبة بغية تنغيص هؤلاء الكفار ومنعهم عن التمتع بذكرى تأسيس متحفهم الحقير وما يسمى- كما قال- باحتفالاتهم بيوم المسرح العالمي. سحقاً لهم ولمسارحهم ولتاريخهم الاستعماري المخضب بدماء أطفالنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا، قال الوحيد.

فنون ومتاحف ومسارح... متاحف ومسارح... مسارح مسارح مسارح... جعل يرددها الوحيد باشمئزاز، بينما الأخير ومع كل "مسارح" يتلفظ بها الوحيد يشد نظره خلسة إلى سقف الغرفة حيث كانوا مجتمعين. مسارح مسارح ما انفك يكررها الوحيد بتعابير تنم عن الاستخفاف واللامعنى والاشمئزاز، والأخير يجوب السقف بطرف عينيه كأنه يتوقع بهرجة ما. نعم، بهرجة هي الكلمة الوحيدة التي طرقت ذهن الأخير.

لا يجب أن تأخذنا الشفقة على هؤلاء الكفار يا أخوة الإيمان. عادت كلمات الوحيد تلم بمسامع الأخير الذي صار يحوص متذبذباً بين خطبة الوحيد الجهادية وما يمكن أن يأتي به السقف الملعون كما فكّر الأخير.

لا يجب أن تأخذنا الشفقة على هؤلاء القوم الماجنين، بله أن يكونوا محل إعجاب عند بعض ناسنا من المضللين والمنحرفين. بلحظة، صار السقف كأنه مسرح مقلوب يتأمله الأخير خلسة فيرى إلى الموت الثلاثيني يمشي على السقف ببطء، بينما ذانك الميتان سابحان في هجعة موتهما يحدقان في الأخير ورفاقه بعيونهما الجاحظة الفاترة الفاقدة البريق. كلا يا إخوتي كلا، لا يجب على القلب أن يكون ليناً تجاه من أودى بنا إلى مهالك الخيبة والهوان وبئس المصير. كلا يا إخوتي كلا، فالغرب...

كان الأخير، وفي خضم حماس الوحيد، قد صار محل تناهب بين خطبة هذا الشيخ والنظر إلى المسرح المقلوب. انظروا إلى أطفالنا في فلسطين ولبنان والعراق، وتأملوا تهافت زعماء أمتنا على موائد الغرب الحقير، حتى كأن هذا الغرب يشكل مهماز هؤلاء الزعماء وليس ما خطّه السلف الصالح من معين ومرشد لنا ودليل. انظروا إلى أهلنا في الصومال والشيشان وتأملوا في ما حل بنسائنا في البوسنة والهرسك من مجازر وهتك للأعراض. نعم يا إخوتي نعم، لقد صارت أمتنا مساحة ذل وهوان وصولاً إلى الهند والباكستان والفيليبين وغيرها.

امتدت مساحة المسرح فوق رأس الأخير الذي تاه مجدداً عن كلام الشيخ الوحيد وقد ملك المشهد المقلوب عليه من كل حدب وصوب. كان الموت الثلاثيني كما تبدى للأخير يقترب من الجثتين بحذر، فلا يظهر منه إلا شعر رأسه وكتفيه العريضين وبوز حذائه الدقيق.

... انظروا إلى قومنا كيف تداس كراماتهم بأقدام السلطات في الجزائر وفي مصر. انظروا إليهم كيف يزج بهم في السجون. رأى الأخير عفواً إلى الجثتين تتحركان وقد صار الموت على مشارف الانقضاض عليهما. ليس العالم، قال الوحيد لأخوته الذين تحولوا إلى ما يشبه الأوتار المشدودة،

ليس هذا العالم إلا برميلاً من النفط والبارود ينتظر منا تفجيره. فلنكن فتيل هذا العالم وقد حبانا الله بفضله أن نكون عبيده المفضلين. فلنكن يا أعزائي إرادة الله الخالصة، فلنكن ناره المقدسة التي ينتظر منا إيقادها في طول العالم وعرضه سبحانه فهو على كل شيء قدير.

أنهى الوحيد خطبته على وقع تنهدات البعض وتسارع دقات قلوب البعض الآخر، وثمة من بكى وأجهش وثمة من استحلف الوحيد أن يمده بنعمة الجهاد حتى الموت، حتى الشهادة إلا الأخير الذي باغت الجميع بأن ضرب على الطاولة بملء كفيه وقد رأى إلى الجثتين تهويان بثقلهما على الخارطة فوق متحف اللو?ر بالتحديد.

امتقع وجه الأخير بمد من التعابير التي لا تشي إلا بالاضطراب والخجل، ثم جعل يتأتئ بعبارات غير مفهومة أراد عبرها الاعتذار من الرجال الذين طاش صوابهم مع ضربه على الطاولة بكفيه. كرر اعتذاره مرات ومرات ليتوجه بعدها إلى الوحيد يبثه بضع كلمات من خلف شايه الأسود: باركك الله يا مولانا الوحيد وسدد خطانا وإياك إلى ما فيه نصر الأمة وخير العالمين، قالها الأخير مخنوقاً وبصوت يكاد يلامس الهمس ولاذ بعدها إلى صمت مدوٍ شأنه في ذلك شأن الجميع.

لست أدري إذا كان من المفيد أن أبثّ ما اعتور الأخير من ذل وصمت بعد انتهاء خطبة الوحيد. ران الصمت على المكان كأنه فسحة خلاء في صحراء نائية، بينما الصدور حول الوحيد كانت تمور بخلجات التوهج والاضطراب. كان الكل مطأطئاً يحدق في الأرض وقد منحت كلمات الشيخ الرجال المجتمعين من حوله كل حظوظ الحزن والانتقام. لم يأت أي منهم بنأمة حركة أو بنبس قول بعد خطبة الوحيد. كان كل منهم قد لف رأسه بكفيه محدقاً في الأرض تماماً كما الوحيد إلا الأخير الذي باغت الكل فجأة بصوت الطقطقة الذي صدر عن بلعومه لحظة احتسائه بلعة من شايه الأسود أثناء مخالسته السقف الكبير.

82

... وأجساد تموء. أجساد آباء، أجساد أمهات، أجساد ديوك، أجساد بيوض وأجساد تموء. أجساد قفر، أجساد عمران، أجساد ضاحية، أجساد داون تاون وأجساد تموء. أجساد أثينا، أجساد القدس، أجساد نيويورك، أجساد الرياض وأجساد تموء. أجساد مركنتيلية، أجساد احتكار، أجساد تهريب، أجساد اقتصاد وأجساد تموء. أجساد إيمان، أجساد كفر، أجساد فوبيا، أجساد مشاع، أجساد سوداء، أجساد دو بيبس وأجساد تموء. أجساد ضد، أجساد مع، أجساد في، أجساد على، أجساد فوق، أجساد تحت وأجساد تموء. أجساد توم آند جيري، أجساد السندباد البحري، أجساد غرندايزر، أجساد كليلة ودمنة، أجساد هاري بوتر وأجساد تموء. أجساد نحس، أجساد خير، أجساد منزلة بين المنزلتين وأجساد تموء. أجساد حسب، أجساد نسب، أجساد مجهولة الأصول، أجساد بق وأجساد تموء. أجساد حبلى، أجساد ستائر، أجساد بومة، أجساد كتب، أجساد سيف وأجساد تموء. أجساد دا؟نشي، أجساد كروكي، أجساد كولاج، أجساد installation ، أجساد assembling وأجساد تموء. أجساد سكر، أجساد ملح، أجساد توابل، أجساد فضة، أجساد قهوة وأجساد تموء. أجساد فاطمة الخضراء، أجساد السيدة كلارنس، أجساد لارا، أجساد كلاريتا وأجساد تموء. أجساد بروست، أجساد الكاتب، أجساد نعوش، أجساد غوتنبرغ، أجساد ورد، أجساد مخرج وأجساد تموء. أجساد صور، أجساد طرابلس، أجساد البسطة الفوقا، أجساد الرملة البيضاء، أجساد مرجعيون، أجساد وزارة الداخلية، أجساد وادي سوات وأجساد تموء. أجساد أبو قتادة، أجساد براد بيت، أجساد أبو الحارث محمد العوفي، أجساد توم كروز، أجساد خالد شيخ محمد، أجساد نيكولاس كايج وأجساد تموء. أجساد معجم، أجساد سيمياء، أجساد دلالة، أجساد مفردة، أجساد عبد القاهر الجرجاني، أجساد موسوعة أمبرتو إيكو وأجساد تموء. أجساد محمد الرواس، أجساد جبر علوان، أجساد حمام بغدادي، أجساد سكر بنات، أجساد صاحب الأفهوم، أجساد حشيشة وأجساد تموء. أجساد منابر، أجساد أصابع، أجساد شعر كثيف، أجساد ذقون، أجساد لعاب بين الشفتين، أجساد وعيد وأجساد تموء. أجساد توك شو، أجساد وان مان شو، أجساد ستربتيز، أجساد برونزاج، أجساد سكس وأجساد تموء. أجساد ستارسكي وهاتش، أجساد نايت رايدر، أجساد الدنيا هيك، أجساد رأفت الهجان وأجساد تموء. أجساد داروين، أجساد الله، أجساد كوبرنيكوس، أجساد التراث، أجساد ماركس، أجساد البنوك الإسلامية، أجساد نيتشه، أجساد خلقناكم في أحسن تقويم وأجساد تموء. أجساد إيليوس، أجساد فوبوس، أجساد كاثاريسس، أجساد أرسطو، أجساد أفلاطون، أجساد سقراط، أجساد الأخير وأجساد تموء.

83

نعم يا أبي، يقال أن الشاعر جن، فرأى في مجلس خاص إلى بومة بوجه امرأة شمطاء ترفرف ورأى أيضاً إلى موتى يسيرون الهوينا على السقف ثم يهوون بثقلهم فوق أرشيف كبير.

خاب ظني فرأيتُ إليّ من جديد عند قبر أبي أبث طينه أخبار الشاعر الأخير. ظننته وقد تجلبب في آخر قص بشقوق الألم والانكسار أنه نوى الرحيل بعيداً عن أخبار شاعر العزلة وقرر الاستكانة إلى الصندوق الأخير من صناديق الموت. لكن أبي باغتني أن أخبار الشاعر ما انفكت تشكل عنده نبض النقوش. رجوته، وكان الطقس بارداً، أن يزيح عن أخبار الشاعر ويستريح. قلت له إنك وقد صرت ميتاً، اهنأ بموتك واترك شاعرك يعبر الحياة على غفلة منك إلى أن يلاقيك. لكن أبي تشبث بعناد يشبه الموت ونقش أن به حاجة أن يرى إلى الشاعر عبر قصي المستفيض، أن به حاجة إلى أكل الشاعر طازجاً، أن به حاجة لست أدري إلى ماذا. فتجاعيد أبي تداخلت والأحافير على طينه لبّكتني، وثمة شقوق حاولتْ القفز عن جثة الطين وبلعي من شدة الحنق. يا لحنق أبي عليّ وقد تحايلت عليه بكل أصناف المواربة والهرب كي لا أحكي بعد. أرى إلى شذرات غضبه تتفرسني، أرى إليه يرتب هذه الشذرات على طينه، فيحفر أن الأشباح هي رفاق الموتى، ويؤنبني لأنني أتقصد ثنيه عن هذه الأشباح. كلا يا أبي، قلت له وكان المطر يتكالب عليّ هو والبرق والرعد والزمهرير. كلا يا أبي، خاطبته وأردفت أن انصرافي عن أخبار الشاعر مرده إلى شفقتي عليك يا أبي الطين. ضحك الطين وهي المرة الأولى التي يضحك فيها منذ أن صار هنا، وصار يخط بملء الشق أن الشفقة هي شأن الموتى على الأحياء وليس العكس. انتبه يا ابن صلبي، قال أبي، ولا تدع الأمور تختلط عليك. الشفقة هي حاجة الأحياء يتلمسونها من الذين قد صاروا جثثاً. روّضت نفسي على الاستكانة إلى حاجة هذا الطين، فرأيتني وقد توقف انهمار المطر واعتمرت السماء النجوم، أجاري أبي رغبته فلا أتحاشى غياهب أشباح الشاعر الأخير ولا أتورّع عن لصق لساني بأخبار هذه الأشباح. لست أدري لماذا اغرورقت عيناي وأنا أهم بأخبار الشاعر بعد طول صمت وقضم الأظافر وفرك العينين وعض الشفاه. رأيت إليّ أذرف الدمع فوق طين أبي وأنا أرى إلى شاعره يرتج أمام شبح ضخم يُسرّ للشاعر بأخبار النعوش المسمّرة بعجلة ضخمة لأناس مجهولين.

نعم يا أبي، ثمة شبح لا يرحم لعق وجود شاعرك المرجرج بنهم وبعويل وبأنين وبصراخ وصار كل يوم يلاقيه.

امتقع طين أبي بمد من اليباب البارد مع أخبار هذا الشبح. رجوته أنا التعِب المتهالك أن يتركني وشأني ويتتبع وحيداً أخبار الأشباح، فقلبي صار محل فيض بطينك المشقق يا أبي. أرجوك ارحمني، فلا قدرة لدي بعد على مجاورة الأشباح. أبى أبي في قبره الحالك أن يستكين إلى صوت الفراغ أو ظلال الحور الكثير، بل رأيت إليه يترصد بعمق أخبار الشاعر الأخير فيسألني أن أقص بتؤدة أخبار هذا الشاعر الملعون وقد لوثته الأشباح.

أبي الطين صار أرشيف الشاعر الأخير في قبر تاهت عنه إلا زواريب الموتى وأخبار السحاب. أنا لا أمتّ إلى شاعر أبي بصلة إلا من جهة الصحراء. انا لا أمت إلى شاعره الملعون بصلة إلا من جهة الخلاء.

قال أبي في الصحراء كثيراً وحفر في طينه أن الصحراء حاجة الأشباح وأنها أيضاً مهر الموتى. تكلم يا ولدي تكلم، واأنسْ في نفسك قدرة القول في شاعري وفيما يتناهبه من أشباح. لا تخفْ صحراء الشاعر الأخير ولا ترتعد أن ثمة شبحاً ضخماً تخلل متون هذه الصحراء. طالعتُ أبي بتنهيدة عميقة ورأيت إليّ كأني وكر أخبار الشاعر يستنطقني الطين ويشيل الأخبار من جوفي على غفلة من كل أحد كأني بئر أخبار هذا الشاعر الأخير!

ماذا بعد عجلة النعوش با ابن صلبي الجميل؟ سألني أبي عبر أخدود رقيق خطّه على طينه المعفّر بخيوط العنكبوت. كلمت أبي أن هذا الشبح الأخير اعتور حياة الشاعر ولم يودِ به إلا إلى بهرجات طقوس الجنون. نعم يا أبي، إنه شبح عظيم الشأن داخَلَ جنبات الشاعر ومدّ في أعماق دماغه شبكات متداخلة من خيوط العنكبوت. كلمه في الضجر المزمجر، بل أنه جعله يرى إلى هذا الضجر القاتل يدخن الغليون حالماً بالمشانق والشياطين. لم يسبق لشاعرك الأخير يا أبي أن ابتلى بصحراء ماجنة إلى هذا الحد. نعم يا أبي، قرأ شاعرك المسكين في هذا الشبح الأخير أنه أبداً كالصحراء. هو شبح كالصحراء، دوى بضحك وربت فوق كتف الشاعر وأخذه بيده إلى خلاء مليء بأرائك تشبه القبور. خاف الشاعر سطوة هذا الشبح الضخم يا أبي، وأوعز إلى روحه المخلخلة أن تتجنّب هذا الشبح ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. لكن الشبح يا أبي، لكن صاحب السطوة الجبار مغنط الشاعر بنظرات حادة من خلف النوافذ والأبواب ومن خلف الجدران وزخ المطر. صار شاعرنا يا أبي أسير هذا الشبح الطافح بكل ضروب الآمال التي تشبه الخفافيش. كلم هذا الشبح الشاعر في الحديث وفي الغريب، في العابر والمؤقت والزائل. شرح له دروب الألم ووشوشه أخبار الشارع العريض الذي يعوي بصوت يصم الآذان. خربش هذا الشبح المزعج على زجاج الشاعر الخائف وأخبره ذات ليلة ممطرة أن مزاريب بيوت المدينة ليست إلا مسارب أشباح.

نعم يا أبي، تكاثف هذا الشبح كثيراً وطفح بكيل من الإشارات التي تومئ إلى ما لم تألفه من قبل أي أذن وأي عين. كان يتوارى هذا الشبح ليستجد ثم يتوارى ليعود فيستجد من جديد.

حاولت تحاشي بعض اخبار الشبح الشاحب، لكن نقوش أبي الطين ترامت إليّ كأنها أصوات تستجدي كل شاردة وواردة، ترامت نقوش أبي إليّ كأنها همسات تشحذ التفاصيل. حسناً يا أبي الطين، قلت له. حسناً يا أبي، ها أنا ذا أحشد خاطري بكل اخبار هذا الشاعر الذي مُسّ بهذا الشبح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

ضرب المساء أطنابه ثم ضربها من جديد، وأنا أتذكر تفاصيل هذا الشبح، فأسردها على مسامع الطين المنغمس أبداً في عذاب الإصغاء. نعم، ثمة ما يشبه قهر النفس كان يتناوش أبي المفجوع أثناء سرد أخبار هذا الشبح الأخير. ومع هذا، أحسب أن أبي الميت كان على لذة كئيبة... لست أدري، فنقوشه بيّنت أنه كان كمن يلسع ظهره بسوط عريض فيتألم ويقهقه في آن.

للحظات تولاني الرعب أن نقوش أبي على هذا القدر من الحديّة والاضطراب. صارت نقوشه على وقع أخباري الكثيرة كأنها سيوف تلاطم سيوفاً. كان الطين في بعض نقوشه كأنه في حرب مع أناه، كأنه في حرب أهلية. توجست قول المزيد وأنا أرى إلى أبي الطين كمن يتعرى فيسير على سنان الرماح أو على حديد محمى ويقهقه ويبكي في آن. نعم، توجست أن أزيد في القول وأستفيض، لكن الطين نبهني متأتئاً وسألني الانصراف إلى استشارة ذاكرتي أكثر بغية الوقوف على الأيام الأولى من أخبار الشاعر مع هذا الشبح المريب.

... كان ذلك في فصل الربيع يوم أعطى الشبح الشاعر باقة من الورد الأسود سائلاً إياه أن يعطيها لأمه في أحد أيام آذار. خاف الشاعر يومذاك هذا الورد الشديد السواد، وقرر دفنه على غفلة من الناس لكنه فشل يا أبي. نعم يا أبي، استحال التراب إلى جلمود تحت معول الشاعر الأخير الذي أُسقط في يده فترك الورد الأسود مشرشراً دون دفنه في التراب. تركه هناك على مرأى من الناس وعلى مرأى من الشبح.

خجل الشاعر يا أبي أن لون ورده أسود. صار يهرب من الناس لأنه ترك الورد الأسود دون قبر ودون تراب. لكن الشبح يا أبي، وفي ليلة شديدة السواد، همس للشاعر أن يطمئن، فكل شيء كما فحّ هذا الشبح ينضح بالجريمة في هذا العالم، الحائط والجريدة ووجه الإنسان.

أنبأتني بضعة نقوش صغيرة أن بدن الطين اقشعرعلى وقع هذا الخبر، فجبين الطين تبدى إليّ كأنه انطوى على تأثر كبير بسبب ما ألم بالشاعر المسكين وقد تلقفه شبح الموت.

أخبرت أبي أن الشاعر هجر بيت ذويه الدافئ وصار ينام على جوانب الطرقات وتحت أعمدة الكهرباء بعدما أناخ هذا الشبح بكلكله عليه. كلمته أن الطرقات العريضة صارت أمام الشاعر الأخير مساحات وحوش يستأنس أن شبحه قد دله عليها وأخذ بيده كي يراها عن كثب. كلمت أبي أن شبح الشاعر الأخير وسّع من أذني أخيره وجعله ينصت إلى أجراس تطلق صوب السماء عواء ثم تنخرط في البكاء وفي النحيب. أجل، رأيتني أسرد على الطين كل يوميات الشاعر الأخير مع شبحه الشاحب اللون الذي يجيد سرقة الأعماق ولا يحلو له المكوث إلا في أماكن الظل. صار الشاعر يا أبي مع هذا الشبح الظليل يرهف السمع كأنه ذئب، كأنه حيوان بري. صرت أقدح زناد ذهني مع كل خبر أبثه عن هذا الشبح الذي قطن صدر الشاعر الممسوس، وجعلت أستوفي شروط أبي في قهر وجدانه الممعوس. إنه شبح حديث جداً يا أبي، لا يعبأ بأي قديم ولا يتجلى إلا في قول الموت والهزال. صار شاعرك يا أبي مع هذا الشبح القوي بغاية الضعف والترهل، صار كأنه في المئة من العمر.

عيّنت نفسي ذات يوم تلسكوباً هائلاً فوق آنات هذا الشبح الميكروسكوبية، فرأيتني يا أبي الذليل أرقب في شاعرك الذليل صنوفاً متنوعة من الهرب والفرار وقد لفه هذا الشبح. صار شاعرك هو الشبح يا أبي أو الشبح صار الشاعر الأمر سيان. فكل ما فهمت من حديثهما أن قلوباً ستُفرك بعنف كأنها ورق شجر يابس، وأحدهما كلم الآخر مطأطئاً عن أنواع الرعب الغامض الذي سيتعمشق على نهارات الناس ولياليهم. نعم يا أبي، توطدت العلاقة بين الشبح والشاعر حتى ليظن المرء أن الشاعر هو من يكلم الشبح عن الجرائم التي ستينع أزهاراً جميلة وليس الشبح هو من يكلم الشاعر عن أزهار المدينة السوداء. نعم يا أبي، تخلل شبح التيه شاعرنا الحزين حتى العظم، ووافاه حتى أقاصي الشعور. لست أدري يا أبي من أين واتت الشاعر هذه القدرة على الهتك. صار الهتك سبيل الشاعر بمعية شبحه الأخير. لكن الشاعر يا أبي كان يكره هذا الشبح حتى الموت، كان يحبه حتى الموت. كلم أحدهما الآخر يوماً عن زيارة ينوي أحدهما القيام بها إلى الشيطان يا أبي. نعم يا أبي، لا الضيق اعترى أحدهما أن بيت الشيطان مكانه، ولا الحرج أخذ بمجامع أي منهما أن الشيطان خل له. كان كل منهما يمضي في الاستئثار بقلب الشيطان وكل منهما كان يعمل الصوت دوياً في أذني الشيطان كي يرعى جحيمه الهادئ.

تقلقل أبي في قبره الحالك، وقد أوغلت في رحاب أخبار الشيطان وأخبار الشاعر وأخبار الشبح. تهت عن نقوش أبي وفضّلت الحفر في قعر ذاكرتي المهلهلة لأسرد كيف تبارى الاثنان على الفوز بحظ الشيطان.

نعم يا أبي، تكلم أحدهما يوماً فقال: إن الشيطان رائده فيما يتمتع به من سر عظيم، لكن الآخر يا أبي فاق الأول استئناساً بالشيطان وقد أحاطه هذا الشيطان بالصمت وبالطمأنينة وبالعطور. صار الشيطان يا أبي بهجة قلبيْ هذين الشاحبين، صار بيتهما الذي يتواعدان على اللقاء فيه ليلاً وقت عواء الذئاب ونوم الأمهات والجدات اللواتي تطقطق أحناكهن القديمة مع كل بلعة ريق.

تحريت في أبي الهلاك على وقع سردي العذب. رأيت إليه ينتشي بألمه وقد غصتُ في سراديب ما قام بين الشبح و الشاعر من وشائج ومن فقرات. صرتُ كمن يستلذ بكشط اللحم عن جسد الطين وحوّلت صوتي داخل أذن الطين المبقبق كأنه صوت قعقعة أقفال. تفصّد جبيني بالعرق ورأيت إلى عرق آخر ينثال على جثة الطين. ساورتني الشكوك حول الطين الذي بلغ من العمر عتياً، وما انبرى يوماً عن زج الشبح في كل قيل وقال. نعم، ساورتني الشكوك حول الطين الذي ما لبث أن راح في نوم عميق، ما حدا بي إلى مغادرة مجلس الطين. نعم، نام الطين ثم نام. فهو انقشع أمام بصري كبقعة جرداء من أي نقش إلا من خيط بسيط قرأتُ فيه لمحة دمع.

هببتُ من قرفصائي ووليت الطين ظهري وصرت أهشّ ذباب الموت عن وجهي ورأسي وعن شفتي وقد نويت الرحيل. كان الفجر قاب قوسين على الانبلاج والأرض من حولي رطبة وخيطان رفيعة من الماء كانت تنزلها السماء بخجل. شعرت بألم في ظهري الذي أضناه طول الانحناء، وجعلت أشد هذا الظهر إلى الوراء وإلى الأمام وإلى اليمين وإلى اليسار. تقت العودة إلى البيت وترك هذا المكان العاري إلا من خربشة المطر. فأبي غار في نوم عميق كما أنبأني طينه المنبسط وأنا تعبتُ كثرة القول وتولاني المقت وألم البرد.

لكن رغبة ترك هذا المكان الأسود تنغصت وقد تناهى إلى مسامعي صوت طقطقة أتت من جهة الطين. كنت قد صرت على بعد أمتار من مكان أبي لما استفحل صوت الطرطقة بطرطقة أكثر، فشددت وجهي إلى الوراء لأرى إلى أبي الممدد وكأن ثمة زلزالاً قد ألم بجسده الهزيل وجعله ينشطر إلى نصفين. ندت عني صرخة ألم وأنا أرى إلى أبي يموت أمامي من جديد. نعم، هذا ما حسبته وأنا أرى إلى أبي ينشطر أمامي وينقسم إلى عدة أقسام.

تاهت العبارة عن لساني ولم أدر في الأمر بياناً إلا تأتآت أتيت بها وخنخنة صوت وشوشرات. طالعني أبي بجثته الجديدة كطين منقسم على بعضه وفتات جثة وغبار موت. دنوت من أبي خطوات وجربت لصق الطين بالطين والتخلص من فضيحة الفتات علّي أجاري ما ألمّ بي من شفقة عليه. جعل يخط في طينه نقوشاً حاول عبرها شد أزري والتخفيف عني والإيحاء لي أنه بخير. لم أصدق أن أبي الطين بخير، فأنا رأيت إليه يموت من جديد. رأيت إلى الموت يباشره كأن أبي حاجة أبدية لهذا الموت. تباً للموت يا أبي، هتفتُ بأعلى الصوت. سحقاً لهذا الغبار التافه، قلت له وسألته بذعر أن نغادر قبر الموت.

جعلت أضرب خبط عشواء وأنا أنتحب أن الموت قد استبد بأبي الطين من جديد. حفر أبي في عمق إحدى قطع الطين أن أهدئ من روعي وأعود إلى خبر الأشباح. نعم، إن ابي وفي موته

الثاني ما زال متشبثاً بأخبار شاعره الأخير كأني بهذا الشاعر الملعون الكلمة النهائية لهناء أبي في موته الأخير. كأني بهذا الشاعر وما يتخلله من شبح حديث، العبارة النهائية لموت أبي.

كظمت غيظي فوق طين أبي المشطور، وجعلت أعمل على تسهيل عبارات الشاعر وجعلها رقراقة كأنها سلسبيل، وذلك رغبة مني بتنفيذ وصية أبي، فأنا لست ولداً عاقاً ولست بوارد تخييب ظن أبي في موته الأخير. نعم، سأسهل عبارات الشاعر الأخير وسأسرف في خبر الشبح الحديث. سألم بكل أطراف الكلام علّ أبي يستريح في صندوق الموت الأخير.

ترامى إليّ صوت الهواء وزقزقة طيور الفجر كأنها نهايات سعيدة. كنت أتملى في جسد الطين المبعثر ممنياً النفس بالعثور على وجه أبي. لكن الطين يشبه الطين، فمن أين لي بوجه أبي أو أطرافه... من أين لي بصدر أبي أو ظهره أو رأسه أو منكبيه؟

ضاعت ملامح أبي في موته الأخير إلا من شقوق صغيرة تغذي فيّ رغبة الكلام عن الشاعر والشبح الأخير. نعم يا أبي، استقر المقام بشاعرك الحزين في بيت الشيطان يسامر الشبح الحديث كؤوسه ويشربان نخب الأيام المقبلة بكؤوس تفيض بنبيذ له طعم الدم.

كم أنت قصيّ أيها الفردوس المعطر، قال الشبح للشاعر الذي باغت الشبح بكلام عن هاوية عطشى وعن نهار يقصر وليل يطول.

أخبرت أبي أن شاعره تآخى مع هذا الشبح الرهيب، وقلت له: إن هذا الشبح صاحب العينين المحدقتين رسم للشاعر خريطة الطريق وأراه تفاصيل الأيام القادمة وجعله يشم رائحة زواياها.

كل شيء سيقول لك مُت أيها الجبان الهرم. نعم يا أبي، قهقه شاعرك وصاح بضحك مجلجل وقد نحت الشبح أمامه أفواهاً فاغرة قبالة أفواه. لبى الشاعر يا أبي دعوة شبحه الحديث إلى وليمة الجثث الطازجة. قطعا الجثث بالشوكة والسكين وكانا يمسحان أيديهما بمناديل من الحرير المطرز عليها نقوش أطفال يلعبون بالجماجم يا أبي. همس الشبح في ذهن الشاعر أو الشاعر في ذهن الشبح، فالأمر قد صار سواء. همس كل منهما في قلب الآخر يا أبي أن زرد القول الموت وأن ركن العالم الجريمة. صار أثيراً لدى كل منهما أن يقرأ في نفس الكتاب ويعزفان على نفس الوتر. تآلفا معاً يا أبي كأنهما سحاب يرى إلى العالم من فوق فسيح. تآلفا معاً حتى صارا راعيي وجود هو في مهب الريح.

خربش طين أبي المشظى بنقوش أوهى من خيوط العنكبوت. خربش أن به امتلاء أن الشاعر قد صار إلى شبح يحوم. لم أقف عند تفاصيل أبي كثيراً، فأنا ما عدت إلا لساناً يلهج بأخبار الشاعر الأخير. خربش أبي نقوشاً فضفاضة كأنه يستفسر أمراً ما. لم آبه بخربشات أبي، ولم أسعف نفسي بنعمة رضى أبي عليّ. رأيتني ألهج وألهج كأن لساني سوط عريض ألسع به ظهر أبي بكلام كثير حول الشاعر وحول الحديث... حول الشبح الحديث.

لكن أبي، أبي القذر صاحب الطين المكسّر أبداً، كان يضحك أن لسعاتي لذيذة جداً. كان يقهقه ويثغثغ كي ألسعه أكثر وأكثر. صرت ألسع أبي بشدة وهو يضحك. ألسعه أكثر فيضحك أكثر.

صرت كالإبل السائبة أمام قبر أبي، فلا أنا مشدود إلى طينه بحبل ولا أنا قادر على الرحيل عن هذا الطين. ضج القبر بصياح أطلقته حتى بُحّ الصوت فيّ كأنه صوت ديك مذبوح. أخذت الخلجات الأولى للشمس تومئ إليّ من بين الحور الطويل وأنا بعد عند قبر أبي الذليل. تنبأت في بعض

شقوقه هجعة الموت وأرشدتني بعض حفرياته إلى رغبة استبدت به لا تشي إلا بالمستحيل. نعم، فأنا وقد أعياني التعب عند هذا الطين العتيق، تلمست بين ثنياته الرغبة المريضة في الوقوف على تاريخ الأيام المقبلة من عمر الشاعر الأخير.

نعم، دفق من الوجوه المريبة وحشد من النعوش المتنقلة وأعناق تماشي غريزة المشنقة أراد أبي أن أبثه إياها أثناء رحلة الشاعر الأخير.

لكن يا أبي... ثم أوغلتُ في صمت كان أبي الطين خلاله ينقش في شظايا طينه نبضه الأخير. رأيت إلى نقش ثم إلى نقش يليه ومن بعده نقش آخر تماماً مثل عملية الدرز. تهجيت في درزات الطين... لست أدري، لم يكن الأمر جلياً.

لملمت أطراف بأسي وملت إلى طين أبي أبثه أن الشاعر الأخير امتطى يوماً جواداً بشعاً وجعل يعدو في الأرجاء. كان الشبح يا أبي برفقة الشاعر في كل خبب وركض. كان معه في كل عدو ووقوف. أخبرت أبي أن الشاعر امتطى جواداً يطلق عليه اسم العصر جاب به المساحات النائية والطرقات العريضة والأرياف والبلدات حتى المدن والصحراء يا أبي.

تسلل الاختناق إلى عنقي وألم بصوتي الفتور وخلصتُ أمام أبي المشظى أن الشاعر كلم الموت على مسامع من الشبح بصوت أجش قائلاً له: أيها الموت أيها القبطان العتيق، حان الوقت فلنرحل.

كانت درزات أبي عند آخر رداء الطين لما أردفتُ أن الشبح زيّن للشاعر الرحيل وقد هتف له من فوق الجواد بالقول: إن المدن تضجرنا، أيها الموت فلنقلع!

لست أدري إذا كان النوم هو من تعهد أبي أو هو الموت الأخير، فأنا رأيت إليه وقد تهلهل عن بكرة أبيه. لست أدري إذا كان الموت هو السوط الأخير الذي انهال على ظهر أبي أو هو لساني الطويل، فكل ما دريته بعد هذه الليلة الطويلة أن أسنان أبي الناصعة كانت ترمقني عبر شقوقه بابتسامة أجفلت قلبي عن كل نبض.

ابتسم أبي ثم ابتسم كأنه يقول: ماذا بعد؟

84

كان يرى إلى أمه تبعد الجريدة عن وجهها ثم تدنيها من جديد... تبعد الجريدة عن وجهها ثم تدنيها من جديد.

"أخير، يا الأخير... أرّب لعندي شويّ".

كان ذلك يوم كان الأخير في الثامنة من العمر. كانت هناك عند آخر السطيحة جالسة على كنبة قديمة تفلفش جريدة مرمية بإهمال لما نادته كي يقترب منها "شْوَيّ".

- شو إسما هل مرا يَلأخير؟!

- الـ... مو... نا...ليـ... زا. مكتوب هون المونا...ليزا يا إمي.

- سبحان الواهب شو حلوي!! جعلت تتمتم كمن يكلم نفسه، ثم التفتت نحو الأخير تسأله: مش حلوي؟؟

- وجّا بخوّف، بس إيديا حلوين كتير، بيشبهو إيديكي يا إمي.

كان ذلك يوم كان الأخير في الثامنة من العمر. أما اليوم، وقد كفت اليدان عن أن تكون حلوة، فلنتابع قصة الأخير.

بالإضافة إلى خارطة ضخمة لمدينة باريس، عثرت الشرطة الفرنسية في شقة المجموعة الإرهابية على أقراص مدمجة وحواسيب إلكترونية وأجهزة اتصالات متطورة جداً ومناظير ليلية تعمل على اللايزر ودليل مفصّل عن حركة القطارات وأرقامها وأوقات انطلاقها وتوقفها في هذه المحطة أو تلك.

لم توضح أجهزة الشرطة في بياناتها المصادر الاستخباراتية التي أدت إلى توقيف هذه المجموعة، إذ اكتفت هذه البيانات بالوقوف عند الزلزال الأمني الضخم الذي كان سيقع فيما لو نجحت هذه المجموعة في تنفيذ خططها. وحفاظاً على سرية التحقيق لم تورد المصادر الفرنسية أسماء أي من عناصر هذه المجموعة أو طريقة دخولهم إلى الأراضي الفرنسية، بيد إن إحدى التسريبات الاستخباراتية أكدت تورط طبيب فرنسي ذي أصول مغربية يعرف بالشيخ الوحيد في هذه القضية.

لم تؤكد المصادر الأمنية الفرنسية المعلومات المسربة حول الوحيد كما أنها لم تنف أيّاً من هذه المعلومات. لكنها أصدرت بياناً نفت فيه علاقة أي من أعضاء خلية الوحيد بالمنظمة المعروفة بالـ Black Water ، وهو خبر كانت قد أكدته إحدى وكالات الأنباء اللاتينية بناء على معلومات وصلت إلى مكاتبها في عاصمة الباراغواي، إذ جاء في نشرة بثتها هذه الوكالة إن الطبيب الفرنسي المعروف بالشيخ الوحيد هو مغربي الأصل له علاقات وطيدة مع عدة خلايا تنشط في تجارة المخدرات على طول الحدود المشتركة بين أكثر من دولة لاتينية، حيث ثمة انفلاش لمجموعات مرتزقة تابعة للـ Black Water تعمل هناك.

أردفت المصادر الأمنية الفرنسية بياناتها ببيان آخر أكدت فيه عدم علاقة الشيخ الوحيد بالـ Black Water ، لكنها ألمحت إلى إمكان علاقة أحد الأعضاء الآخرين في هذه المجموعة بالـ Black Water من قريب أو من بعيد، وهو ما أكدته الـ CNN في إحدى نشراتها مرفقة هذه النشرة بصورة لأحد أعضاء المجموعة وهو المعروف باسم مراد أو الشيخ مراد كما جاء في خبر الـ CNN التي استطاع أحد صحافييها الاستحصال على هذه المعلومات من عميل سري يعمل لدى الـ CIA.

نفت وكالة المخابرات المركزية الأميركية الخبر الذي بثته الـ CNN جملة وتفصيلاً، وقال الناطق باسم هذه الوكالة أن كل ما بحوزتهم من معلومات عن الشيخ مراد هو أنه عراقي الجنسية كان يعمل مترجماً لدى إحدى الوكالات التابعة للأمم المتحدة العاملة في العراق، وذلك قبل أن يُقتل هو وموظف هام في هذه الوكالة في انفجار في العاصمة بغداد.

لم تعلق الصحافة الفرنسية على كلام الناطق الأميركي، إذ انشغل الإعلام الفرنسي بما تسرّب من معلومات حول رجل ذي أصول عربية طلب مساعدة الشرطة الفرنسية بعد تعرضه للملاحقة والابتزاز من قِبل إحدى المجموعات السلفية المقيمة في العاصمة باريس منذ سنوات طوال. وقد جاء في إحدى هذه التسريبات أن هذا الشخص هو الخيط الذي تمّ عبره رصد خلية الوحيد وإلقاء القبض على أعضائها الذين هم طبيب عيون ومدرس سابق للغتين الفرنسية والإنكليزية ومهندس اتصالات الكترونية وطالب جامعي يدرس الاقتصاد والعلاقات الدولية بالإضافة إلى غيرهم.

نفت السلطات الفرنسية على لسان رئيس مكتب مكافحة الإرهاب هذه التسريبات نفياً قاطعاً، وجزمت أن توقيف خلية الوحيد جاء بناء على تعاون استخباراتي دولي أدى بنهاية الأمر إلى توقيف كل أعضاء الخلية. أما شهادات الشيخ الوحيد ومراد وباقي أعضاء المجموعة السلفية عن رجل آخر له علاقة بمجموعتهم، فقد تجاهلها مكتب مكافحة الإرهاب الفرنسي وعدها من باب الأضاليل أولاً ومحاولة لجأ إليها مراد والوحيد ثانياً لرفع المسؤولية المباشرة عنهما وإلصاقها بشخص وهمي يُعرف بالأخير كما جاء في تقارير محققي مكتب مكافحة الإرهاب الفرنسي الذي أصدر بياناً ختامياً طمأن فيه الفرنسيين إلى أمنهم وسلامتهم بعد إلقاء القبض على كل أعضاء الخلية الإرهابية المعروفة باسم خلية الوحيد.

كان وجه أمه أحمر وعيناها تلمعان ببصيص ساذج لما نظرت إلى الأخير وهمست بخجل: عن جدّ دَيْها متل دَيّي؟!

85

... أما الموناليزا، فهي أشهر بورتريه في العالم رسمها دا؟نشي في مدينة فلورنسا بين عامي 1500 و1504، وذلك بعد مغادرته ميلانو على أثر الحرب التي نشبت هناك.

كان الأخير شاخصاً يحدق في الموناليزا بملء حواسه، ساهياً عن كلام إحداهن ممَّن كانت تعرّف بلوحة دا؟نشي.

بالإضافة إلى اهتمامه بفن الرسم، عُرف عن دا؟نشي اهتمامه البالغ بعلم التشريح والهندسة وتصميم الـ...

كان الأخير يحدق في وجه الموناليزا تارة وفي يديها تارة أخرى محاولاً في كل آن لقط حركة عينيها الشريرتين كما كان يفكر الأخير.

... هذا ويعتبر دا؟نشي بالإضافة إلى مايكل أنجلو ورافاييل من أهم رموز عصر النهضة في أوروبا، وهو العصر الذي غيّر وجه العالم ومنحه قيمة ومعنى جديدين. لكن أهمية دا؟ـ...

3 2 1 - 4 3 2 1 - 5 4 3 2 1 - 9 8 7 6 5 4 3 2 1 - 9 8 7 6 5 4 3 2 1...

كان الأخير لا يزال ساهياً عن كلام المرأة الخمسينية يعد أصابع الموناليزا ثم يعود ليعدها من جديد ثم يعدها من جديد ومن جديد كأننا بأصابع هذه المرأة لا تني تزداد مع كل عد كما تهيأ للأخير.

... أما صاحبة هذا الوجه فهي زوجة موظف فلورنسي كان يعمل لدى أحد النبلاء الفلورنسيين تُعرف بالموناليزا أو الجوكندا، وهي لا تمت إلى سلالة النبلاء أو الأمراء بصلة، ومع هذا ....

كان الأخير قد كف عن عد أصابع صاحبة هذا الوجه البشع كما كان يتمتم مركزاً بصره في هذه الأثناء على سحنتها العريضة وما ينتاب هذه السحنة من شحوب وامتعاض.

... ومن يتأمل عيني الموناليزا يلاحظ أن دا؟نشي العبقري أراد عبر حركة عينيها الإيحاء بمدى قصورنا كبشر عاديين عن إدراك حقيقة العالم،قالت الخمسينية لتكمل: من يستطيع أن يستنتج ماذا وراء...

صار الأخير بين الحشد كأنه وحيد يقرأ في عيني الموناليزا أن العالم لحظة رعب. ندت عن شفتيه ابتسامة جعلت بعضاً من الذين كانوا بقربه يتحرون الابتعاد عنه بخطوات سرية يأتون بها خلسة كأن ثمة ... لم يكن الأمر واضحاً عند أي من هؤلاء الناس، فلنبتعد وكفى!

بالإضافة إلى الموناليزا تعتبر لوحة العشاء السري من أهم أعمال دا؟نشي، وهي لوحة أجمع النقاد على أن الفنان الإيطالي ارتفع بها إلى ...

نظرت المرأة الخمسينية صاحبة النظارة السميكة على عينيها المتهدلتين حولها، حيث لم يكن إلا الأخير. ارتخت العبارة على لسان هذه المرأة وقد طالعها هذا الكائن بهيئة تشبه هيئة الـ...

اقترب الأخير من المرأة خطوتين وسألها بصوت أبح: ارتفع بها إلى ماذا؟

طرطق الريق في بلعوم الخمسينية وهي تقول للأخير: إلى مرتبة الفيلسوف.

هز الأخير رأسه ثم ولى المرأة الجانب ليستأنف التحديق في وجه الموناليزا البشع. اندفعت المرأة عن الأخير وعجلت المضيّ صوب الناس الآخرين وهي تقوم برسم شارة الصليب أمام وجهها الذي مال إلى الشحوب والاصفرار.

ران الصمت على المكان إلا من أصوات النعال المرتبكة وصياح ديك لم يسمعه إلا الأخير. كان لا يزال يحدق في وجه المرأة البشع وفي يديها الحلوتين لما رفّ جفنه بغتة ومال برأسه وبكل جسمه بسرعة قصوى كأن ثمة طائراً من الجوارح يعمل على الانقضاض عليه.

كاد الأخير أن يفقد الرشد أمام استهزاء الموناليزا به، لكنه عاد فشدّ من أزر نفسه وهذب من استقامة قامته التي تأرجحت منذ قليل وحاول تجاهل البومة الشمطاء التي انبثقت لا أحد يعلم من أين.

كان الجمع تتقدمه الخمسينية قد صار على مسافة عن الأخير لما سأل الأخير المرأة بصوت مضبوط الإيقاع: متى آخر مرة مات دا؟نشي يا سيدتي؟ دون أن تلتفت إلى صاحب السؤال همّت المرأة بمشي سريع وهي تردد بملء الصوت: 1519. مات دا؟نشي في العام 1519.. 1519.. 1519.

عادت الابتسامة إياها لترتسم على وجه الأخير الذي لاح للناس كمن يهمّ بالرحيل أو شيء من هذا القبيل. ولّى الموناليزا الظهر، نظر إلى ساعة يده بإمعان دقيق، ثم فجأة جعل يلوّح بيده الأخرى مبدياً علامات الضيق والتعميص في عينيه.

كان الأخير كما تبدى للجميع يعمل على إبعاد شيء ما من فوق رأسه وعن وجهه المقطّب الجبين والمعمَص العينين. همّ بمشي سريع ثم جعل يهرول ليركض بعدها ركضاً سريعاً في ممرات المتحف وردهاته متحرياً الوصول إلى بوابة الخروج.

تسمّر الأخير عند أحد أروقة المتحف وقد باغته صوت ملائكي يناديه: الأخير... الأخير. اختلط الصوت الأول بصوت ثانٍ ثم بثالث ووجه السيدة كلارنس ولارا وكلاريتا، وثمة ابتسامات وسيماء حبور كللت جبين الطفلتين.

الأخير... الأخير، هتفت لارا ومن بعدها كلاريتا وجعلتا تعدوان نحوه كأنهما أروع بطتين كما نبس الأخير.

الأخير... الأخير، طفقت الفتاتان تناديان بينما هذا الأخير وقد معس أذنيه بكلا كفيه استأنف ركضه بركض أسرع مجهشاً مجهشاً يشد كفيه أكثر فأكثر على أذنيه المدوي فيهما صوت البطتين.

كان الأخير يركض كمن يسابق الريح، كمن يسابق الصوت، كان يركض كمن يسابق الانفجار.

86

كَيْفَ جَلَسَتْ وَحدّها المدينَةُ، كيف صارتْ كأرملَةٍ... تبكي في الليلِ بكاءً ودمُوعُها على خدّيْها... أهذهِ هي المدينةُ التي يقولون أنها كَمالُ الجمالِ، بَهجةُ كلِّ الأرضِ؟ (مراثي إرْمِيا)

الصحراءُ لا تعد بشيء... وتصر أن تقول الحقيقة!

إني لا أعد بشيء، لا أعد بغير العدم! هذا ما تقوله الصحراء. (ابراهيم الكوني).

الخبر الأخير.

جاء في أخبار الطين أن قمقم أبي انكسر فخرج منه عفريت يافع تحول بغتة إلى شبح. نعم يا أبي، استقبل العالم شاعرك شبحاً!

صادقت أبي القول وأردفت: يممّ شاعرك الحزين الوجه نحو صحراء أخرى أرهقت الشاعر حتى القفر. هلك الشاعر في هذا المكان النائي وتاه إلا عن رفقة بعضهم ممن توسموا في هذا الشاعر صديقاً. نعم يا أبي الطين، لم يلمح الشاعر الأخير في صحرائه الجديدة هاته إلا أشباحاً أخرى ظن ناس هذه الصحراء أنها قد ولت الأدبار ولن تعود من جديد.

لكن الشاعر يا أبي متعة الخرائب في هذه الصحراء الحديثة. الشاعر غراب هذه الصحراء. تحول الشاعر في الصحراء يا أبي إلى شبح يحوم متقفياً أثر الموت الجاثم عند تخوم هذه الصحراء. لم يكن نسيم هذه الصحراء الأخيرة كنسيم صحراء الشاعر الأولى. كلا يا أبي، كان نسيم هذه الأخيرة زحاماً يصم الآذان، كان النسيم في هذه الصحراء ألفة الرعب يا أبي.

نعم يا أبي الموت، تضعضع شاعرك الحزين في هذا المكان الجديد ونأى بنفسه إلا عن أشباح أخرى تسيرعلى الطرقات العريضة فلا يلمحها إلا الأخير، إلا شاعرك الأخير. كلّمتْ هذه الأشباح الشاعر كي يتأبط نعشاً بدوره ويشاركها رحلة الموت عبر أزقة هذه الصحراء.

تكلم الشاعر يا أبي لغة هؤلاء الأشباح القائمة على حروف لا تشي إلا بغرض التبشير بالانمحاق. نعم يا أبي القبر، استأنس شاعرك الأخير رفقة نعوش تسبح في سماء الصحراء وتومئ في كل لحظة بخبر عدم هذه الحديثة... عدم هذه الصحراء.

كان أبي مع كل خبر أبثه إياه يفتّ ويصير إلى رذاذ غبار، كان كأنه ينمحق بدوره فيستعجل الغبار ثم الغبار ثم الغبار.

تعلم الشاعر يا أبي لغة هؤلاء الأشباح الأقوياء، وصار كأنه واحد منهم يتهافت تحت وقع قواه وقد فشل يا أبي في ملء فراغات المدينة، في ملء فراغات الصحراء. كلمتُ أبي: إن الصحراء مجاز المدينة، إن المدينة مجاز الصحراء، وقصصت عليه أخبار انتشال الجثث من بين الأنقاض، وسردتُ أيضاً أخبار الشاعر الذي كان يتفقد بعد كل انفجار ضخم ما تبقى من أشلاء، ما تبقى من أزهار وما تبقى من شر!!

نعم يا أبي الهلاك، غيوم الصحراء الأخيرة نار ومساحاتها دبق يشد النعال. لم يشاركني أبي الحديث، لم يقاطعني أو يستمهلني، لم يستأنس في نفسه إلا القدرة على الغبار.

نظرت إلى طين أبي ورأيت بأم العين إلى هذا الطين يقتفي أثر الانتشار في اللامكان. مسدتُ ما تبقى من بعض أبي وأجهشتُ عند قبره الحالك وصرت أتنهنه عند خبر انتعال الشاعر حذاء التواري وارتدائه قفازات الظلال.

باشرتْ المدينة شاعرك المبحوح كأنه في طيّ الكتمان وولّفته كصوت انفجار ضخم يتحيّن لحظة الانقضاض. لم تقرأ المدينة الصفراء في الإرهابي شاعراً أخيراً يا أبي، لم تبتهج أن ثمة من لكزها كي تستفيق. تلقفت الصحراء هذا الشاعر كواحد لا يمت إلى أصلها بصلة، كواحد لا... إن المدينة الصفراء خبيثة، إنها بلهاء يا أبي.

تجاسر بعض قوم الصفراء وتبنوا أن شاعرك الأخير مجرد غريب يجب طرده خارج الأسوار. تاه عن بال هؤلاء أن أسوار المدينة تسقط كأنها برج من ورق أمام قدرة الأشباح.

سبحان الله يا أبي كيف أن شاعرك الحزين منح كلمات العدم حظوظها. سبحان الله يا أبي كيف تأتى لهذا الشاعر أن يصير إلى شبح يحوم وأن يصير إلى نعش يرفرف مع غيره من النعوش.

وزع الشاعر يا أبي الورد الأسود كل يوم ولبى نبوءة الأشباح الذين رأوا أن آخر المدينة صحراء، أن آخر المدينة انفجار.

بوم... بوم... بوم... آخر قصيدة خطها الشاعر يا أبي. بوم... بوم... بوم... وجثث في كل مكان.

تواطأت على الشاعر المسكين قوافل الأشباح يا أبي. تواطأت عليه من كل حدب وصوب، ومدته بقول التيه والترحال وأبد البداوة يا أبي. شاعرك الفاشل بدوي هذه الصحراء الأخيرة، ضلّ درب الكلأ الطازج فجاعت إبله يا أبي وجاعت ماشيته يا صاحب الموت الرخيص وجفت قوافي شعره العتيق كأنها سواقي العنكبوت الأسود والنمل الأسود وعفن العجين يا أبي.

نعم يا أبي الضيق، غابت عن شاعرك الحزين أسماء العالم وما ينتابه من قواف ما استعد لها يوماً هذا البدوي يا أبي. ملك على البدوي المسكين أن العالم رجراج، وشق عليه وهو سيد الكلمات، أن كلمات الصحراء الأخيرة تحتقر قوافيه يا أبي.

ماذا أقول يا أبي؟!

أحسبني عيناً لا ترى إلا الأخير وأرى إليّ فلا أجدني سوى لسانٍ يلهج بأخبار الشاعر الأخير.

من أنا يا أبي؟ من أنت يا أبي؟

ران الصمت على المكان، حتى الهواء كفّ عن وشوشاته الخفيضة، حتى الحور غاصت أوراقه في تلابيب صمت مدوٍ عند قبر أبي الغبار. ألزمت نفسي المكوث حتى آخر لحظات الطين، وابتدرتُني راوياً لأخبار الشاعر حتى آخر رذاذ الغبار. لم تتناهبني رغبة الفرار من هنا، ولم أستجب لحماسة الكف عن الكلام. كلا، رأيتني، وبعد طول صمت، أرسم بين طيات الغبار صوتي يوشوش أذن أبي أن الشاعر الأخير فشل إلا في إلقاء القبض على موته الخاص، ولم ينجح إلا في توقيت واحد هو توقيت هذا الموت.

مسح الغبار العرق من فوق جبينه وهيأني كي أصف بإمعان لعبة الشاعر مع الموت. هو التاريخ قض مضاجع الشاعر الأخير وأتى عليه بصنوف متنوعة من الدنو والابتعاد. هو الجمال يا أبي أرّق هذا البدوي المسكين وجعله نهب العظمة والارتياب.

كلمت أبي عن قصر ضخم خطف أنفاس الشاعر الأخير، فتحول بين ردهاته الفسيحة إلى شبح يحوم بمعية غيره من الأشباح. يقال أن الشاعر الأخير رأى إلى يدي أمه في ذاك القصر الكبير، ويقال أيضاً يا أبي أنه رأى هناك إلى انقراض بصورة بطتين تركضان إليه.

أخبرت أبي أن القصر صار بيت الشاعر الأخير يأتي إليه كل يوم ويقرأ على جدرانه العريضة أن البدوي حاجة الموت. كان إذا تاه الشاعر عن درب القصر المنيف أرشدته الأشباح يا أبي، وكان إذا شدّ الخيام بعيداً عن هذا القصر لكزَتْه الأشباح كي يعود بإبله ويسرح هناك يا أبي.

نعم يا أبي، تنازعت شاعرك الأخير رغبة القصر من جهة، وتنازعته أيضاً رغبة الإبل والخيام. أما تلك الأشباح الكثيرة، فزيّنت للشاعر إن القصر متعة الانتقام، أنه فرح الانفجار. امتطت الأشباح الكثيرة شاعرك المسكين حصان عدم يا أبي، وأردفته بكل مآلات القصر.

الانتحار... الانتحار... الانتحار... كان يردد سيد الأشباح على مسامع الشاعر الأخير ليتلقفه شبح آخر بأخبار العبث وآخر بأخبار الكابوس، ثم بأخبار السقوط وبعده بأخبار التيهان. نعم يا أبي الانشطار، طاش صواب الشاعر الأخير وتهلهل بدنه، حتى عضلات جفونه تهاوت وارتخى حنكه يا أبي وما عاد الشاعر يسيطر حتى على مجرى البول.

كان الطين مع لحظات قصي الأخير قد استحال إلى محض غبار يرسم فوق الشواهد الأخرى ابتسامة صفراء ويرسم أيضاً سؤال الـ بعد... الـ بعد... الـ بعد. تباً لك يا أبي، سحقاً لك يا غبار.

ماذا بعد؟ سألني أبي قبل أن يهب الهواء الذي تحول إلى عاصفة هوجاء أودت بغبار أبي إلى شتات وإلى تناثر في كل مكان. خالط غبار أبي المتطاير أوراق الشجر الصفراء وحبات الرمل وقطرات الماء. حاولت تعقب آخر لحظات أبي الغبار، لكن الغبار دقيق، الغبار خفيف، الغبار هباء.

اندفعت العاصفة واشتدت وصارت تعوي ككلب مصاب بطلق ناري أو مدهوس بإطارات سيارة. أتت العاصفة على كل يابس من أغصان الشجر وكادت أن تقلع الحور وحولت المشهد أمام عيني المعمصتين إلى أصفر يموج بخفة يهوي صوب الأرض بعنف ويعلو ثم ينطلق سريعاً ويؤوب كأنه مركب سكران!!

لم أفزع عاصفة الورق، لم أرتعد أن أبي صار هباء. تريّثت الرحيل عن القبر إلى حين هدوء العاصفة، ولم أتزحزح عن مكاني إلا بعد أن انفرشت أرض المقبرة بالورق الأصفر وعجقة الحصى والتراب. رفعتُ رأسي من بين فخذي المنثنيين... كان الجو بغاية الهدوء، وثمة أزرق يزين السماء.

لم يكن لأبي في قبره أثر، لم يكن هناك إلا عشب مشلع وأوراق شجر مضغتها العاصفة ثم بصقتها، وكانت هناك نسمات خجلات. خُيّل إليّ أن المكان هنا قد خان أصله. انبسطت على ظهري أرى إلى السماء سعيداً، أفرك الورق الأصفر حولي ولا انصت إلا إلى خربشات هذا الورق الرقراق.

لن أقول إن الورق اليابس غنّى، لن أدخل في متاهات الـ.... كلا!!

الورق اليابس فراش وثير والحور من حولي ناطور، والسماء الزرقاء فسحة نظر.

سأخبئ ما تبقى ببقجتي من أخبار الرجل الذي قرر أن يكون شاعراً ففشل، وسأدفن هذه البقجة في قبر أبي. نعم، لن أسمح لأي كان بالاطلاع على أخبار الأخير، لن أبثّ بعد اليوم أخبار الشاعر لأي أحد.

87

- الرجل الأول: فلنسترح قليلاً لقد تعبت.

- الرجل الثاني: نعم، فلنسترح بعض الشيء، أنا ايضاً تعبت.

- الرجل الثالث: حسناً، لا بأس أن نستريح بعض الشيء.

- الرجل الرابع (وقد اقتعدوا الأرض جميعاً بتثاقل وتهالك ونفس يكاد أن يكون مخنوقاً): انظروا إلى ذلك القبر هناك- أخذ الرجل نفساً عميقاً وأكمل- يبدو كأن العاصفة لم تمر إلا عليه!

جعل الأربعة يحدقون في قبر الأخبار ويتهامسون في المسكين صاحب القبر الذي جنّ بعد أن توفيت زوجته عنه و... لا حول ولا قوة إلا بالله... لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلأطمر بقجة أخبار الشاعر، فلأعجّل في فعل الطمر. لا أريد لهؤلاء الرجال أن يسألوني أي سؤال، لا أريد أن يستفسروني أي استفسار. سأتجاهل وجودهم كأنهم ليسوا موجودين هنا. نعم نعم، لا أحد هنا إلاي.

- الرجل الاول: يقال أن أحد أبناء هذا المسكين قد جنّ بدوره.

- الرجل الثاني: يقال أنه قد تسلل إلى قصر عظيم وأتى عليه بانفجار ضخم.

- الرجل الثالث: يقال أن رجالاً كثراً قد ألقوا القبض عليه.

- الرجل الرابع: يقال أنه قد مات.

كان الأربعة يتكلمون وهم ينظرون إلى القبر الخالي إلا من الأغصان المكسرة والأوراق اليابسة يداعبها النسيم باضطراب وخجل. نعم، كان الأربعة يحدقون شاخصين في قبر لا يحتضن إلا الهواء، فقط الهواء وأوراق الشجر.

88

... أما أنا، فلم أفعل في حياتي سوى دفعي إلى الحد الأقصى ما لم تجرؤوا أنتم أن تدفعوه إلا إلى النصف. (دوستويفسكي)

... الإرهاب لا يبتكر شيئاً ولا يأتي بجديد. إنه فقط يدفع الأمور إلى حدها الأقصى، إلى الذروة. (جان بودريار)

أخبار الصحف

أي عاقل يمكن أن يصدق أن يتحول اللو؟ر يوماً إلى كومة ركام؟ أي عقيدة هي تلك التي يمكن أن ترى في اللو؟ر خطراً عليها؟ أي عقل هو ذاك الذي خطط لتحويل اللو؟ر إلى كتلة خراب؟

كان الأخير متكبتلاً على نفسه داخل غرفة في مكان سري يرى عبر التلفاز إلى متحف اللو؟ر الذي تحول بالفعل إلى متحف للأموات كما هسهس أحد حملة النعوش من الذين كانوا يحدقون في الأخير داخل غرفته السرية.

كانت إمارات الرعب بادية على وجه الصبي المتكوّم في إحدى الزوايا متنقلاً بواسطة الريموت كونترول من محطة فضائية إلى أخرى، وهو يلهث تارة باختناق وتارة بتهدج. كان حملة النعوش يحومون في مكان الأخير، فيتخللونه ومنهم من كان ينبس في أذنه بكلمات لا يفهم هذا الأخير المتخشّب إلا نهاياتها، إلا نهايات هذه الكلمات.

ثمة كلمات انصبت داخل أذني الأخير دفعة واحدة، وكلمات ترامت إليه كنتف الريش متناثرة، وكلمات أخرى دوّت في الأرجاء فزاحمت أسئلة المراسلين الصحفيين والتعليقات الكثيرة التي كانت تبثها شاشة غرفة الأخير.

التزمت الحكومة الفرنسية الصمت حيال الانفجار الذي حوّل اللو؟ر إلى محض غبار واكتفت بأن أعلنت الحداد. جارت كل الدول الغربية الحكومة الفرنسية إعلانها، ولم تبق دولة على وجه الأرض إلا وأعلنت استنكارها لهذا العمل الإرهابي الذي حيّر العقول كما جاء على لسان عميد كلية العلوم الإنسانية في إحدى جامعات باريس. لم يصدق العالم انهيار اللو؟ر كأنه برج من ورق، ولم يتوقع أي إنسان أن يرى بأم العين إلى هذا اللو؟ر يتهاوى كأن المشهد مشهد سينمائي. ما انفكت المحطات الفضائية تعيد صور الانفجار الضخم منذ لحظته الأولى حتى انقشاع الغبار عن مشهد الحطام. ذهل العالم على وقع هذا العمل الإرهابي الغريب، وهي العبارة التي علّق بها على هذا الانفجار أستاذ مادة الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر في جامعة السوربون. توالت التعليقات على انفجار متحف اللو؟ر من كل حدب وصوب، وهي بمعظمها أتت على صيغة السؤال. تحول انفجار اللو؟ر في وعي المحللين الصحفيين والإعلاميين والسياسيين والمثقفين إلى علامة استفهام كبرى أرخت بظلالها فوق الغرب من أقصاه إلى أقصاه.

مرت أيام قبل أن يتقدم قائد الشرطة الفرنسية باستقالته، كذلك فعل وزير الداخلية وغيرهما الكثير من المسؤولين. لم تبادر أجهزة الأمن الفرنسية إلى إصدار أي بيان عن حقيقة ما جرى، لكنها

اكتفت بأن أعلنت على لسان أحد مسؤوليها عن اعتذارها من الشعب الفرنسي ومن العالم الغربي كله بسبب القصور في قدرتها على تعقب الذين أتوا بهذا العمل الإجرامي الخطير. لم يشفع لأجهزة الأمن اعتذارها.

"حتى لو كان مفجرو اللو؟ر أشباحاً، كان على الأجهزة الأمنية إلقاء القبض عليهم قبل وقوع الانفجار"، كما قال أحد الروائيين الفرنسيين من الذي ينتمون إلى أدب ما بعد الرواية الجديدة. تخلخل الغرب حيال غبار اللو؟ر المتناثر، وفغر فاه الحضاري جداً خجلاً من أثينا وروما وهي عبارة تصدرت الملحق الثقافي لعدة جرائد في العاصمة باريس!

لم تتبنى أي مجموعة هذا العمل المنافي لما أجمعت البشرية عليه، على حد قول رئيس أكاديمية الفنون الجميلة في ستوكهولم، ولم يصدر أي بيان عن أي خلية إرهابية ترحب بما اعتور الإرث الحضاري للبشرية قاطبة من تدمير وتخريب حسب قول رئيس قسم كلية الآثار في جامعة أوكسفورد. كل العالم شهد انقضاض الظلمة على النور كما قال متخصص كبير في فنون عصر النهضة. والبشرية يجب أن تجابه بما أوتيت من قوة حفنة الإرهابيين الذين طعنوا قلب الحضارة بسكين حاد، كما قال عالم هام في أيقونات العصر الوسيط. لا يجب أن نبقى مكتوفي الأيدي إزاء هذه الهجمة البربرية التي أودت بروح العالم إلى كل هذا الدمار، والعبارة الأخيرة لرئيس قسم الفلسفة في جامعة برلين. لا يجب مراعاة جانب الآخرين الذين لا يرون في اللو؟ر عيون التاريخ المحدقة في المستقبل، كما قال بروفيسور متقاعد في القانون الروماني القديم.

نعم، لقد استنفر الغرب الحضاري برمته إزاء ما قام به الأخير الذي كان لا يزال شاخصاً يحدق في التلفاز أمامه ساهياً إلا عن مشهد الدمار. كان الأخير شاحباً يقرأ عبر التلفاز أن عمليته الإرهابية تكللت بنجاح لم يسبق له مثيل، وكان يبكي.

كان الأخير يبكي أن اللو؟ر... لم يكن يدري لمَ يتناهبه هذا البكاء، وكان يضحك. كان الأخير يبكي ويضحك وكان يجهش ثم يصمت، بينما الأشباح تحوم حوله كأنها في حفل زفاف.

إنه زفافك يا الأخير... إنه زفاف الأخير!

لم يتنبأ الأخير أبداً أنه سيراقص الأشباح في هذا المكان السري. لم يتنبأ بأي أمر. لم يتنبأ إلا بالانفجار. هبّ من قرفصاء مضت عليه أيام وساعات، وجعل يميل في أرجاء مكانه السري فيقفز عن الأرض تارة ويخبطها بقدميه الخشبيتين تارة أخرى غير مبالٍ ببقع استمنائه أمام زحمة الأشباح.

انصرم الوقت ثم انصرم والأخير يراقص الأشباح، بينما تلك الفضائية وتلك تبث أن عدد القتلى تجاوز الـ...

لم يتوقف أي من أشباح الأخير عند عدد أموات اللو؟ر، ولم يهتم إلا الأخير بجثتي بطتين صغيرتين تنتشلان من بين الأنقاض. صار الأخير يخبط رأسه بكلتا يديه مكفكفاً الدمع قدر استطاعته عن وجنتيه.

إنه زفاف الأخير... إنه زفاف الأخير.

غيّر الأخير محطة التلفاز إلى غيرها، ثم غيرها وغيرها وغيرها، ليس العالم إلا مشهد أنقاض اللو؟ر وجثثاً تنتمي لعصور مختلفة تُسحب من بين الأنقاض. تهيّب الأخير مشهد أمه، مشهد تلك

اليدين الحلوتين. تسمّر في مكانه يرى إلى تلك اليدين معفرتين بالتراب وأحدهم يعلّق بكلام شدّ عيني وسائر حواس الأخير. لم يتحر الأخير في هذا المتكلم اسماً أو صفة. لم ير إلا إلى الدمع المكبوت في حدقتيه وإلى صوته يقول بحزن: إن هذه المدينة تشبه أن يكون الشيطان قد حملها في سلة مثقوبة، فتناثرت على الدرب هنا وهناك، مستعيراً في ذلك أحد أبطال رواية "الممسوسون". نعم، قال صاحب الدمع المكبوت، إن كل المدينة تناثرت وليس اللو؟ر فقط هو من تناثر مع هذا الانفجار.

كانت صاحبة اليدين الحلوتين، وبالتزامن مع كلام الرجل، تُسحب من بين الركام إلا من وجهها البشع كما تبين الأمر للأخير. أسف رجال الإنقاذ أن الموناليزا قد ماتت، ما حدا بصاحب الدمع المكبوت إلى أن ينفجر بالبكاء.

همد الأخير وهو يرى إلى اليدين المعفرتين بالتراب. همد إلا من نبض سريع وشهيق يزاحم الزفير وصوت حنون يسأل الأخير عن اسم هذه المرأة وعن يديها الحلوتين. تاه الأخير عن صاحب الدمع الذي انفجر بالبكاء، وولّى العالمَ، كل العالم أذناً صماء إلا من صوتٍ يسأل الأخير: عَن جَد دَيْها متل دَيّي؟! عَن جَد دَيْها...؟! سؤال ملك على الأخير حواسه لساعات، وصار يلح كل مرة بنبرة أرق ثم أرق حتى تحول إلى ماء.

لم يفتر صوت اليدين لحظة واحدة داخل أذني الأخير. لم ينأ هذا الصوت عن قسمات الأخير هنيهة، بل واظب على صياحه كأنه ديك، كأنه مطر، كأنه قطط.

كانت محطات التلفزة تبث في هذه الأثناء خبر محاصرة رجال الشرطة لمبنى قديم في إحدى ضواحي باريس يُعتقد أن منفذي عملية اللو؟ر مختبئين فيه. كان المبنى عبارة عن مسرح مهجور إلا من بعض الغرف الضيقة والتي تحوي مشردين من هنا وآخرين من هناك.

ما ظنت الشرطة يوماً أن هذا المسرح العتيق يمكن أن يكون موئلاً لخلايا إرهابية أو لناشطين في مجال التخريب. لكن، وبناء على تحريات واستقصاءات ما بعد حداثية، تمكنت أجهزة الشرطة الفرنسية من تحديد موقع الإرهابيين في هذا المكان اللامتوقع من قريب أو من بعيد.

أجساد قطط، أجساد مطر، أجساد ديك. كان الأخير وقد هدهده صوت اليدين كأنه سرير، مستلقياً على أحد جانبيه طاوياً ركبتيه حتى بطنه شابكاً يديه ببعضهما البعض وغارقاً في لجة النوم.

أي من أشباح الأخير لم تكن في المكان. لم يكن في الغرفة إلا الأخير وأجساد قطط، أجساد مطر، أجساد ديك.

89

ما إن وطأت قدما الأخير الخشبة، حتى ضج المسرح بتصفيق حاد كأنه مطر ينهمر. كان المشهد السابق قد انتهى منذ لحظات وها هي الستائر المخملية الرائعة الجمال تُرفع عن المشهد الأخير. لم يكن على الخشبة الآن إلا الأخير والأضواء المسلطة عليه وتصفيق المشاهدين الذي جعل يشتد أكثر فيخترق أذني الأخير تماماً كمطر ينهمر.

لم يأت الممثل الشاب بنأمة حركة ما عدا انثناءة خفيفة يحيي عبرها جمهرة المصفقين. ارتسمت علامات الحبور على وجه الأخير وقد لاقى هذا الإعجاب الحار من قبل الحضور. لم يتوقف التصفيق المنهمر بإلحاح، بل ترى إليه امتد لدقائق ثم دقائق ودقائق أخرى، والأخير ينثني ثم يستقيم ليعود فينثني من جديد متوقعاً توقف التصفيق لحظة بعد لحظة.

لم يكن الأخير يدري من أمر المشهد التالي أمراً. لم يسبق له أن قرأ مقاطع هذا المشهد أو تمرن على برو﴿اته، ومع هذا كان به شوق جارف لتأدية هذا المشهد الأخير.

كان المكان غارقاً في حلكة ليلاء إلا بقعة الأخير الذي كان في غمرة انثنائه يتحرى المشهد التالي كأنه سر ينتظر كشف النقاب.

ربما مشهدي الأخير هو هذا التصفيق الحاد؟! فكّر الأخير. أو لعله وقوفي هنا تحت الضوء؟؟

لم يتبين الصبي مشهده الأخير من قريب أو من بعيد، وصار كمن يفاوض خشبة المسرح كي تمدّه بإداء آخر أو تبتدر مقطعه الأخير. تقلّص صدر الأخير وقد رأى إلى نفسه بغتة بثوب برتقالي فضفاض والناس على مرمى عينيه يصفقون ويصفقون. كان لا يزال هناك تحت الضوء الساطع لما تحوّل إلى البرتقالي الفاقع.

حتى هو، حتى الأخير ذُهل بهذا البرتقالي المباغت. اقشعر بدنه وثمة ما يشبه رعدة الخوف تخللت جسده وقد لمس سطوة هذا المسرح وقدرته العجيبة على البرتقالي. صار الشحوب يتمدد على وجه الأخير لما حاول النأي بنفسه عن بقعة الضوء، والانسحاب إلى عتمة المسرح. لكن الأغلال كانت تشد قدمي الأخير فترهقه عن كل عتمة وعن كل مخبأ. كان مطر التصفيق ينهمر بشدة أكثر مع كل مشهدية تأتي بها هذه الخشبة على جسد الأخير.

أجساد... أجساد... أجساد... أجساد... صار يقول الأخير وقد رأى فجأة إلى معصميه مغلولين بالأصفاد.

لم يتسن له معرفة اسم هذه المسرحية أو اسم مخرجها، ولم يتأت له تذكر وجوه الممثلين الآخرين. لم يأنس الأخير في نفسه إلا القدرة على أداء دوره البرتقالي.

اشتد شحوب هذا الممثل القدير وقد زاحمت الأغلال أطرافه حتى آلمته، وشعر بالعجز إلا عن البكاء أمام كل الحاضرين. صار يبكي بينما التصفيق يرسم المسرح بتصفيق أكثر وبدموع الأخير وبنهنهته: بدّي إمي... بدّي إمي.

لم تكن أم الأخير هنا. المسرح يعج إلا من أم الأخير.

صار الأخير تحت وقع التصفيق المنهمر كأنه قط يحاول تجنب زخ المطر، وجعل يشد يديه بقوة محاولاً التخلص من ربقة الغل المشدود وقطع أصفاد قدميه ومعصميه. أُسقط في يده وخارت قواه فأرخى كتفيه النحيلين وانحنى برأسه إلى الأمام، ثم سقط بأغلاله المتينة تماماً تحت نقطة الضوء.

توقف زخ التصفيق فجأة، وصار المسرح كأنه خال ما عدا من المغلول. تحول هذا المسرح على حين غرة إلى مساحة صمت مريب إلا من وقع أقدام مكتومة كانت تتناهى إلى مسامع الأخير بحذر ثم مشهد باب يُدفع بقوة ودفق من الوجوه والأسلحة وضوء ساطع مركّز على وجه الأخير.

90

كبش الفداء لا يعمل إلا في مجتمع أنهكت الأزمة ناسه فتضعضعت العلاقات فيما بينهم. أما كبش الفداء هذا، فهو رجل يأتي من مكان آخر. إنه غريب الدار الذي يُدعى إلى احتفال ينتهي بقتله بشكل تعسفي. لماذا؟ لأنه قام بعمل لا يجوز القيام به، تصرفه كان ضاراً.... (رينيه جيرار)

كان المطر ينهمر غزيراً فيخالط صوته الذي يشبه التصفيق الحاد أصواتاً أخرى.

تحولت سخونة الشاي الأسود داخل الكوب إلى برودة، والكاتب الجميل ما زال مستغرقاً في كتاب يقرأه بحماس. لم يكن ثمة صوت إلا صوت الشتاء وطرطقة الحطب في المدفأة وزيزقة خجولة تأتي بها كنبة زرقاء من وقت لآخر. كان الكاتب يوغل في الكتاب الذي بين يديه والسماء توغل في المطر وحطب المدفأة يوغل في ألسنة اللهب.

يقال أن الدم المراق يفقد مفعوله مع الزمن، ما لم يتم رفده بدم جديد من وقت لآخر.

... توقف الكاتب الجميل ملياً عند الكثير من عبارات "كبش الفداء"، وكان مع كل عبارة تثيره يدوّن جملة ملاحظات تارة على الكتاب الذي بين يديه وتارة على هامش الرواية التي يكتبها. كان قد صار عند اللحظات الأخيرة من روايته ممنياً النفس أن ينهيها على وقع المطر المنهمر وحطب المدفأة والكبش.

من حين لآخر، كان ينصرف عن الكتاب الذي بين يديه وينحني فوق ورق روايته يدوّن مرة ويشطب مرات ومرات. لم يتأت للكاتب الجميل، وفي زحمة الليل والمطر والنار والكبش، أن يزيح ما اعتور ذهنه من تشابكات مع اللحظات الأخيرة للرواية. عاد إلى شايه الأسود يحتسيه شاخصاً في نار المدفأة التي تبدّت ألسنة لهيبها البرتقالية كأنها أناس يتقافزون فوق صفيح متقد.

91

كانوا عراة بالكامل حتى من شعرهم، وكانوا يتقافزون فوق بقعة من الحديد المحمى على مرأى من بعض المجندين والمجندات وكلاب ضخام. منهم من كان معصوب العينين أو مغلولاً بالأصفاد، وبعضهم كان حراً فوق الصفيح الساخن إلا من كيس أسود يغطي الوجه حتى العنق وكلهم كانوا يتقافزون هناك إلا الأخير.

برأس أقرع ووجه نتأت عظامه وعينين مقعرتين وجسد هزيل، كان الأخير مسمراً فوق الصفيح كأنه شبح. نهرته إحدى المجندات أن يشارك الآخرين القفز وإلا... لتلتفت إلى كلب ضخم تشده بحبل في يدها: do you want to have more sex with this "Hero" ؟؟، ثم موجة ضحك صاخب مع بقية العسكريين.

صار الأخير يقفز فوق الصفيح مع أصفاده صامتاً إلا من:

أخير يا أخير ياما عيّروني فيكْ

وكل ما عيّروني زاد حبي ليكْ

إنتَ الحبق عَلْ طَبَقْ وانا الندا يسقيكْ

وإنت النجم بالسما وانا الدرب برعيكْ

تاه الأخير عن نباح الكلاب وقهقهات المجندين والمجندات، وتاه أيضاً عن تهدجات الذين يقفزون فوق الصفيح وتنهيداتهم وصار يصيخ السمع إلى زيزقة سرير معلّق و...

يلّلا تنام يلّلا تنام

لادبحلَك طير الحمام

روح يا حمام لا تصدق

عَمْ بضحك عالأخير لينام

نام الأخير فوق صفيح لا يشبه السرير المعلق. نام هناك غريباً عن كل العالم. نام غريباً عن جسده، عن عرائه. نام غريباً عن كل شيء إلا عن ابتسامة قديمة زينت شفتيه المشققتين.

قهقهات أولئك الآخرين وأصوات نباح كلابهم صارت تذوي عن مسامع الأخير تباعاً، ومشهد الأقدام المتقافزة أخذ بالتلاشي عن ناظري الأخير لحظة بعد لحظة.

نام الأخير فوق الصفيح، ونامت النار داخل مدفأة الكاتب الجميل الذي وضع القلم جانباً واحتسى آخر نقطة من شايه الاسود ولاذ إلى صمت الليل.

92

- الصديق: كم من الوقت اشتغلت؟

- جويس: اشتغلت طوال النهار حتى هدني التعب.

- الصديق: هل كتبت كثيراً من السطور؟

- جويس: لا... أربعة فقط.

- الصديق: إذاً، لقد اخترت كلمات رائعة؟

- جويس: لا... اخترت كلمات عادية.

- الصديق: إذاً، ماذا فعلت؟

- جويس: اشتغلت على النسق الذي أردت وضعها فيه.

كان الكاتب يدوّن حواراً بين جيمس جويس وصديق له كتصدير لروايته لما تناهت إلى مسامعه أصوات جلبة وضوضاء آتية من البيت الملاصق لبيته. كان المطر قد توقف منذ قليل ولحظات الفجر الأولى آخذة بالانبلاج. قام عن كنبته الزرقاء وتوجه إلى النافذة يفتحها حيث ثمة قط أسود قفز بذعر وأربعة رجال كانوا يعبرون الزقاق الضيق الذي يفصل بيته عن بيت الجلبة والضوضاء.

ما الأمر، ماذا يجري؟ سأل الكاتب.

- الرجل الأول: يبدو أن جارك قد رزق بولد.

- الكاتب الجميل: وماذا أسموه؟

- الرجل الثاني: يقال أنهم أطلقوا عليه اسم المطر.

- الكاتب الجميل: مطر؟!

- الرجل الثالث: والده متشبث باسم البحر.

- الكاتب الجميل (متمتماً): مطر؟! بحر؟!

- الرجل الرابع: ترامى إليّ أنهم اختاروا له اسم الليل.

- الكاتب الجميل (كمن يكلم نفسه): لم لا يسمونه الأخير؟

- الرجل الأول والرجل الثاني والرجل الثالث والرجل الرابع: الأخير!!!

على الرغم من عدم اقتناع أحد أن يُطلق على وليد الحي الجديد اسم "الأخير"، فإن فوزي حارس مرمى فريق البلاطة كان كلما أرسل الكرة إلى وسط الملعب يتمنى أن يتلقفها ذلك الأسمر المشعث

الشعر الذي يستطيع مراوغة أكثر من لاعب في آن معاً، والذي كلما يسجل هدفاً في مرمى الفريق الخصم يهب الملعب بصوت واحد: الأخير... الأخير.

لا أحد يدري لماذا لُقّب بالأخير، وكأني بهذا اللقب، وقد أطلق عليه منذ ...

ماذا عساي أقول؟ حقاً، لا أحد يدري لماذا لُقب بالأخير. والده يقول أن اللقب تلبسه لأنه الأخير بين إخوته من حيث الولادة، لكن أمه تنفي هذا الكلام مؤكدة أن والدها هو من أطلق عليه لقب الأخير منذ أن كان في بطنها. وقد لقبه جده بالأخير لأسباب تتعلق بالزرع والحصاد كما كانت تقول.

أحدهم، وهو صياد سمك متقاعد، كان يقول أن الولد لُقّب بالأخير لأسباب تتعلق بالبحر، حيث كان يصطحبه معه من آن إلى آن في رحلات صيده. بيد أن البحر ليس السبب الحقيقي لتلقيبه بالأخير، إذ ثمة صاحب فرن ضخم الجثة أجش الصوت كان يردد أنه لُقب بالأخير لأسباب تتعلق بالخبز والعجين. فالأخير كان يتقصد أن يدخل إلى الفرن يومياً ويجاري العجين هناك ويجاري الخبز.

... لكن، لا الخبز ولا البحر هيّآ القناعة التامة بشأن لقب الأخير.

فوزي ذبيان، روائي لبناني، حاصل على دبلوم دراسات عليا في الفلسفة.

صدر له: الكميل (رواية)، دار الساقي، 2005.

ISBN 978-9953-71-571-1

9 789953 715711